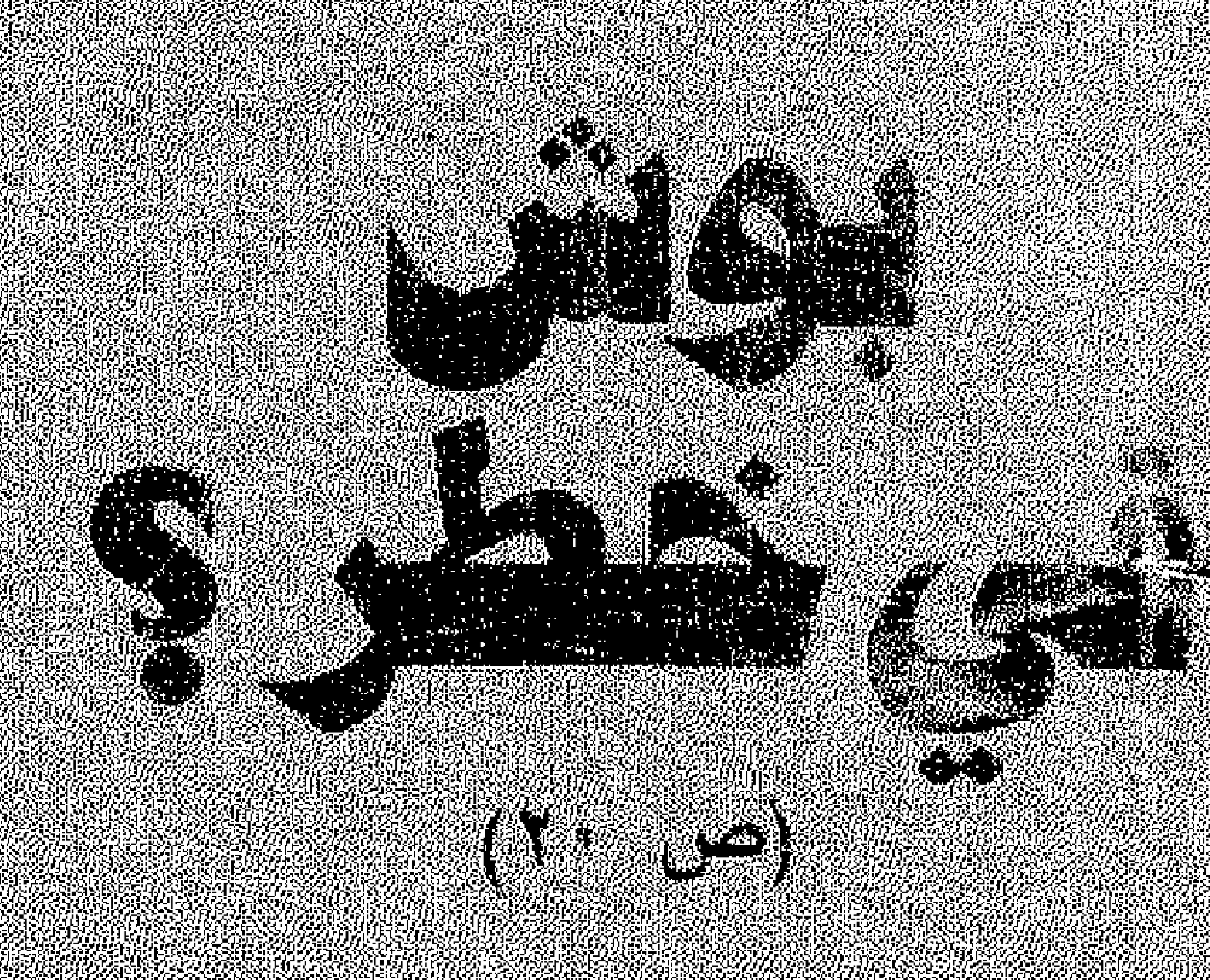
ابريل (نيسان) ١٩٩٢ - شوال ١٤١٢

Reader's Digest

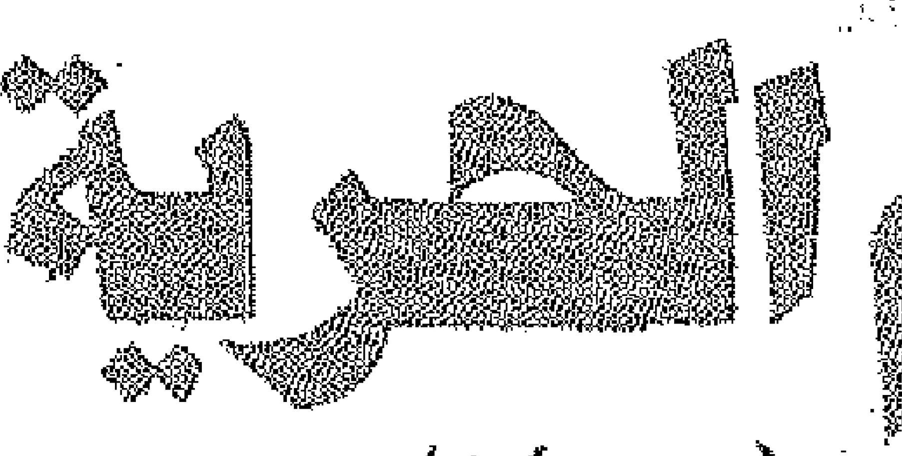
المختار

AL MUKHTAR min Reader's Digest April '92 N° 161

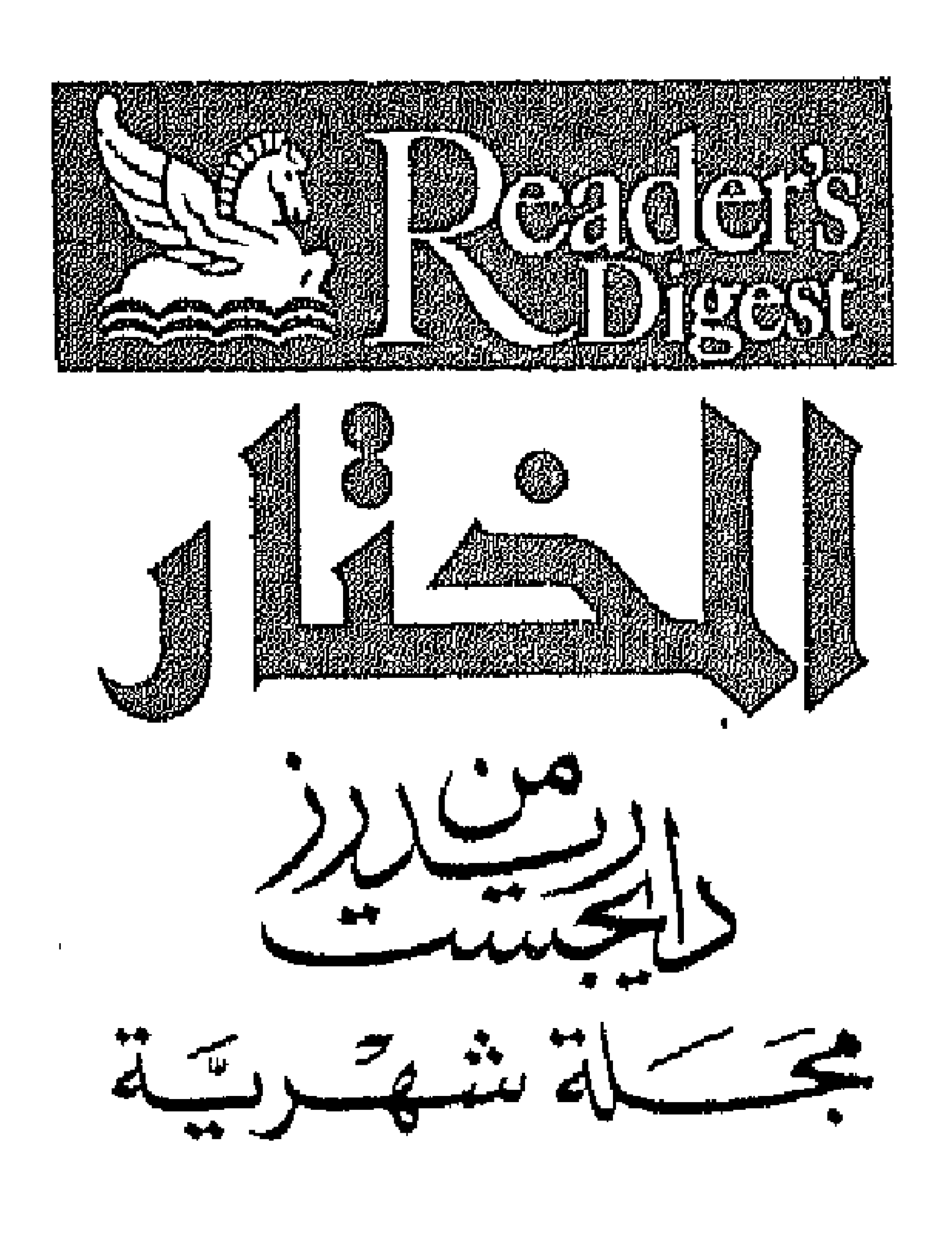


(ص ٤٤)





أوسع المجلات انتشاراً في العالم
٤١ طبعة، ١٧ لغة، ٢٨ مليون نسخة شهرياً



رئيس التحرير – المدير المسؤول: ادمون صعب.
مديرة التحرير: راغدة حداد.
أمانة التحرير: لورا نفاع، عائدة الموسوي.
الاشتراكات: فريال علاف.
مدير القسم الفني: جورج غالي.

الامتياز: شركة النهار للمنشورات الدولية - باريس.
الناشر: شركة "ايبراك" للمنشورات الدولية - بيروت.
رئيس مجلس الادارة – المدير العام: الدكتور لوسيان دحداح.
المدير العام المعاون: داني دحداح - باز.
التحرير والادارة: شارع المقدسي، بناية الشرتوني، ص.ب ٨٧٠٧ بيروت - لبنان.
التلكس (الموقت): MEM 22288 LE / ANAHAR 22322 LE.
الهاتف: ٣٤١٥٩٧ / ٣٧٠٥٧٥(١)
الاعلانات: MEDIA LINKS INTERNATIONAL, S.A.R.L. العكاوي، بناية ميديا سنتر، الهاتف ٢١٦٠٥٨ - ٣٢٧٤٨٤(٠١). التلكس PRESSE LE ٤٣٢٨٣
فاكس ٨٦٤٥٧٢ - ص.ب ٦٨٨ - ١١ بيروت - لبنان.
التنضيد والتنفيذ: المطابع التعاونية الصحفية، شارع مصرف لبنان، بيروت.
الطباعة: المطبعة العربية، المدينة الصناعية، البوشرية - لبنان.
التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات، بيروت.

AL MUKHTAR min Reader's Digest



Editor-in-Chief: Edmond Saab.
Managing Director: Dany Dahdah-Baz.
Makdessi St., P.O.Box 8707, Beirut, Lebanon.
Telex ANAHAR 22322 LE / MEM 22288 LE.
Tel. (1) 341597 / 370575.
Advertising: Media Links International, S.A.R.L. P.O. Box 11-688, Beirut, Lebanon. Telex 43283 PRESSE LE.
FAX (1) 864572. Tel. (1) 216058/327484
Circulation Audited by G. Bargout C.P.A.

لبنان	١٥٠٠ ليرة.
سورية	٧٥ ليرة.
الأردن	١ دينار.
الكويت	١ دينار.
الامارات العربية المتحدة	١٠ دراهم.
قطر	١٠ ريالات.
البحرين	١ دينار.
السعودية	١٢ ريالاً.
مصر	٢ جنيه.
السودان	١ جنيه.
ليبيا	٥٠٠ درهم.
الجمهورية اليمنية	٢٥ ريالا
مسقط	١ ريال.
قبرص	١،٥ جنيه.
تونس	١ دينار.
المغرب	١٠ دراهم.
الجزائر	٧ دنانير.
انكلترا	١،٥ جنيه.
اليونان	٤٠٠ دراخما.
كندا وامريكا الشمالية	٢،٥ دولار.

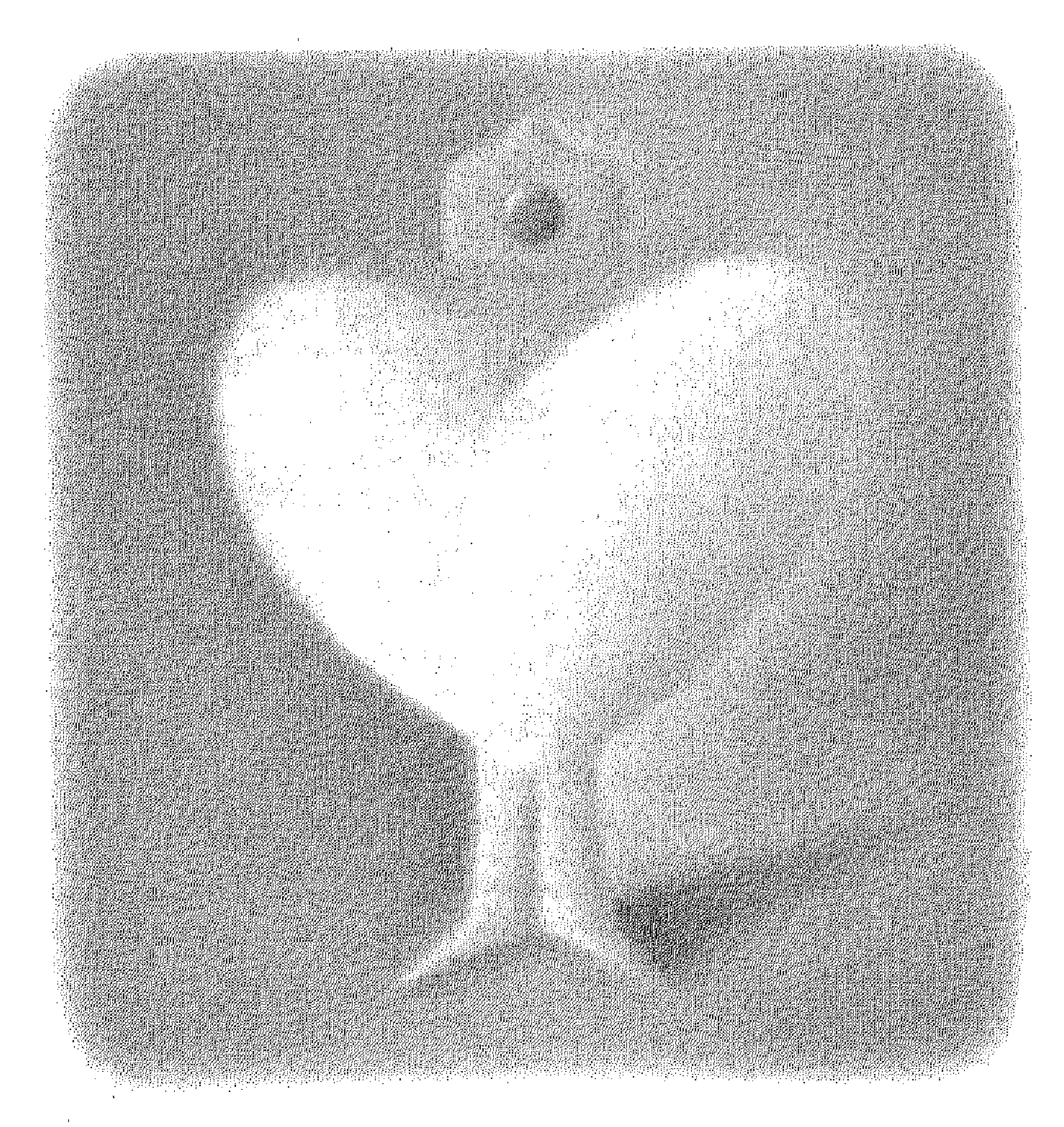
ريدرز دايجست
المؤسسان: دي ويت والاس وليلي اتشيسون والاس.

الطبعات الدولية
رئيس التحرير: كنيث توملنسون.
مدير التحرير: كريستوفر ولكوكس. المدير العام: جورج ف. غرون.

April '92 N° 161 (New Series) Vol. 14

مسـابقـة «مـازدا»

اظهـر وجهـة نظـرك
ونحن نعرضها على العالم



هذه فرصة سانحة للتعبير عن نفسك ولاشراك العالم في مشاعرك واذا كانت صورتك بين الصور الـ١٥ الفائزة بالجائزة الاولى، فأنك لن تحصل على ٣٠٠٠ دولار اميركي فحسب، بل ان صورتك الفائزة ستزين بها "مازدا" روزنامتها الانيقة للسنة ١٩٩٣. كذلك سينال كل من الفائزين الـ٤٥ بالجائزة الثانية ٥٠٠ دولار اميركي.

اذا صوب كاميراتك نحو "مازدا" وابد لنا وجهة نظرك الخاصة.
اننا نحب ان نعرضها على العالم

للتصوير الفوتوغرافي ١٩٩٣



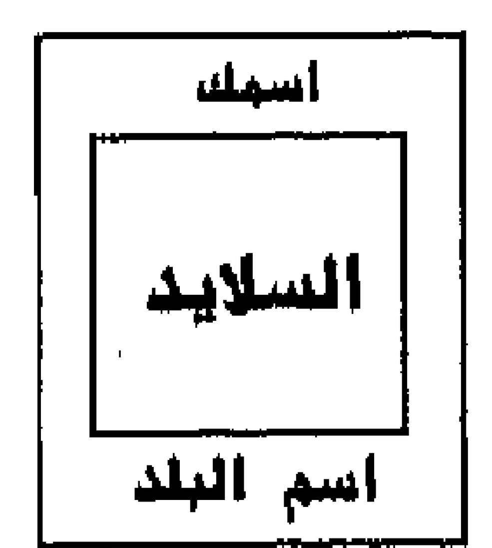
الشروط

١. هذه المسابقة التي ترعاها شركة "مازدا"

Mazda Motor Corporation, 3-1 Sinchi, Fuchu-Cho, Aki-gun, Hiroshima, Japan.

مفتوحة امام اي مصور، سواء اكان هاويا ام محترفا. موضوع المسابقة هو: "لنمرح مع سيارات مازدا وشاحناتها" ان شراء سيارة "مازدا" او اقتناؤها ليس ضروريا للاشتراك في المسابقة.

٢. الاشتراك يكون بشريحة (Slide) ملونة، قياس ٣٥ ملم مركبة افقيا، تضم اسم المشترك وبلده. يستطيع المشترك التقدم بعدد السلايدات الذي يريد. وكل واحدة يجب ان ترافقها قسيمة موقعة منه (القسائم متوافرة لدى اقرب وكيل لسيارات "مازدا") او ورقة شخصية موقعة من المشترك تتضمن التفاصيل الآتية مطبوعة او مكتوبة باحرف كبيرة واضحة:



١) الاسم ٢) العمر ٣) الجنس ٤) العنوان ٥) البلد ٦) الوظيفة ٧) رقم الهاتف ٨) عنوان (موضوع) الصورة ٩) تاريخ التقاط الصورة ١٠) مكان التقاط الصورة ١١) اسماء الاشخاص الظاهرين في الصورة ١٢) الدافع الى التقاط الصورة: أ – مجلة ب – وكيل ج – عائلة / أصدقاء / أصحاب د – آخرون. (حدد)

٣. الفيلم يجب ان يركب افقيا كما في النموذج.

٤. يجب ان تصل الشرائح بين اول فبراير (شباط) ١٩٩٢ و٣٠ يوليو (حزيران) ١٩٩٢ ضمنا الى العنوان الآتي:

Mazda Photo Contest
P.O.Box 93, Kyobashi Post Office
Tokyo — JAPAN

و"مازدا" ليست مسؤولة عن اي ضياع او تلف للسلايدات، ولا عن السلايدات التي تصل متأخرة او تذهب الى غير هذا العنوان.

٥. سيتم اختيار ١٥ فائزاً بالجائزة الاولى ينال كل واحد منهم ٣٠٠٠ دولار امريكي. وخصصت ٤٥ جائزة للفائزين بالمرتبة الثانية، قيمة كل منها ٥٠٠ دولار. تدفع قيمة الجائزة اما بعملة بلد الفائز، استنادا الى اسعار الصرف عند الدفع، واما بالدولار الامريكي. تعطى جائزة واحدة في العائلة الواحدة. والجائزة اسمية غير قابلة للمبادلة.

٦. ستنظر في السلايدات المشتركة في المسابقة لجنة خاصة بمسابقة التصوير للسنة ١٩٩٣، وهي هيئة مستقلة من الخبراء، وتعتمد في حكمها: الابداع، التأليف والتقنية التصويرية. وحكم اللجنة سيكون نهائيا.

٧. ويبلغ الفائزون بواسطة البريد، وتنشر اسماؤهم في الـ"ريدرز دايجست" لشهر ديسمبر (كانون الاول) ١٩٩٢. وهذا التاريخ ممكن تعديله.

٨. ان الصور تقبل والجوائز تقدم على اساس ان الصور اصلية وانها ملك حصري للمشترك ولم تعرض على النشر في اي مكان ولم تقبل فيه كذلك.

٩. تحتفظ "مازدا" بكل الصور ولا تعيدها الى اصحابها.

١٠. تحتفظ "مازدا" لنفسها بحق استعمال الصور ونسخها ونشرها وعرضها في نطاق هذه المسابقة او في اي نشاطات ترويجية، كما تحتفظ بكل الحقوق العائدة الى الصور الفائزة بما فيها حق نسخ او نشر او عرض الصورة في اعلانات "مازدا" الموجهة الى المستهلكين او لاي شان آخر.
وعلى اي مشترك في هذه المسابقة ان يحصل على اي موافقات ضرورية، تحقيقا لهذه الاغراض، من الاشخاص الذين يظهرون في الصورة، فضلا عن الاغراض او الاشياء التي تظهر في الصورة.
ويبرىء المشترك ذمة "مازدا" من اي ضرر او تعويض ينشأ من اي مطالبة او مسؤولية تنتج من نشر الصورة المقدمة الى المسابقة او عرضها.
ومن اجل هذا الغرض، يطلب من جميع الفائزين التوقيع على وثيقة موافقة سترسلها اليهم "مازدا"، لتوقيعها واعادتها اليها خلال ٣٠ يوما، كشرط لدفع قيمة الجائزة.

١١. هذا العرض يعتبر لاغيا حيث يمنعه القانون..

١٢. تقع على عاتق الفائز اي ضرائب تترتب في بلده على قيمة الجائزة.

١٣. ان اي خرق لهذه القواعد يمنح "مازدا" الحق في حرمان المخالف من الاشتراك في المسابقة.





- قد تكون الكلمة المناسبة فاعلة، ولكن لا كلمة أفعل من الصمت في محله.

مارك توين، كاتب امريكي (١٨٣٥ - ١٩١٠)

- الوقائع أمور عنيدة.

ا.ل.

- الحافز يدفعك الى الانطلاق، والعادة تبقي حركتك مستمرّة.

ج.ر.

- هناك وجهان لكل قصة... على الاقل.

آن لاندرز

- جوهر الزعامة أن تكون لديك رؤيا، اذ لا يمكنك أن تنفخ في مزمار لا تثق بادائه.

ت.هـ.

- التغيير عمل شاق.

بيلي كريستال، ممثل امريكي

- الجسور التي نعبرها قبل بلوغها مبنيّة فوق أنهار وهمية.

ج.ب.

- علم المال هو فنّ تمرير النقود من يد الى أخرى حتى تتلاشى.

ر.س.

- تعلمنا الخبرة أن الانسان لا يتعلم شيئاً بالخبرة.

برنارد شو، كاتب ايرلندي (١٨٥٦ - ١٩٥٠)

- اذا ظنّ أحدهم أن لا مسؤوليات عليه، فذلك لأنه لم يبحث عنها.

م.ل.

- سيأتي وقت تعتقد فيه أن كل شيء انتهى. عندئذ تكون البداية.

لوي لامور



من الماضي

أشياء من الامس ترافقنا في ترحالنا وتعيد الينا ذكريات ماضٍ سعيد

دخلت قبل سنوات متجرا للسلع المستعملة ورحت أنبش محتوياته، فعثرت على مجلة قديمة فيها مقالة للأديبة الفرنسية كوليت. كتبت كوليت أنها عندما قدمت الى باريس وراحت تتنقل من مسكن الى آخر (نحو ١٤ مرة بحسب تقديرها) كانت تجرّ أمتعتها كل مرة، بما فيها أغراض منزلية "كبيرة ورخيصة وغير صالحة" جاءت بها من منزل ذويها في الريف. وأضافت أن هذه الأغراض كانت أكبر منها سنا وتحمل ذكريات كثيرة.

رحت بدوري أتذكر الأشياء التي احتفظنا بها، أنا وزوجتي، طوال فترة زواجنا وتنقّلنا المستمر من منزل الى آخر ومن مدينة الى بلدة ومن فلوريدا الى كاليفورنيا، حتى عودتنا الى كندا نهائيا. وغالبا ما كان يصعب علينا توضيب هذه الأشياء البالية التي ترك عليها الدهر بصماته. لكنها كانت تعني لنا الكثير

وأضفت على حياتنا إحساسا بالدوام والاستمرارية.

كنت عندما أضعها في صندوق السيارة يخامرني شعور غريب بالارتياح، كأنها تبسّط الحياة بطريقة ما فتقصُرها على تذكارات صداقة وثيقة وروابط عائلية متينة وحقبات مميّزة من حياتنا. كانت السماء ملبّدة بالغيوم وثلج الصباح يتسلّل بين أغصان أشجار الدردار ليستقرّ في صندوق السيارة المفتوح، ربما فوق العلبة الخشبية التي تخبّىء فيها زوجتي قصائد شعرية ووصفات طعام مفضّلة لديها، كوصفة مكعبات العجين التي أخذتها عن والدة صديقتها.

تلك كانت لحظات فريدة وممتعة من حياتنا العائلية، نبحث فيها عن المكان المناسب لعلبة الأحذية حيث خبّأت زوجتي قشّارة الخضر التي اشترتها قبل ٤٥ سنة من المعرض الوطني الكندي.

ويقع نظري على قاموس "وبستر" الذي أهدته الي زوجتي يوم عرسنا فأصبح رفيق عملي الدائم حتى بدا اعتمادي عليه واضحا على صفحاته البالية. ففي آخره فصل يتضمن شرحاً لعبارات يونانية ولاتينية لا نفقه معناها، فضلاً عن مسرد بكلمات وعبارات اسكوتلندية. فأقف قرب السيارة أتصفّحه والثلج يكسو شعري.

ساعة العرس. كان جارنا في تورنتو طبيبا متقاعداً طويل القامة محدودب الظهر معسول اللسان، وهو دأب على الحضور متكئاً على عصاه لوداعنا كلما نوينا القيام برحلة، فنعيش معاً لحظات لطيفة وشعوراً اجتماعياً جميلا. كان، مثلاً، يقارن عصاه المصنوعة من غصن برقوق بالعصا التي كنت سأضعها خلف دولاب الاحتياط والتي صنعها لي صديق من غصن شجرة سنديان في بلدة لاكفيلد بأونتاريو عندما ألزمني المرض الفراش. وكنا نتناقش في مواضيع تحظى باهتمامنا المشترك، فأريته ذات يوم مسحاجاً خشبياً قصيراً كان يخصّ جدّي الذي قدم من نوتينغهام في بريطانيا.

ولدينا غطاء صوفي مربّع النقوش أهداه الينا قبل سنوات جيران طيّبون. كان هذا الغطاء آخر غرض نضعه في السيارة فنمدّه، كمسة ترتيب أخيرة، فوق حمولة المقعد الخلفي. وكان مفيداً جداً يؤمّن لنا الدفء عند الحاجة. فبات صديقاً قديماً لنا. وغُزل بخيوط من الصوف الاسكوتلندي والذكريات الحميمة، فألفنا رفقته ومنحنا دفئه.

بعض الأشياء التي تولّعنا بها صعبة النقل ولا يتوافر لها مكان في بيت جديد. ومنها عربة شاي رافقتنا منذ أيام زواجنا الأولى وشحنّاها معنا الى منزل زهري اللون يقع في بستان صغير من النخل قرب شاطىء فلوريدا. لكنها قبعت وحيدة في رواق مظلم تعيد الينا ذكريات الأمسيات الأنيقة المريحة عندما كانت والدتي ترتشف كؤوس الشاي بصحبة زائراتها.

نلجأ أحياناً الى خزن هذه الأشياء،

لنعود فنتمتّع بلقائها مجدداً لدى نقلها الى بيت جديد.

فأجدني واقفاً قرب شاحنة في بقعة مشمسة اقرأ مقطعاً من كتاب وجدته في خزانة والدي.

كما نسترجع ذكريات الماضي مع ساعة الجدار التي أهدتها الينا عائلة زوجتي لمناسبة زفافنا.

فقد سكنّا في الفترة الاولى من زواجنا في منزل عالٍ من غرفتين في تورنتو، وكانت الساعة تعلو المنضدة وتتوسط شمعدانين من النحاس الرقيق وترسل دقّاتها الرقيقة خارجاً الى أعالي الاشجار المحيطة بالمنزل. ولسنوات عدة، بقيت هذه الساعة تودّع بدقّاتها ضيوفنا المغادرين في الامسيات السبت عبر الريف الهادىء حيث استأجرنا مزرعة، وعبر مساكب الأزهار على شرفة شقّتنا حين سكنّا في الطبقة الحادية عشرة من مبنى في وسط مدينة تورنتو هرباً من الضجيج. كما استمرّت تدقّ في فترات خصامنا الصامتة، وشهدت مصالحاتنا فشاركتنا فيها بدقّات ارتياحٍ وابتهاج.

إن رؤية الاشياء العزيزة تسرّ القلب، وخصوصاً لدى عودة المرء من غربة الى بلاده فيخالها ترحّب به في أحضان موطنه.

رموز عتيقة. حين أتصفّح كتيّبي عن الكشافة الذي احتفظت به طويلا حتى لوّن العتق أطراف صفحاته، تعود بي الذكرى الى منحدر قرب الشارع الذي ترعرعت فيه في تورنتو. فأشتمّ رائحة الثلج وشجر الأرز ودخان نار المخيم، وأستطعم كِسَر لحاء الأرز في فنجان الشاي. ففي صغري لم أكن أوفّر مناسبة للذهاب الى ذلك المنحدر لاستمع الى مياه نهر الدون وهي تقرقر على ضفافه الموحلة، وأنظر الى الوادي الذي غطاه حجاب من الورق الأخضر وعرائش الخيار البرّي، وأقف مشدوهاً مصغياً الى معزوفة طيور.

نحن نعيش في عالم دائم الحركة لم يعد للحياة فيه ذلك الاستقرار الذي عرفه أسلافنا في ما مضى، عندما كانت المقتنيات العائلية تُحفظ لأجيال في خزائن صينيةٍ أو تعلَّق على قضبان معدنية أو توضًب داخل صناديق من خشب الأرز. لكنني ألاحظ أن بعض الناس ما زالوا متمسّكين بأغراض عتيقة رموزاً للدوام والاستمرارية.

كنت كلما ذهبت مع زوجتي لزيارة صديقة لنا تسكن في محلة صغيرة أو في الطبقة الرابعة والعشرين من بناء شاهق في إحدى المدن (لانها دائمة التنقّل مثلنا) أشعر بسعادة حين أرى لوحة مألوفة (على غرار ساعة بيتنا) معروضة في مكان ظاهر، وفيها تلة انتثرت عليها أوراق الخريف. كان والد صديقتنا رسمها لها قبل نحو أربعين سنة.

وتعود بي الذكرى الى نزهات ممتعة ومخيمات دافئة تعمّها الفوضى ويختلط فيها الأولاد.

وقد لاحظت في زياراتي المتكررة

لابنتي أغراضاً كنت نسيتها تماماً، كنسخة من رواية "نساء صغيرات" حصلت عليها عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وقطعة من جذر شجرة سرو تنبت في مستنقعات فلوريدا وتُباع في أكشاك على الطرق العامة، وجوائز كثيرة يصعب توضيبها، تماماً كساعتنا العزيزة.

نور غامر. كتبت كوليت في مقالتها أن النور المشعّ من القنديل في شقتها المطلة على الشانزيليزيه "كان يغمر" جميع مقتنياتها العزيزة التي شاركتها في مراحل حياتها. ولو قُدِّر للمصباح الى جانب سريري أن يشعّ من خلال باب الخزانة أو أدراجها أو من زاوية غرفة الجلوس، لأنار معطفاً قديماً من التويد عليه علامة فارس مدرَّع اقتنيته يوم كان الشبان يسعون الى الظهور بمظهر النبلاء، وقد علقت الأشواك بمعطفي مراراً عندما كنت أخرج للتنزه. ولكان نور المصباح كشف مظلة ذات ضلع مكسور لم أقوَ على التخلّص منها لأن لها صلة بمرحلة من حياتي يوم كنت أخرج في نزهات ليلية طويلة تحت المطر. ولكان المصباح أنار أيضا كتيّب "شريمر" لتعليم الموسيقى الذي احتفظت به وكلما نظرت اليه تذكرت يوم نويت أن أصبح عازف بيانو.

واقرأ في الكتيّب: "تارانتيلا، رقصة من جنوب ايطاليا." وتضجّ الموسيقى في أذني، وأسمع رقّاص الساعة يتك وأوراق الخريف تسقط على نافذة غرفة الجلوس.

لم تعد هذه الأغراض مجرد أشياء بسيطة، بل هي اكتسبت بعداً عميقاً آتياً من الزمن الغابر. انها تذكّرنا بحالنا في ما مضى وبما آلت اليه حالنا اليوم.

روبرت توماس آلن ■

طبيب القرية

عمي طبيب القرية، وهو متزوج منذ خمسين عاماً. زارته احدى القرويات مرة ولم يكن في المنزل، فاستقبلتها زوجته. فراحت القروية تحدثها عن مشاكلها الصحية، ثم توقفت عن الكلام فجأة وقالت: "سيّدتي، لقد مضت سنوات كثيرة على زواجك من الدكتور، وأعتقد أن في مقدورك أن تصفي لي دواء ما."

م.ب.

قال ناقد أدبي جواباً عن رأيه في كتاب جديد: "تأبى حتى حمامة زاجلة حمل الرسالة المتضمنة في هذا الكتاب!"

ت.س.



ابريل (نيسان) ١٩٩٢
شوّال ١٤١٢

السنة الرابعة عشرة
سلسلة جديدة

مجلة بحجم كتاب. فيها مقالة لكل يوم محكمة الايجاز باقية الاثر

مهما بلغت سطوة تجار المخدرات فانهم يعجزون عن قهر مجتمع متماسك في وجه الشر

خزوا خزائنكم وارحلوا!

وقع المهاجر اللبناني الحلو الحديث فارس وهبه أسير هوى الفاتنة الأمريكية الشقراء دبي بيز حين التقاها للمرّة الأولى عام ١٩٨٢. وسرعان ما تزوّجا واستقرّا في أحد أحياء هوليوود بولاية كاليفورنيا ورزقا أربعة أولاد، صبيين وبنتين.

حافظ هذا الحيّ على طابعه مقاوماً طغيان جارته الكبرى لوس انجلس. فسكانه من الطبقة العاملة، وهم ملاّكو منازلهم أو مستأجرون منذ أمد بعيد ويحيون متآلفين تجمعهم قيم أخلاقية، وينشأ أولادهم وهم يلعبون معاً.

لكن كوكايين الكراك[1] حوّل الحيّ في أواخر ١٩٨٨ سوقاً مفتوحة للمخدرات يقصدها الشارون من أنحاء لوس انجلس في سيّارات أجرة أو سيارات قديمة متكسرة أو ليموزينات[2] فخمة براقة. وبقدومهم شاع العنف والاجرام. فكان فارس ودبي يسمعان ليلاً طلقات ناريّة وهدير مروحيّات الشرطة فيما سكان الحي مختبئون في منازلهم.

وذات ليلة عاد فارس وعائلته من نزهة، واذ انعطفت سيارتهم في المعبر المؤدي الى منزلهم باغتت أضواؤها رجلاً أنيق

(١) الكراك (Crack) نوع صرف متبلر من الكوكايين المحضّر مع عناصر اخرى ليصبح مخدرا ادمانيا قويا. وهو يدخّن بدل ان يُنشق.
(٢) الليموزين سيارة كبيرة فخمة.

المظهر غريباً عن الحي كان يتسلّم رزمة ماليّة من أحد تجّار المخدّرات المعروفين. فأجفل الرجل الغريب وحدج فارس وعائلته بنظرة تتقد شراً. ويذكر فارس: "قرأت في عينيه اني اذا ما واجهته فسيقتلني لا محالة."

بعد أيّام على هذا الحادث لاحظ فارس أن مروّج مخدّرات من الجوار يمارس "عمله" على الطريق. وكان بعد كل بيعة يرسل فتاة دون العشرين لتجلب مزيداً من المخدّرات من رجل في سيّارة "فورد" حمراء. ولم يكن هذا الرجل سوى ذاك الذي شاهده فارس قبل أيّام على طريق بيته. ففهم ما يجري: "هذا الغريب هو الذي يزوّد المروّجين المحلّيين. وهم يبيعون المخدّرات أمام أعين أولادنا."

صاح فارس في راكب الفورد متحدياً: "كفى! هذا حيّنا. خذ مخدّراتك وارحل."

التفت الرجل بعصبيّة الى سيّارة شرطة متوقفة في آخر الشارع، ثم الى الغريب الذي تصدّى له، وفاجأ فارس بلكمة على وجهه ثم انطلق راكضاً.

جرى فارس خلف الرجل الذي توقف بعد لحظات واستدار نحوه. واذ خشي فارس أن يتناول الغريب مسدّساً من ثيابه، انقضّ عليه وأمسك بتلابيبه.

طار صواب دبي وهي تشاهد هذه المعركة، فصاحت بجيرانها الذين خرجوا الى الشرفات: "أهكذا تريدون أن تحيوا؟ علينا أن نفعل شيئاً."

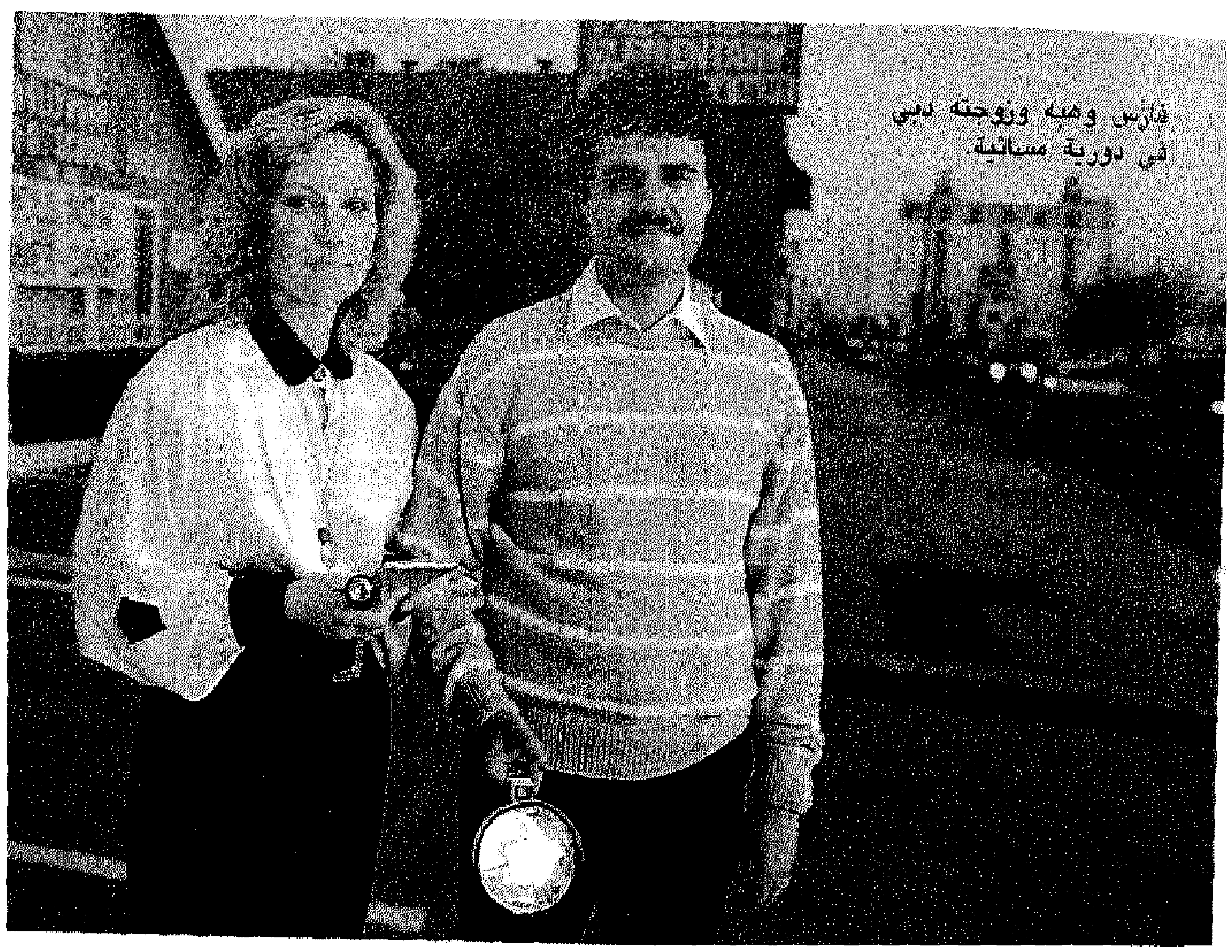
في هذا الوقت وصل رجال الشرطة وقبضوا على المعتدي. وفيما هم يقتادونه الى سيّارة الدوريّة نظر الى فارس وقال له بصوت كأنّه فحيح ثعبان: "سأنال منك."

عاد فارس ودبي الى منزلهما مرتعدين ومتلهفين لرؤية أولادهما الذين عقل الخوف ألسنتهم بعدما شاهدوا ما جرى من نافذة غرفتهم.

تلك الليلة لم يعرف فارس النوم الهانىء. كانت تقضّ مضجعه فكرة كونه وعائلته وجيرانه أسرى في بيوتهم. وتذكر كيف قدم الى الولايات المتحدة هربا من العنف الذي مزق وطنه الأم لبنان، وآلى على نفسه أن يستردَّ حيَّه من قبضة تجار المخدرات.

أثار فضوله ما كان سمعه عن أحياء أخرى تعرّضت لحوادث مشابهة فعمد ساكنوها الى تسيير دوريّات مراقبة. واتصل بمنظمة مختصّة بالدوريّات المدنية قدّمت اليه جملة اقتراحات منها التجوال ضمن مجموعات وتجنّب المواجهات العنيفة أو استخدام الأسلحة أو البطولات الفارغة. ويقول فارس: "قدّموا الينا نصائح ناجعة حول أسلوب التصرّف في الشوارع، كما منحونا كثيراً من الشجاعة."

جمع آل وهبه خمسين شخصاً من جيرانهم في دوريّة أطلقوا عليها اسم "حرّاس هوليوود." كانت خطّتهم بسيطة تقضي بأن يتعقّبوا المروجين في كل تنقلاتهم حتى يخنقوا عليهم مجال العمل، ويباغتوا مدمني المخدّرات القابعين في الممرات المعتمة باضاءتها فجأة


فارس وهبه وزوجته دبي
في دورية مسائية.

بمصابيح كهربائية قوية، وحين يتوقف شار بسيارته سائلا عن المخدرات يقتنّصون له صورة فوتوغرافية ويصرخون به: "ابقَ بعيداً عن حيّنا!"

في كلّ ليلة، مهما كانت حال الطقس، استمرّ المتطوعون يجوبون الشوارع حتى الثانية بعد منتصف الليل، فيما تولى جيران آخرون اعداد الطعام وحضانة الأطفال، وعهد الى المسنين في مهمّة المراقبة عن الشرفات.

وعلى رغم هذه الجهود لم تحقق الدورية تقدماً ملموساً، فثبطت عزيمة بعض الأفراد فانسحبوا. لكن فارس ودبي وقلّة أخرى تابعوا مهمّتهم الليلية. وتأثرت شرطة لوس انجلس بتفانيهم فأفرزت لهم شرطيين سرّيين أمنوا لهم الحماية.

في النهاية أتى تصميم "حرّاس هوليوود" ثماره، فانقطع المدمنون عن المنطقة واختفى المروّجون تدريجاً مع انقطاع "موارد رزقهم." ولم تمضِ بضعة أشهر حتى خلا الحيّ منهم تماماً.

واليوم، اذا لمح جيران آل وهبه شخصاً مشبوهاً في حيّهم، فانّهم لا يغلقون أبوابهم ويتوارون خلفها، بل يخرجون اليه مستفسرين عن سبب وجوده. ولا يزال "حراس هوليوود" يسيّرون دوريتهم بضع ليالٍ في الاسبوع. وهم صادفوا مروّجاً قبل فترة وجيزة فسألهم باشمئزاز: "ألا تزالون هنا؟" ثم مضى.

PHOTO: © BERNARD FALLON

يدرك آل وهبه أنهم وجيرانهم لم يحلّوا مشكلة الكراك، ولكن ما يهمّهم هو أن أولادهم باتوا قادرين على ركوب درّاجاتهم في الشوارع الخالية من المخدّرات. وتقول دبي فخورة بنجاحهم: "لقد انتصرنا في حربنا."

الورقة المنقذة

كان دانيال ماكتشن مروّج مخدّرات سيىء السمعة في كنساس بولاية ميسوري. وكان قصيراً سميناً يرتدي ثياباً باهظة الثمن ويتزيّن بسلاسل ذهبية وخواتم فيها حجار كريمة ضخمة. وقد اعتبره أولاد المحلّة أذكى من أن يُقبض عليه.

دخلت تجارة المخدِّر الخَطِر كنساس سيتي في أواسط الثمانينات. وفي غضون سنوات قلائل برز أكثر من ٣٥٠ "بيت كراك" تغلق الشرطة أحدها فيُفتح آخر في مكان قريب.

وكان يسكن في جوار ماكتشن رجل يدعى ألفين بروكس هو شرطي سابق في كنساس. وكثيراً ما كان ماكتشن يصيح فيه متهكما: "تعالَ وانظر ما لديّ."

عرف الحيّ أوقاتاً عصيبة، اذ كان معظم مالكي الابنية غائبين تاركين أملاكهم مهملة، فتداعت. كما انتهى بعض صفقات المخدّرات بجرائم قتل. لكنّ كل ذلك لم يحمل بروكس على مغادرة المنزل الذي عاش فيه ثلاثين عاماً وربّى فيه ابناً وخمس بنات. فهو شعر بأنّه مدين للمكان الذي منحه كثيراً من الذكريات السعيدة.

ما لم يعرفه ماكتشن والمروّجون الآخرون هو أن بروكس كان يحمل في يده "ورقة" مهمّة جاهزة للاستعمال. فهو ساهم عام ١٩٧٧ في تأسيس منظمة في الحي تدعى "مجموعة مكافحة الجريمة،" بعد سلسلة جرائم وحشية راحت ضحيّتها عشر نساء من كنساس، تسع منهنّ سوداوات. فاتّهمت دائرة الشرطة بالعنصريّة لعدم حلها أيا من تلك القضايا، وأبدى مجتمع السود عدم ثقة بالشرطة ورفض التعاون واياها.

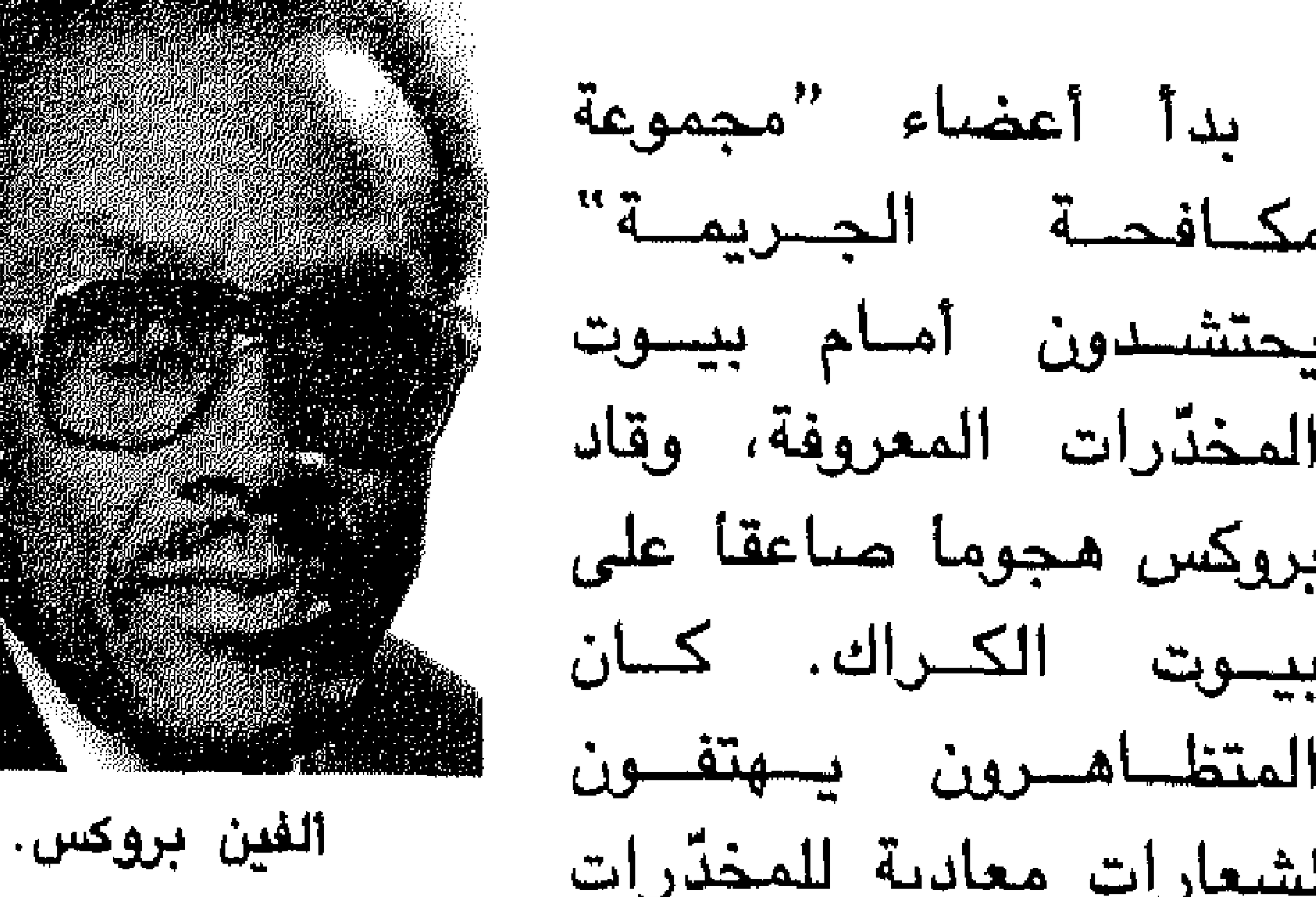
وفي محاولة لرأب الصدع بين الفريقين دعا بروكس الى اجتماع عام حضره أكثر من ثلاثمئة مواطن هزّتهم مشاعر الغيظ. وقال في كلمته محاولاً رفع صوته فوق صيحات الغضب: "لا يسع الشرطة وحدها أن تضمن حمايتنا. اذا لم تتحملوا حصتكم من المسؤولية فاللوم يقع عليكم أنتم أيضاً."

وسرعان ما هدأت العاصفة فتابع: "أنتم على الأرض تسمعون أموراً وترون أشياء لا تسمعها الشرطة ولا تراها. علينا المساعدة."

فاز بروكس بدعم أبناء محلته وشرطة المدينة، فأنشأ "صندوق مكافآت" وحصل على خط هاتفي خاص بالشهود السريين يصل مجتمع السود بدائرة الشرطة ويتناوب العمل عليه متطوعون مهمتهم تلقّي الاتصالات وتحويلها الى الشرطة.

ونجحت الفكرة وتوصلت الشرطة الى اماطة اللثام عن معظم تلك الجرائم.

بدأ أعضاء "مجموعة مكافحة الجريمة" يحتشدون أمام بيوت المخدّرات المعروفة، وقاد بروكس هجوما صاعقا على بيوت الكراك. كان المتظاهرون يهتفون لشعارات معادية للمخدّرات ويوزعون منشورات تدعو السكان الى الابلاغ عن أسماء المروّجين والشارين وأرقام لوحات سيّارتهم. وبهذه الطريقة أمسكت الشرطة أطراف الخيوط التي قادتها الى تنفيذ اعتقالات عدّة.



الفين بروكس.

كان رواج أخبار عمليات الدهم كافيا لدفع مديري بيوت المخدّرات الى حزم أمتعتهم والرحيل. فاذا لم يفعلوا لجأ بروكس وزميله كليفورد سارغون من المجموعة الى استراتيجيّة أخرى: بعد الاشتباه في وجود بيت كراك في احدى البنايات، يقوم سارغون بزيارة "رسمية" لمالك البناية يرافقه خلالها تحرٍّ ومدّعٍ عام. ويحذّر هذان المالك، بصفتهما القانونيّة، من أنّ من حق الدولة أن تضع يدها على ملكية أي بيت للمخدّرات. وهنا يبادر سارغون الى تقديم اقتراح آخر أكثر قبولًا لدى المالك: طرد المستأجر. وبهذه الطريقة أغلقت المجموعة بهدوء أكثر من مئة بيت للكراك.

لكن هذا الاسلوب لم يجدِ مع دانيال ماكتشن الذي كان يملك بيوتا عدة للكراك.

جنّد بروكس جيران ماكتشن للتجسس عليه. وتطوّع من "مجموعة مكافحة المخدرات" أفراد متمرسون في فنّ المراقبة لرصد كل من بيوت المخدّرات الثلاثة التي يملكها ماكتشن واحصاء حركاته: متى يغادر منزله، من يقابل ومتى، أين يتناول طعامه. وكان بروكس يبعث بشذرات المعلومات الى الشرطة. وهكذا بدأت تتشكل قضيّة في حق ماكتشن.

وجاءت الضربة الكبيرة حين اتصل شاهد سرّي ببروكس ذات ليلة ناقلًا اليه معلومات عن مكان اخفاء ماكتشن كمية من الكوكايين. فاقترح عليه بروكس أن يتصل بالشرطة، لكنه رفض. فتولّى بروكس ابلاغ الشرطة بنفسه. وفي ٢٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٩ شنّت الشرطة غارات خاطفة عثرت خلالها على كل الأدلة التجريمية من كوكايين وأموال نقديّة وأسلحة.

حرص بروكس على احضار فتيان الحيّ الى قاعة المحكمة لكي يستمعوا الى مروّج المخدّرات المغرور وهو يعترف بالتهمة المنسوبة اليه: بيع المخدّرات. ثم أصدر القاضي حكمه: السجن عشرين عاماً مع التنفيذ الكامل للعقوبة.

لم تنتهِ المعركة بالنسبة الى بروكس، فهو يقول: "العيش وسط الجريمة والمخدّرات والعنف يعرّض عدداً لا يحصى من الاولاد للخطر." ثمّ ينظر الى جمجمة من الخزف أهداها اليه فتى

يمضي عقوبة في اصلاحية، ويضيف بأسى: "توسّلت اليه لكي يبتعد عن المروّجين، لكنّه وقع. لقد صنع لي هذه الجمجمة في صفّ مهني في أحد السجون، وأرفقها بكلمة جاء فيها: ليتني أصغيت اليك. حين أخرج أريد أن أؤازرك في مكافحة المخدّرات... من أجل الأولاد."


إرما سكايلز.

حرب على المخدرات

تحب إرما سكايلز الاولاد، فهي مارست التعليم سنوات طوالاً في مدرسة ابتدائية في هيوستن بولاية تكساس حيث نشأت ربيبة حيّ "إيكرز هومز." وكان والدها اشترى قطعة أرض هناك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ومع السنوات شاهدت إرما حيّها ينمو ليصبح منطقة تضجّ بالحياة. وتتذكر بشغف: "كنا كعائلة كبيرة نهتم بعضنا لبعض."

وتعود الى السيدة ابنة السبعة والخمسين عاماً ذكريات عروض سالفة في المدرسة الثانوية شاركت فيها جياد مطهمة وثلل سيارة وعربات مبهرجة. وقد جمع مدنيون في هيوستن أموالاً لتشييد حديقة "أندرو وينزر" وفيها ملعب كرة شهدت مبارياته أرقاماً قياسية من المتفرّجين.

لكن مشاكل عصفت بالحي في منتصف السبعينات، اذ ساءت الأحوال الاقتصادية وجاء تطبيق نظام ارسال الأولاد الى مدارس بعيدة[3] ليقلص حسّ الانتماء الى ذلك المجتمع الصغير. وبحلول الثمانينات اجتاح الرعب الحيّ اذ راح تجّار الكوكايين يبيعون بضاعتهم في وضح النهار ويهددون كل من يعترضهم. ونشأ الجيل الجديد مشبعاً بذكريات مختلفة تماماً عن ذكريات إرما سكايلز. وقد قال أحد الشبان: "نادراً ما أكترث لسماع طلقات ناريّة، فهذا أمر اعتدته كل حياتي."

أتى العون مع تولّي لي باتريك براون مهماته عام ١٩٨٢، وهو أول قائد أسود لشرطة هيوستن. فطلب من رجاله تطويع مدنيين شجعان لمؤازرة الشرطة في حربها على مروّجي المخدرات. واقترح الضباط المكلفون حماية "إيكرز هومز" انشاء لجنة عمل تضم شرطيين ومدنيين لمكافحة المخدّرات، اختيرت إرما سكايلز مع اثني عشر متطوّعاً آخرين لعضويتها. ولكن خلال الاجتماع الاول لم يكن أحد راغباً في ترؤس اللجنة. وأخيراً رفعت إرما يدها. لقد قبلت هذه الجدة الفاضلة منصباً ينطوي على مسؤولية وخطر جسيمين.

عمدت "لجنة الحرب على المخدرات" بقيادة إرما الى حض أهل الحيّ على الابلاغ عن نشاط تجار المخدّرات وعلى هدم الأبنية المهجورة المستخدمة

(٣) كانت الغاية من هذا البرنامج تخفيف اختلال التوازن العنصري بين المدارس.

PHOTO: © MICHAEL BODDY / HOUSTON POST

مستودعات للكوكايين. ثم ضغطت على الشرطة للحصول على دعم أكبر، فجاءها هذا الدعم حين عُيّن ديفيد ماسي رئيساً لشرطة المنطقة في فبراير (شباط) ١٩٨٠.

كان ماسي شرطياً محنكاً أمضى في الخدمة ثلاثة وعشرين عاماً. وهو زار "إيكرز هومز" في يومه الأوّل وانتهت جولته عند الاعشاب البريّة العالية المحيطة بالحديقة العامة، فشاهد هناك زجاجات خمر فارغة وعبوات كراك بلاستيكية مرمية على الأرض. وأخذته الدهشة حين أبصر تجارة المخدّرات ناشطة على مقربة منه ولا من يبالي بتوقف سيارة شرطة على مسافة قريبة.

حدد ماسي، بمساعدة إرما سكايلز ولجنتها، المراكز الرئيسية لبيع المخدّرات، فدهمها رجال شرطة سرّيون واعتقلوا المروّجين. ثم حض اللجنة على تجنيد الجيران للتخلّص من "دغل" الاعشاب البرية الذي يسوّر الحديقة ويستخدم معبراً للافلات من قبضة الشرطة. ومع انقشاع هذه الساحة شن ماسي هجوماً قبض خلاله على عدد كبير من المروّجين والمدمنين.

بعد هذا النجاح لم يعد في إمكان أي شخص يُشتبه فيه أن يسير داخل الحديقة من دون أن يتعرّض للاستجواب.

وما لبث أن توقف نشاط المخدّرات كلياً في الحديقة. ولمنع عودته تابعت سيارات الشرطة تسيير دوريات في المنطقة، واستمرّت إرما ولجنتها في حض الجيران على الابلاغ عن أيّ أمر مريب.

ولا تزال مشكلة المخدّرات ترهق مناطق من هيوستن، لكن المروّجين يدركون جيداً أن أهالي "إيكرز هومز" ينوون الاحتفاظ بحديقتهم خالية من المخدّرات.

وتنويهاً بسموّ هذا المجتمع الصغير، قرّرت اللجنة تنظيم احتفال. فحمل فتيان الكشافة المحلّيون راية "لجنة إيكرز هومز للحرب على المخدّرات" وساروا بها في طليعة عرض ضمّ ٣٥٠ مواطناً مخترقين ١٧٠٠ متفرج، وخلفهم النقيب ماسي ممتطياً جواداً وملوحاً للحشد. ثم عبرت جياد تجر عربات مدافع قديمة. وانتهى العرض في باحة الحديقة المستصلحة.

وبلغ التأثر من إرما سكايلز ذروته فقالت: "هكذا كنّا في الماضي."

بول باني ■

وقفة عجيبة

ما إن بدأت افراغ مشترياتي على منضدة الصندوق في السوبرماركت حتى اعتذرت الموظفة قائلة انها ستغيب لحظات وتعود سريعاً. فتابعت افراغ العربة. وما لبثت أن سمعت صوتاً نسائياً خلفي يقول: "عفواً يا سيدتي، هل هذا الخط مفتوح أم إنك متفائلة بطبيعتك؟"

ب.ك.

خاض جورج بوش حرب "عاصفة الصحراء"
ونال ما أراد، لكنه اليوم يواجه في داره التي اهمل
شأنها سنوات، عاصفة هوجاء من نوع آخر،
تهدد عودته الى البيت الابيض

عاصفة في البيت الأبيض

١. أين الضعف عند بوش؟



خاض الرئيس الامريكي جورج بوش حربا طاحنة لاحتواء الرئيس العراقي صدام حسين، وأطاح الديكتاتور البنامي مانويل نورييغا، وهيمن بأعصاب هادئة على مرحلة الانتصار الاخيرة في الحرب الباردة. فبرزت الولايات المتحدة الامريكية في عهده القوة العظمى الوحيدة في العالم.

لكن بوش يواجه داخليا منافسة لاعادة ترشيحه في الانتخابات الاولية للحزب الجمهوري. ويشعر خصومه الديموقراطيون بأنه هدف سهل. ويعترف بوش بأن القضايا المحلية هي أقل اثارة من السياسة الخارجية والاتصالات مع قادة العالم. وقد يكون ذلك نقصا لديه.

يقول الخبير كارلين كين من معهد "أميريكان انتربرايز" ان "الامريكيين كانوا دائما يريدون رئيسا حازما في

الخارج وواعيا مشاكلهم في الداخل." وهم الى الآن لم يحصلوا الا على نصف ما أرادوا.

ويتطلع الناخبون عادة الى قائد يمتلك رؤيا مستقبلية ويطرح قضايا توضح تلك الرؤيا. ولقد بدأ كثير من الناخبين يخطئون بوش لفشله في تحديد ملامح مستقبل واضح يؤمن به الشعب.

في خطابه الى الامة قبل سنة اقترح بوش خطة جريئة لتحريك المشاريع الحكومية "القريبة الى الشعب والبعيدة عن الحكم المركزي في واشنطن" عبر تحويل مبلغ ١٥ مليار دولار الى الولايات حيث تدار المشاريع بمرونة وفاعلية.

كانت هذه سياسة حكيمة، وكادت أن تكون ضربة معلم اذا اخذنا في الاعتبار النقمة الشعبية العارمة على مركزية القرار في واشنطن. لكن السنة انقضت ولم يرسل الرئيس بوش اقتراحه هذا الى الكونغرس لاقراره. ولن تنجح الاقتراحات الواردة في خطابه الى الامة في سنة الانتخابات الرئاسية هذه في تعويض ثلاث سنوات من التردد.

ويمكن ايجاز رئاسة بوش في أربع كلمات: فرص أهدرت في الداخل.

كانت مهمة بوش عندما دخل البيت الابيض تعزيز مكاسب عهد الرئيس السابق رونالد ريغان ووضع برنامج اصلاحي لحقبة ما بعد ريغان ينمّي الحوافز التي أطلقها اقتصاد السوق الحرة في الثمانينات. وهو لم يحقق أيا من الامرين.

فقد خفض الرئيس السابق رونالد ريغان معدلات الضرائب الفردية لحث الاقتصاد وتحريكه، فيما ترك بوش الضرائب تتصاعد مما تسبب في تباطؤ الحركة الاقتصادية.

خفف ريغان القيود الاتحادية على الولايات، أما في ظل ادارة بوش فقد اشتدت قبضة واشنطن التنظيمية عليها.

خلال مأدبة غداء في البيت الابيض، روى رجل أعمال جلس الى طاولة بوش قصصا سمعها عن المغالاة في فرض الانظمة الاتحادية. وفي اليوم التالي هاجم بوش مركزية واشنطن بقسوة في اجتماع مع مستشاريه الاقتصاديين.

والمفارقة هي أن الرئيس بوش هو الذي اقترح مشروع "قانون الهواء النظيف" عام ١٩٩٠ ومشروع "قانون الامريكيين المعاقين" وفيهما بنود أدخلت اجراءات جديدة جذرية.

سترة مجانين. منح بوش مدير الموازنة ريتشارد دارمان ووزير الخزانة نيكولاس برادي ورئيس أركان البيت الابيض (حتى اجباره على الاستقالة) جون سنونو، سلطات واسعة في ما يتعلق بالسياسات الاقتصادية والداخلية. وأقنع هذا الثلاثي بوش بالتخلي عن موقفه المعارض لزيادة الضرائب. ثم توصل الثلاثي نفسه الى "صفقة" في شأن موازنة مع الكونغرس كان مفترضاً أن تقلص العجز.

لكن زيادة الضرائب تطاولت وعمَّقت

الركود الاقتصادي وهو ما أدى الى انخفاض في المداخيل الضريبية الاتحادية. وقضت الصفقة بـ"شد حزام" على الانفاق، لكن ذلك التدبير كان غير مجدٍ. وأظهرت دراسة أجرتها مؤسسة "هيريتدج" للابحاث أن زيادة النفقات المحلية خلال فترة رئاسة بوش كانت خمسة أضعاف الزيادة في عهد ريغان. وقد ارتفع العجز في الموازنة بسرعة هائلة.

ويقضي الاتفاق حول الموازنة بخفض الضرائب في مجال ورفعها في مجال آخر. وقد جاءت النتيجة تقييداً للسياسة المالية الحكومية.

وفيما الاقتصاد يتخبط، كذلك كان بوش. فقد رفض أن يكافح من أجل خفض الضريبة على أرباح رؤوس الاموال[1] مما كان سيعزز النمو الاقتصادي، واعتمد بدلاً من ذلك صفقة الموازنة التي دبرها مساعدوه. فكانت النتيجة أن غدت عجلة النمو الاقتصادي في عهده أبطأ مما كانت في عهد أي رئيس أمريكي منذ هربرت هوفر (في أوائل الثلاثينات).

تسويات مكلفة. تركزت نقمة الناخب الامريكي على الكونغرس. فقد أثارت مجموعة من القضايا اشمئزازاً عارماً من طريقة أدائه، ومنها فضيحة شيكات من دون رصيد في مصرف مجلس النواب وفواتير غير مدفوعة في مطعم المجلس وزيادة كبيرة في رواتب أعضاء الكونغرس وتفشي المحسوبية والحيثيات المربكة والمخجلة في جلسات تثبيت كلارنس توماس المرشح لعضوية المحكمة العليا.

ويفترض بالجمهوريين أن يكونوا جاهزين لاستغلال هذه القضايا ضد الديموقراطيين الذين يسيطرون على كلا المجلسين، لكنهم ليسوا جاهزين.

صحيح أن بوش أيد مشروع القانون الرامي الى تحديد عدد الدورات التي يسمح فيها باعادة انتخاب عضو في الكونغرس، وهو مشروع تؤيده غالبية الامريكيين بنسبة ثلاثة الى واحد، كما انتقد الكونغرس في خطاب له بعد جلسات الاستماع الى توماس، لكنه لم يتابع هذا الخط. والسبب أن الرئيس بوش على علاقة صداقة مع كثير من أعضاء الكونغرس، وتحرجه مهاجمتهم. لذا يفضل التسويات على المواجهة.

كان بوش، بعد تثبيت توماس في المحكمة العليا، مثلاً، في مركز قوة لجبه الكونغرس في شأن تشريعات الحقوق المدنية، فتوماس عدو صريح لنظام الكوتا[2] التوظيفية، والشعب الامريكي بغالبيته العظمى يعارض مبدأ الكوتا. وكان بوش نقض أحد مشاريع قوانين الحقوق المدنية لانه ينذر بأن يصبح "تشريع كوتا."

ومع ذلك قبل بوش تسوية للحقوق المدنية تضمنت كثيراً مما كان رفضه

(١) Capital gains. وهي الزيادة في قيمة الموجودات، من أسهم وعقارات وغيرها، الحاصلة بين تاريخ الشراء وتاريخ البيع.

(٢) الكوتا (quota) هو نظام الحصص النسبية بين البيض والسود.

سابقاً، مهدراً فرصة رَسْم فارق مميز بين الجمهوريين والديموقراطيين.

في أوائل عهد بوش شكل فريق عمل مختص بشؤون الرعاية الصحية. فدرس الفريق الخيارات الممكنة لسد الثغرات في نظام الرعاية الصحية في القطاع الخاص ولحماية الاشخاص غير المضمونين وأولئك الذين يخسرون ضمانهم في فترات الانتقال من وظيفة الى أخرى أو عندما يتقاعدون.

كانت واحدة من الافكار اقامة نظام سندات أو سلفات ضريبية[٣] لمساعدة كل أمريكي على دفع بدل ضمانه الصحي. وتضمنت أفكار أخرى منح شركات التأمين والاطباء والمستشفيات حق اعتماد نظام موحد لدفع المستحقات يمكن أن يخفض التكاليف.

لكن مساعدي الرئيس بوش في البيت الابيض أشاروا عليه بألا يأخذ المبادرة، وحجتهم أن الديموقراطيين سينتهزون الفرصة للتقدم باقتراحات متطرفة وأنه قد يخسر في حرب مزايدات. فجمّد بوش تحركه في حين مضى الديموقراطيون قدماً ملتقطين الكرة التي أفلتت من بوش.

برنامج لم يكتمل. دعا بوش في احدى خطبه الى قيام "نموذج جديد"[٤] يهدف الى توجيه السياسة الحكومية نحو اللامركزية وتشجيع القطاع الخاص والخيارات الفردية. إلا أنه لا يزال يحتاج الى برنامج مبني على أساس هذه النظرية الاصلاحية المحافظة.

دعم بوش فكرة السندات التعليمية لمساعدة الفقراء، لكنه لم يسعَ الى تنفيذ هذه الفكرة. وهو من مؤيدي اقامة ما عرف بـ"مناطق مشاريع"[٥] لتنشيط الاعمال التجارية في مناطق مدينية متخلفة أو ضربها الكساد، وذلك عبر اعفاءات ضريبية. لكنه ترك أمر اقرار التشريعات الضرورية من دون حسم.

ولم يدعم الرئيس بوش وزير الاسكان في حكومته عندما شلّ الكونغرس البرنامج المهم الذي تقدم به جاك كمب لتأمين مساكن للفقراء. فاقتُطع ٦٠ في المئة من المخصصات التي طلبها كمب لمساعدة العائلات ذوات الدخل المتدني على امتلاك منازلها، كما اقتطع ثلث السندات الاسكانية التي تتيح للفقراء تحديد المكان الذي يرغبون في العيش فيه. وعمد الكونغرس بدلا من ذلك الى ضخ الاموال في مشروع بناء وحدات سكنية شعبية يستغرق انجازه سنوات.

طالب كمب الرئيس بنقض المشروع مشيراً الى أن الكونغرس يحاول العودة الى "برامج الاسكان العتيقة الفاشلة المعرضة لاثارة فضائح." فأظهر بوش خيبته من الطريقة التي قابل بها الكونغرس مبادرات كمب، لكنه مع ذلك وقع القانون.

قد لا تكون اعادة انتخاب جورج بوش رهناً بقضايا محلية جريئة، فهو حقق في

---

(٣) Vouchers or tax credits

(٤) A new paradigm

(٥) Enterprise zones

خريف ١٩٩١ ما فات خمسة رؤساء سابقين: رعى مؤتمر سلام للشرق الاوسط بين اسرائيل وجيرانها العرب، ونمّى المصالح الامريكية حول العالم، وضمن الامن القومي على نحو مذهل.

ومع ذلك يمكن أن يواجه بوش معركة صعبة غير مضمونة تماما اذا لم تكن له رؤيا يؤلب الناخبين حولها. لقد كان ونستون تشرشل في ذروة عليائه عام ١٩٤٥ وبطل حرب يتمتع بسمعة رائعة في أنحاء العالم، لكن الناخبين البريطانيين كانوا مهتمين بقضايا "اللحم والبطاطا" المحلية، فخذلوه!

فريد بارنز ■

٢. المأزق الديموقراطي



لماذا يبدو الديموقراطيون، الذين فازوا في واحد فقط من الانتخابات الرئاسية الستة الاخيرة، كأنهم محرومون من دخول البيت الابيض وفي موقف دفاعي أمام الناخبين؟

ليس الامر مجرد نتيجة حوادث مثل محاولة جيمي كارتر الكارثية انقاذ الرهائن الامريكيين في ايران، وبراعة رونالد ريغان في استغلال المناسبات المتلفزة، وعدم عودة محكوم في مساتشوستس الى السجن بعد حصوله على اذن خروج موقت. فالمأزق هو أكثر عمقاً. انه تقصير الديموقراطيين في استخلاص العبر من تاريخ حزبهم. لقد خرج معظم المسؤولين والمرشحين والدعاة الديموقراطيين عن خط بلادهم.

ولا شك في أن بعض الديموقراطيين يعون هذا الامر ويحاولون احداث تغييرات، لكن المسؤولين والمرشحين والدعاة يبدون عاقدي العزم على تكرار أخطاء الماضي. انهم في حاجة الى مراجعة سياساتهم عبر القرون وتحديد ما نجح منها وما فشل.

لم ينشأ مأزق الديموقراطيين من فشل برنامج "الصفقة الجديدة"[٦] الذي وضعه الرئيس فرنكلين روزفلت في الثلاثينات للانعاش الاقتصادي والاصلاح الاجتماعي، بل نشأ من نجاحه. قال تيب أونيل الرئيس الديموقراطي السابق لمجلس النواب إن الديموقراطيين رفعوا مستوى معيشة الشعب الى حد أنه لم

(٦) New Deal

يعد يخشى أن يصبح جمهوريا. لكن أنجح مواد هذا البرنامج الاشتراعي والاداري كانت تلك التي كافأت النمط المتحرك صعوداً، ومنها "ميثاق الحقوق" لافراد القوات المسلحة الذي ساعد على دفع تكاليف الدراسة الجامعية لقدامى المحاربين، و"كفالة رهون المنازل" التي شجعت على تحويل بلد من المستأجرين الى بلد من الملاّكين، وبرنامج ضريبي قدَّم حسوماً سخية على المعالين مما عزز استقلالية العائلة ونمو طبقة وسطى.

في المقابل، تبين أن بنود "الصفقة الجديدة" المتعلقة باعادة توزيع الدخل هي غالبا غير قابلة للتنفيذ. فضريبة الدخل التصاعدية التي نالت شعبية نظرياً، تفقد شعبيتها حالما تغوص معدلات الضريبة العالية عميقا في جيب الناخب كما يفترض أن يحصل عندما يُقصد تحصيل دخل حكومي محترم. لقد أيد الامريكيون دائما ضرائب متصاعدة باعتدال، لكنهم ينزعون الى الاعتقاد أن للناس حقاً في الاحتفاظ بالقسم الاكبر مما يحصِّلون.

ولسوء الحظ، نسي معظم الزعماء الديموقراطيين أياً من بنود "الصفقة الجديدة" هي التي لاقت نجاحاً، وهم يبدون عاقدي العزم على اعادة توزيع الثروة. وعندما يطرحون خططا تقدمية واضحة يتعرضون لهجوم من الطبقة الوسطى الخائفة من أذى اقتصادي يلحق بها، ولا يلقون كبير دعم من الفئات التي يعملون لمساعدتها.

المجتمع الكبير. يستذكر الديموقراطيون الآن نجاح الرئيس السابق ليندون جونسون الساحق في العام ١٩٦٤، لكنهم ينسون أن اثنتين من القضايا الاهلية الرئيسية التي طرحها في برنامجه كانتا خفضا ضريبيا وميثاق حقوق مدنية يعد بالغاء الكوتا العنصرية.

لقد نجح بعض برامج الحقوق المدنية، مثل الدمج العنصري في المرافق الشعبية وأماكن العمل عام ١٩٦٤ ومنح المواطنين السود في الولايات الجنوبية حق الاقتراع عام ١٩٦٥. لكن ما لم ينجح بهذا المقدار، بل غرس بذور العداء في غالب الاحيان، هو تطبيق الدمج العنصري في المدارس الحكومية عبر اجراءات نقل الطلاب الى مدارس بعيدة عن أحيائهم وتدابير تشجع الكوتا في التوظيف ودخول الجامعات. وهذه قرارات قضائية استهدفت إحداث توازن حسابي في معاملة الاعراق.

وينسى الديموقراطيون أنهم، على أثر اقرار برامج "المجتمع الكبير"[٧] التي طرحها جونسون في العامين ١٩٦٥ و١٩٦٦، خسروا ٥٢ مقعداً في الكونغرس، وهي خسارتهم الكبرى منذ ١٩٤٦.

وفي الستينات، كانت النظرة الى الولايات المتحدة كمجتمع ذي عرقين — حيث امتيازات مبالغ فيها من جهة وتراث من الاتكالية الاقتصادية من جهة أخرى — تبدو منطقية لكثير من الديموقراطيين

(٧) Great Society

الذين كانوا ينظرون الى أمريكا على أنها مجتمع متصدع وحاقد. لكن نموذج "المجتمع الكبير" المتمحور حول الفروق بين السود والبيض لم يقدم نظرة دقيقة الى التنوع الاجتماعي الغني في أمريكا، بل هو أصبح أقل دقة مع مرور الزمن وتنامي طبقة سوداء وسطى واسعة.

ولقد زادت نسب جرائم العنف وتعاطي المخدرات والولادات غير الشرعية في بعض أوساط السود، لكن ذلك لا يمكن أن يعزى الى البطالة الا في ما ندر. فقد زاد عدد الوظائف التي يشغلها السود بنسبة ٥٠ في المئة منذ أواخر الستينات. كما ازدادت الهجرة الى الولايات المتحدة خصوصاً من أمريكا اللاتينية وآسيا، وشغل المهاجرون وظائف ابتدائية لكنهم عملوا بجهد وارتقوا. ولم تعد الولايات المتحدة مجتمعاً من عرقين ذا نظام طبقي منغلق، بل هي اليوم مجتمع متعدد الاصول الاثنية فتحت فيه أبواب الفرص على مصاريعها.

جيل جديد. حدث في الثمانينات أن رفض والتر بولوفتشاك، وكان في الثانية عشرة من عمره آنذاك، مغادرة حي فقير في شيكاغو والعودة مع والديه الى أوكرانيا، فهو قرر أن أمريكا أفضل كثيراً من الاتحاد السوفييتي. وهو اليوم مواطن أمريكي.

ان معظم الامريكيين الذين ولدوا بعد ١٩٦١ هم مثل بولوفتشاك، قد أدركوا مرحلة البلوغ في الولايات المتحدة، فوجدوا فيها بلداً تعمه الطمأنينة والوفرة، وقرروا أنها، في كل الاعتبارات، مكان تحسن الاقامة فيه.

لا يبدو أبناء هذا الجيل راغبين في اعادة توزيع اقتصادية أو تحرير ثقافي. انهم أولاد آباء وأمهات متحررين كانوا يتركونهم وحدهم في المنازل، وتلاميذ مدرسين متسامحين كانوا يَدَعونهم يتعلمون بأنفسهم. هؤلاء الامريكيون يتطلعون ببساطة الى نظام منطقي ثابت يستطيعون في ظله تحقيق أهدافهم الشخصية.

وهم، سياسياً، وجدوا لدى الجمهوريين النظام الذي يسعون اليه. والناخبون دون السن الثلاثين اليوم هم الفئة الجمهورية الكبرى في البلاد. فمن وجهة نظر هؤلاء الناخبين الشباب، أحدث جيمي كارتر اقتصاداً بلغ التضخم فيه حد تهجيرهم، فيما منحهم رونالد ريغان نحو عشر سنين من النمو الاقتصادي والكبرياء المتجددة.

برز فشل الديموقراطيين في تفهم هذا الجيل الجديد في موقف "اللجنة الديموقراطية الوطنية" من عملية "عاصفة الصحراء." فهي أجازت قراراً لا يشير حتى الى انتصار الولايات المتحدة وحلفائها، لكنه خص الجنود الامريكيين السود واللاتينيين بالاطراء، واعتبر الجنود ضحايا في حاجة الى برامج مساعدات حكومية خاصة بدلاً من اعتبارهم أبطالا.

لقد انقطعت صلات الحزب

الديموقراطي بالعصر. مات نموذج "الصفقة الجديدة" الذي قدمه في الماضي، فيما يعاني نموذج "المجتمع الكبير" سكرات الموت.

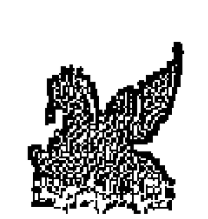
ويحاول بعض الديموقراطيين المرشحين للرئاسة معالجة مشاكل حزبهم، لكن الدعاة الحزبيين على المنابر لا يزالون يهللون لمبادىء اقتصاد شعبي يعيد توزيع الثروة، وهي مبادىء رفضها الناخبون بقوة. ويحاول هؤلاء الدعاة إسكات أي ديموقراطي يشيد بقيادة الرئيس جورج بوش في حرب الخليج، فيما يوفرون أعلى اطراءاتهم لمعارضي القيود المفروضة على الاجهاض والتي تلقى دعماً شعبيا واسعاً.

كان على الحزب الديموقراطي، باعتبار تاريخ الدوائر الانتخابية المحسوبة عليه وتنوعها، أن يطرح نفسه مجسِّداً للمجتمع الامريكي. لكنه يبدو غالبا كأنه يعتبر هذا المجتمع خصماً، ربما لتجمد فكر دعاته عند أزمتي ووترغيت وفيتنام.

يبقى أن البرنامج الديموقراطي يفتقر على نحو ملحوظ الى الاعتراف بحاجة البلاد الى النظام وتشجيع النمط المتحرك صعوداً والاحتفاء بالتنوع الاثني مع تأكيد اطار ثقافي موحد، الى سياسة خارجية يدعمها الحزبان وتعمل لتعزيز الحرية والديموقراطية في أنحاء العالم.

تبدو التشكيلة الديموقراطية الحالية، على رغم مثاليتها والتزامها، عالقة باستخلاص عِبَر خاطئة من الماضي. وأنا، وقد حددت هويتي السياسية كديموقراطي قبل ٣٢ عاماً، أتساءل عما اذا كان في امكان ديموقراطيي اليوم أن يصلحوا مسيرتهم أبداً.

مايكل بارون ■



مظلوم!

دوَّن موظف في كتاب استقالته: "سيِّدي المدير، قلت لي مراراً إنني لن احظى بزيادة على راتبي قبل أن استحقها. انت مجنون اذا اعتقدت انني سانتظر طوال هذه الفترة."

ر.د.

سرّ النجاح

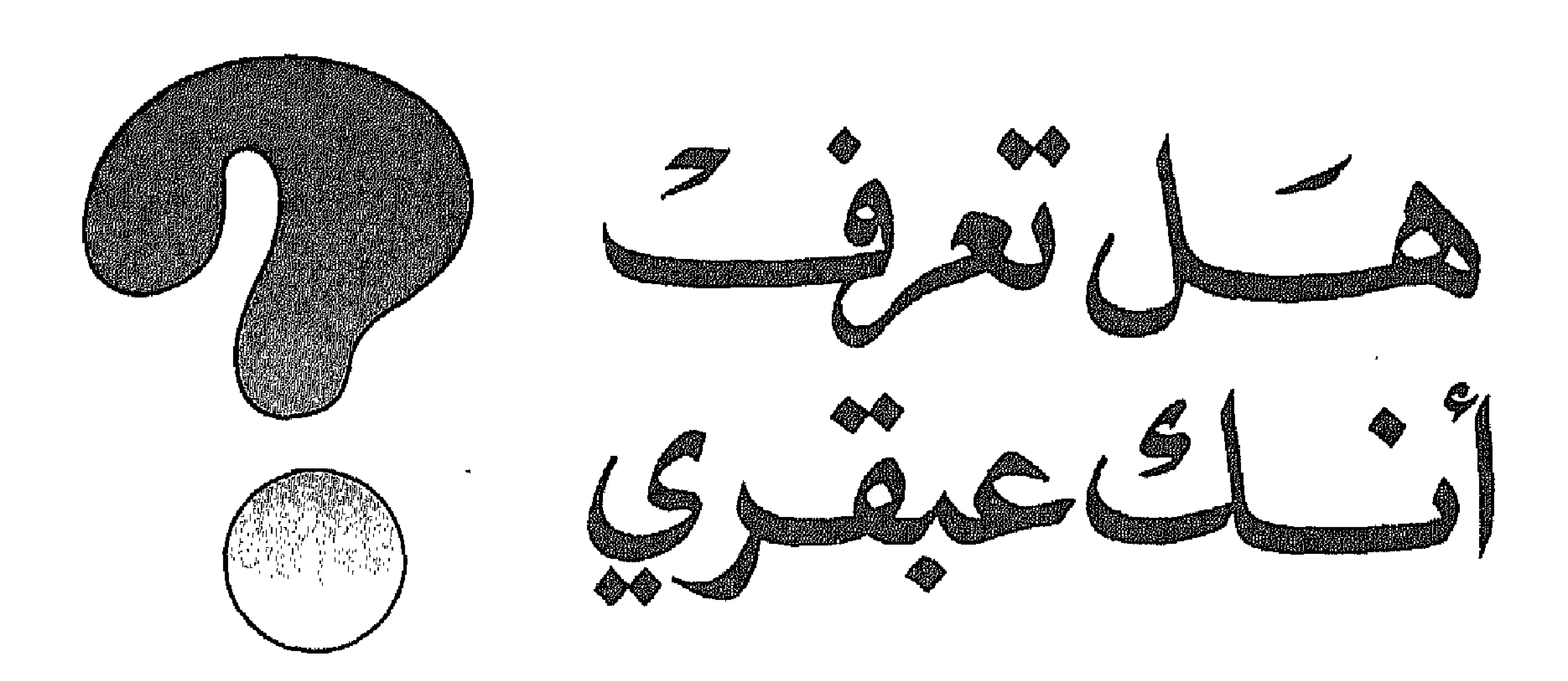
سُئل مندوب مبيعات عن سرّ نجاحه في مهنته، فأجاب: "لقد اتبعتُ المبادىء الاساسية الثلاثة التي يتقنها معظم البائعين: اعرف ما تبيع، واجر اتصالات كثيرة، ولا تقبل بكلمة لا جوابا. لكن نجاحي، بصراحة، يعود الى خسارتي المتعمدة امام زبائني في لعبة الطاولة (النرد)."

ا.ا.

هل انتم مؤهلون للانضمام الى "منسا" الجمعية العالمية لذوي معدلات الذكاء العالية؟ المؤهِّل الوحيد هو حصولكم على مجموع علامات في امتحان ذكاء قياسي يضعكم في مصاف الاثنين في المئة الاول بين المتبارين. واعلموا ان من أعضاء الجمعية أشخاصا لم ينهوا دراستهم الثانوية وآخرين حصلوا على شهادات عالية.

وكنا نشرنا في السابق اسئلة من ضمن امتحانات "منسا." وقد وردت على الـ"ريدرز دايجست" بعد نشرها قرابة ٢٠٠ الف رسالة أصبح ٤٥٠٠ من أصحابها، لاحقاً، اعضاء في جمعية "منسا."

اختبروا ذكاءكم. لا تترددوا في استعمال قلم وورقة، فنادراً ما ينجز العبقري كل أعماله في رأسه. وهناك علامات اضافية مكافاة لمن ينهي هذا الاختبار في اقل من ٢٥ دقيقة.



١. فيما كان أحمد يسير في الطريق، التقى ابن زوج الابنة الوحيدة لحماته. فما هي صلة قرابة هذا الشخص بأحمد؟

٢. ما هو الرقم الناقص في السلسلة الآتية؟

١ ٣ ٩ - ٨١ ٢٤٣

٣. أي من الاقوال الآتية يتطابق في معناه مع المثل: "ليس كل ما يلمع ذهبا"؟

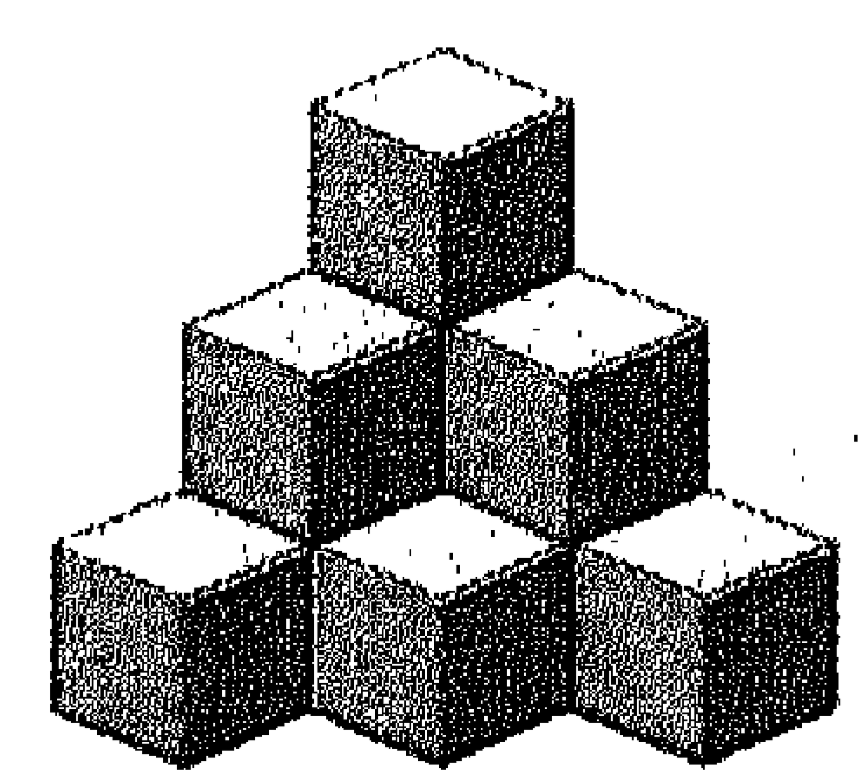
(أ) العصفور الجيد بريشه.
(ب) سرعان ما يفترق الاحمق وثروته.
(ج) لا يُقرأ الكتاب من عنوانه.
(د) الفلس المدخر ربح.
(هـ) هناك دائماً ضوء في آخر النفق.

٤. هذه أحرف كلمة شائعة الاستعمال. أعيدوا تركيب الكلمة.

ا ا ر ز ل م ن ة و

SOME OF THESE PUZZLES FIRST APPEARED IN «THE MENSA GENIUS QUIZ-A-DAY BOOK,» © 1989 BY DR. ABBIE F. SALNY AND «THE MENSA GENIUS QUIZ BOOK 2» © 1983 BY MARVIN GROSSWIRTH AND ABBIE SALNY. PUBLISHED BY ADDISON — WESLEY, ONE JACOB WAY, READING, MASS 01867. OTHER QUESTIONS COMPOSED BY DR. ABBIE F. SALNY
ILLUSTRATIONS: GEOFFREY MCCORMACK

٥. كم مكعبا في هذا الشكل؟



٦. اذا نال سليمانُ ٢٠ نقطة وسامي ١٠ نقاط ومي ٥ نقاط، فكم ينال مصطفى؟

٧. عدتم من إجازة وفي جيبكم ٩،٦٠ ليرات. واكتشفتم أن لديكم عدداً متساوياً من القطع النقدية من فئة ربع ليرة وعشرة قروش وخمسة قروش، ولا قطع من فئات أخرى. فكم قطعة لديكم من كل فئة؟ (الليرة = ١٠٠ قرش).

٨. أي من المواضع الآتية هو الاكثر اختلافا عن البقية؟

(أ) بيت (ب) قصر (ج) كهف (د) عزبة (هـ) اسطبل (و) خم.

٩. بكم رقم ٩ تمرون وأنتم تعدون من ١ الى ١٠٠؟

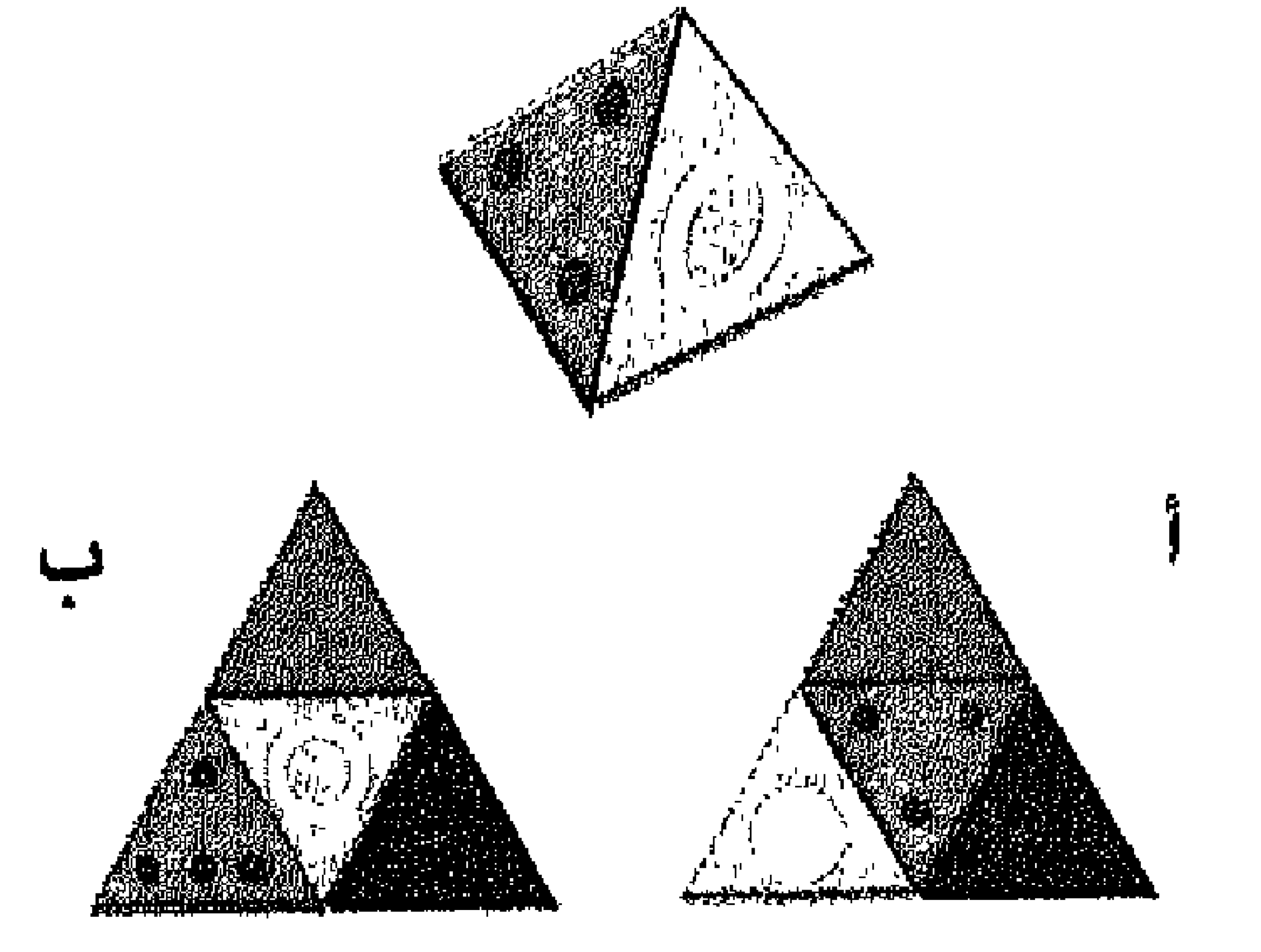
١٠. لفاطمة عدد متساو من الاشقاء والشقيقات. لكن لشقيقها أحمد من الشقيقات ضعفيْ ما له من الاشقاء. فكم صبياً وكم بنتاً تضم العائلة؟

١١. أكملوا المقارنة الآتية: "الفجل بالنسبة الى البطاطا هو كما الدراقن بالنسبة الى:

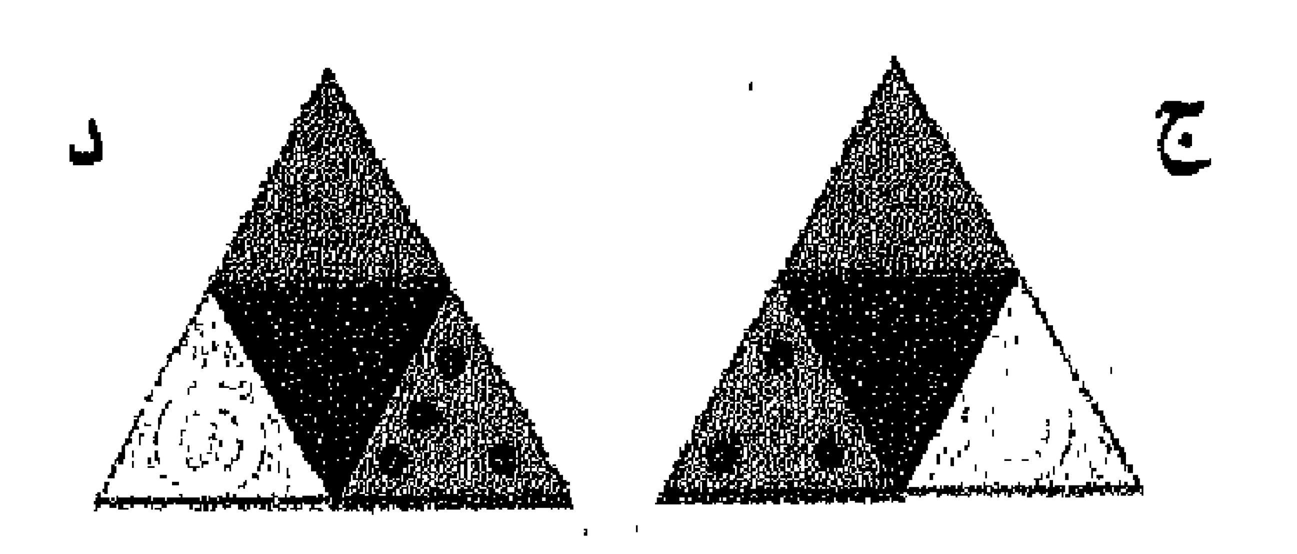
(أ) الفريز (ب) التفاح (ج) الفستق (د) البندورة (الطماطم) (هـ) العنب.

١٢. هذا مثل متنكر: "يُنصح الذين يقطنون أبنية هشة بعدم اطلاق قذائف ثقيلة." فما هو المثل الحقيقي؟

١٣. هذا مثلث طويت أطرافه. بأي شكل يظهر اذا ما أعيد نشر هذه الاطراف؟



أ ب

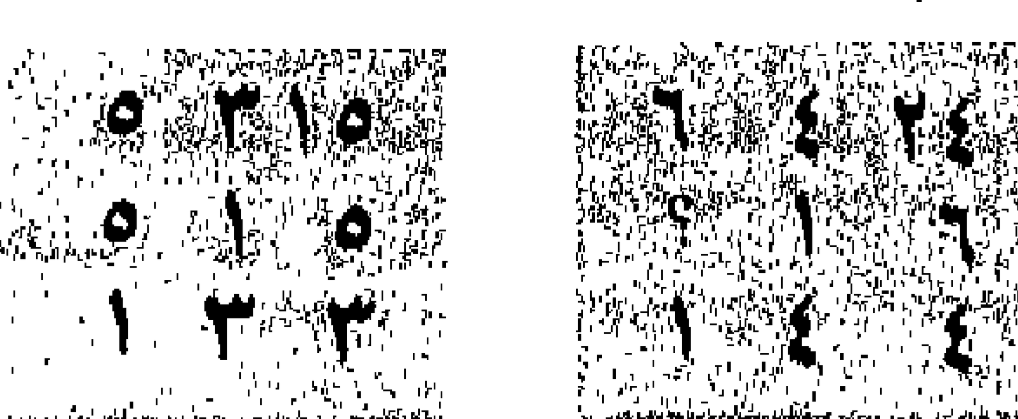


ج د

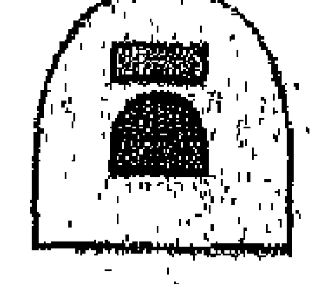
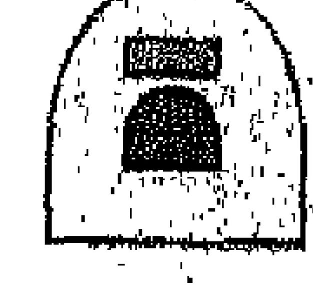
١٤. قُبض على جاسوس، واكتشف الملازم بسرعة رموز الرسالة المهمة التي يحملها، ومضمونها: "هلا. ان جميع مناصري وليد اقوياء. فريد جمع رؤساء الاندية. لكم سلامي. باسمة تحييكم."

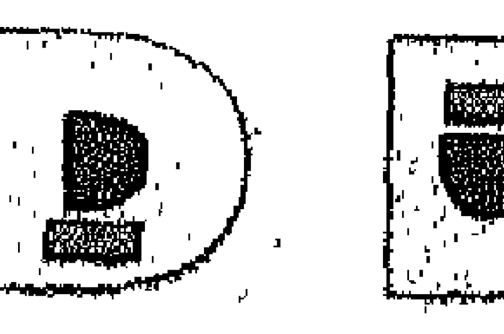
١٥. اذا كان اليوم الاثنين، فما هو اليوم الذي يلي اليوم الذي يسبق اليوم الذي يسبق الغد؟

١٦. اتبعت قاعدة معينة لترتيب الارقام في هذين المربعين. اكتشفوا القاعدة وحددوا الرقم الناقص مكان علامة الاستفهام. (تعمل القاعدة أفقيا وعموديا.)



١٧. أي من الاشكال المرمَّزة يكمل الترتيب المرفق؟



١٨. أنت أنثى. ما هي صلة القرابة بينك وبين الابنة الوحيدة لحماة الصهر (زوج الابنة) الوحيد لابيك؟

١٩. ما هي الارقام الثلاثة المفردة التي يساوي مجموعها حاصل ضربها؟

٢٠. ما هو الحرف الذي يتبع هذه الحروف منطقياً؟

ك، ش، أ، ن، أ، ح،؟

(أ) أ (ب) ت (ج) س (د) ف

(الاجوبة في الصفحة ١٠٢)



سر المرق

كانت استاذتنا في فن الطبخ تشرح لنا طريقة اعداد نوع من المرق. ثم طلبت منا ان نحضِّر ما تعلمناه، واضافت: "لا تنسَيْن استعمال الملاعق الخشبية."

رحت افكّر وانا احرّك مرقي بالسرّ الكامن في استعمال ملاعق خشبية، واستنتجت أن لا بد من وجود علاقة بين الخشب الساخن والمرق تضيق لذة الى الطعام. وقررت التأكّد من فكرتي، فسالت الاستاذة عن الامر.

اجابت: "ماذا؟ هل تريدينني ان اجلس هنا واستمع الى قرقعة الملاعق المعدنية على الطناجر؟ سأجنّ حتماً."

س. هـ.

يرى أم لا يرى؟

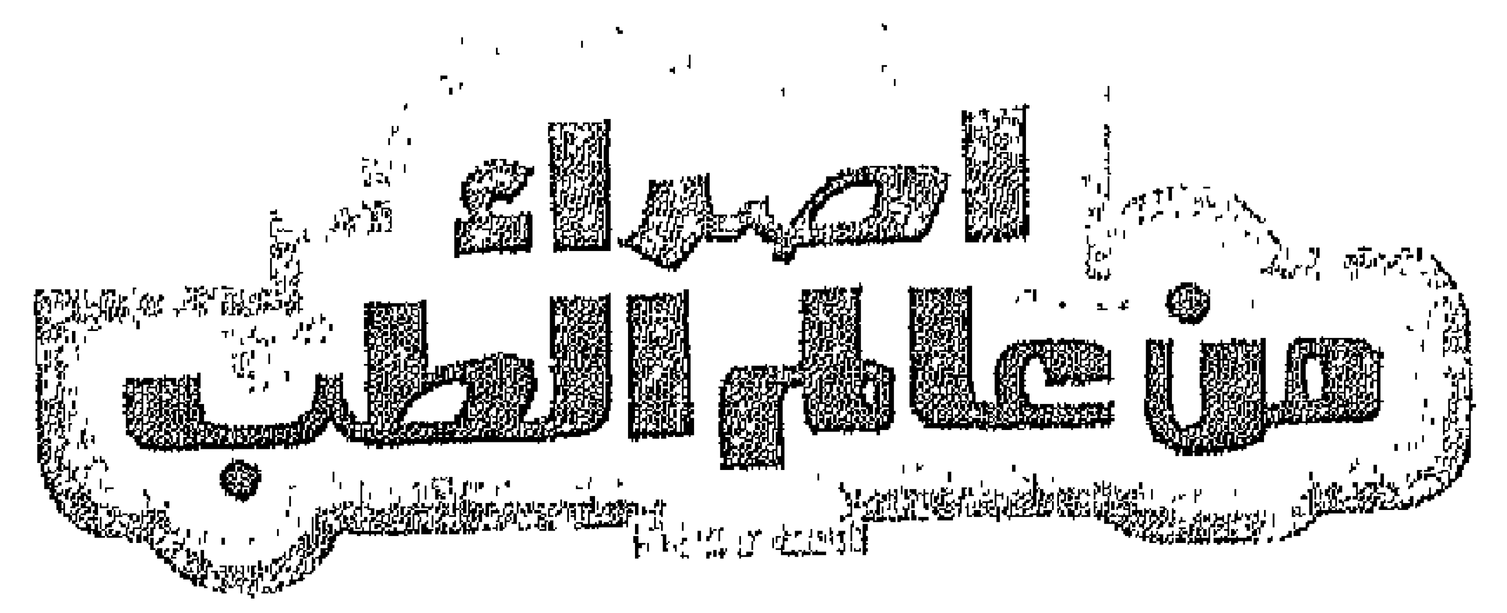
وقف الرجل العجوز يمسحُ نظاراته امام موظف البنك. فسأله هذا: "ايمكنني مساعدتك؟"

أجابه: "طبعاً، فمذ اتيتُ الى هنا واشتريت هذه النظارات وانا لا ارى شيئاً."

فقال الموظف: "أعتقد يا سيدي انك تريد دخول محل جارنا الاختصاصي بالنظارات."

فوضع العجوز نظاراته على عينيه واجال بصره في المكان ثم قال: "ألم اقل لك إن هذه النظارات لا تنفع؟"

س.و.



قطرات جديدة لتضييق البؤبؤ

■ يتجنب بعض الناس فحص عيونهم خشية تشوُّش نظرهم بفعل القطرات التي توسع بؤبؤ العين. لكن قطرات جديدة الآن تعيد بؤبؤ العين الى حجمه الطبيعي في وقت أسرع كثيراً.

اختبر الدكتور ريتشارد الينسون رئيس قسم الشبكية في عيادة العين بجامعة أريزونا، قطرات تحوي العقار دابيبرازول* على خمسين شخصاً اتسع بؤبؤ عيونهم، فعاد البؤبؤ لدى اكثر من نصفهم الى حجمه الطبيعي في اقل من ساعتين، ولم يستغرق لدى بعضهم الا ثلاثين دقيقة. وهذه نتيجة ممتازة بالمقارنة مع مدة أربع ساعات أو خمس إن لم تستعمل هذه القطرات.

تتولى عضلات قزحيّة العين، وهي "مغلاق" العين الملوَّن، توسيع البؤبؤ أو تضييقه تبعاً لشدة الضوء. ويستحث الأطباء توسُّع البؤبؤ بواسطة القطرات لكي يتمكنوا من رؤية الشبكية بكاملها وتحديد أعطال وأمراض خطيرة كالانفصال الشبكي أو السد (الماء الازرق) أو النزف الناتج من داء السكّري. لكن توسّع البؤبؤ يُعجز المرضى عن القراءة وقيادة السيّارات ريثما يزول مفعول القطرات.

أما قطرات تضييق البؤبؤ الجديدة فمامونة وسريعة وغير مؤلمة، ولا أعراض جانبية لها باستثناء احمرار طفيف في العين.

(*) Dapiprazole

مجلة "اميريكان هيلث"

انسداد الشرايين

■ يخضع ملايين الناس كل عام لعمليات "بالون"[1] من أجل فتح شرايينهم المسدودة. لكن هذه الطريقة التي تقضي بنفخ بالون داخل الوعاء المسدود لتوسيعه والسماح بجريان الدم عبره من دون قيد، قد تؤذي جدران الوعاء. واذ يلتئم الجرح تتكاثر الخلايا في الموقع مسببة انسداداً جديداً.

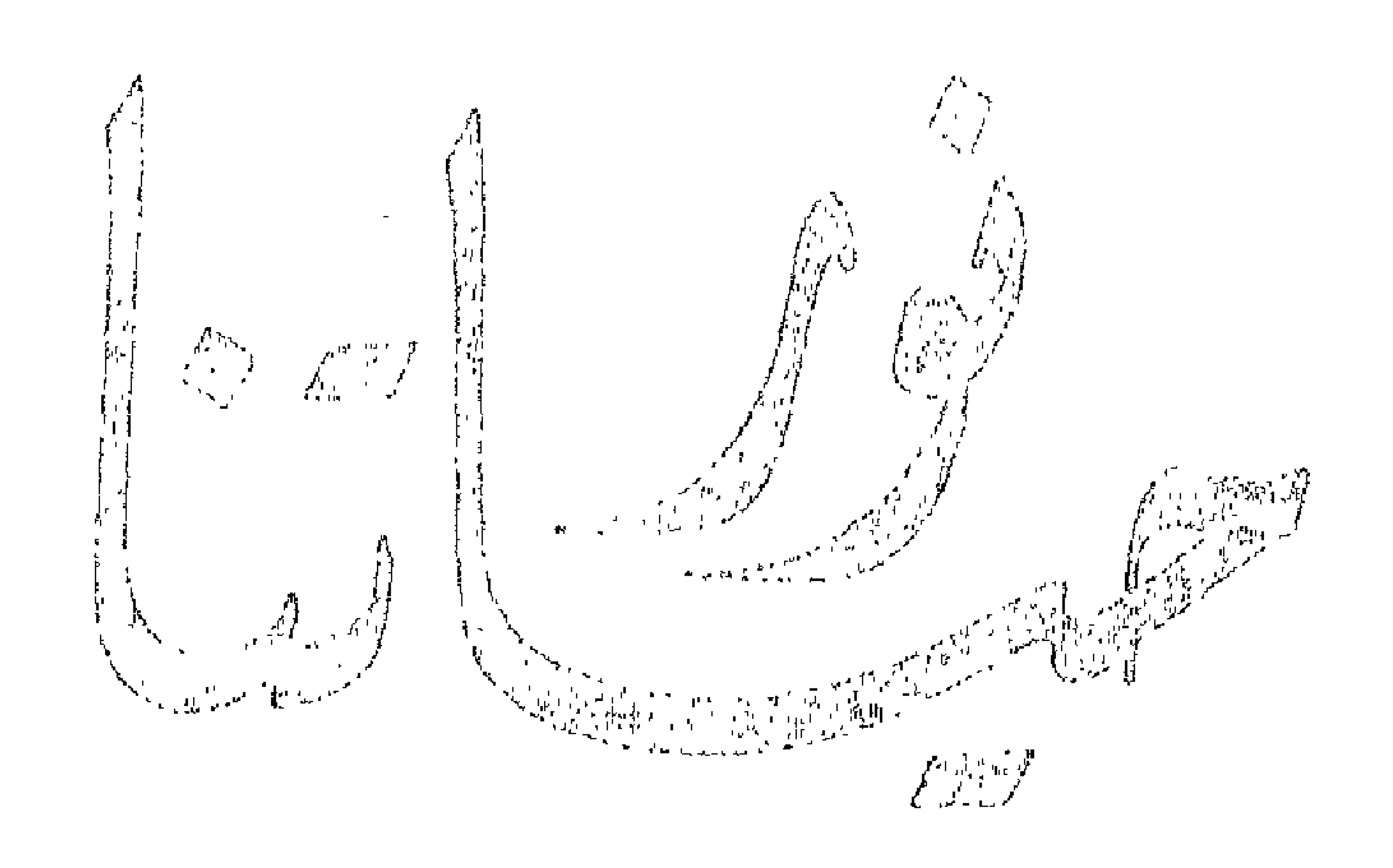
وذكرت دراسات سابقة أن ثمة مادة طبيعية تدعى "عامل النمو الصفيحي" (PDGF)[2] تؤدي دوراً في الانسداد الجديد للشرايين المعالجة. ولاختبار هذه المقولة، احتاج راسل روس وزملاؤه في كلية الطب بجامعة واشنطن الى جسم مضاد لـPDGF وحصلوا عليه من طريق حقن ماعز بـ «PDGF» مأخوذ من البشر، فاستجاب جهاز المناعة لدى الماعز بتطوير أجسام مضادة.

عندئذ عمد العلماء الى اجراء عمليات "بالون" لـ ٣٨ جرذاً، ينفخون البالون في شريان مسببين تلفاً في جدرانه، تماماً كما يحدث في الحالات البشرية. ثم حُقن نصف الجرذان بالجسم المضاد لـ «PDGF» الذي أنتجته الماعز، فيما حقن النصف الآخر بجسم مضاد آخر. واظهرت النتائج أن الجرذان التي حقنت بالجسم المضاد لـ «PDGF» قد خفَّ لديها التكثف الشرياني في موضع العملية بنسبة ٤١ في المئة فيما لم تظهر الجرذان الأخرى أي تحسن.

(١) Balloon Angioplasty

(٢) Platelet — derived growth factor

وكالة أسوشييتد برس



كل حياة مهما قصرت غنية بالآمال والوعود

قبل نحو عقدين، في عز الشتاء في نبراسكا، غمرني شعور بأن عائلتنا بلغت قمة السعادة بفضل نشاط زوجي كين وكده في عمله. لذا لزمت البيت لأرعى شؤون المنزل وأنعم بالعيش قرب بناتي الثلاث الشقر الزرق العيون – لزلي (١٤ عاماً) ولين (١٠ أعوام) وليزا (٦ أعوام) – فأزهو برؤيتهن زهرات يملأن البيت صخباً ومرحاً ومحبة. كان أكثر ما يسرني تباين طباعهن. وهل يفوت الوالدين التكلم في هدأة الليل، وأولادهما نيام، عن عظمة الله الذي خلق ذريتهما؟

كانت ليزا ماري صغرى بناتنا ومعروفة في الجوار بأنها ذكيــة مـرحـة مضحكـة ذلقـة اللسان صريحة الى حد مثير. وكانت في حركة دائمة كأنها ترقص على أنغام منبعثة من داخلها.

كانت في الصباح تقفز من فراشها وتركض الى غرفة شقيقتيها وهي تضحك صاخبة، فتعاكسهما الى أن تستيقظا. وكانت تبتهج بحشو أغراضهما في الغسالة: دببة وفراشي أسنان وأحذية. حتى هرنا سبوك لم ينج من دخول الغسالة مراراً مستنجداً بمواء مكبوت.

كان من واجبات ليزا المنزلية تفريغ المهملات من السلال في الطبقة العليا ورميها في صندوق النفايات في المطبخ. وذات يوم تنبهت الى أنني لم أر ليزا تقوم بهذا الواجب مع أن السلال كانت فارغة. وبعد البحث وجدت النفايات مطروحة في خزانة المكيف. وشرحت لي ابنتي أن ذلك أسرع من نقلها الى الطبقة السفلى.

ولارباك شقيقتيها الجديتين الأكبر منها سناً، كانت تجر صندوقاً الى حديقة منزلنا

ILLUSTRATION: GREG DEARTH

المواجهة للشارع فترتقيه بشقاوة وفي يدها خرطوم كبير للري تنفخ فيه مردِّدة أشعاراً غنائية تتضمّن كلمات غير لائقة. وفي بيتنا يُفرض على مَن يتلفّظ بكلمات نابية أن يدفع غرامة مقدارها خمسة سنتات الى "صندوق اللغة" حيث يُجمع المال ويُدفع الى صندوق التبرعات في جمعية خيرية قريبة. غير أن ذلك لم يثنِ ليزا بل أتاح لها فرصة للتمتّع بحريتها الكاملة في قول ما تشاء في مقابل خمسة سنتات فقط!

أفتتن الجيران بهذه الفتاة الشقراء الفائقة الحيوية، وقال أحدهم: "إنها كفراشة صغيرة جميلة ترفرف من مكان الى مكان."

كانت تحلو لها الزيارات حين تزعجها أمور في المنزل. وقد روى لي زوجان عجوزان أنها زارتهما مرة فجلست ثم تنهّدت عميقاً وراحت تشتكي: "تلك المرأة تهلكني بالعمل." وهي كانت تعنيني أنا طبعاً، وأظنني كنت في ذلك الحين أنظف خزانة المكيف من النفايات.

صباح يوم ربيعيّ بارد عام ١٩٧٣ رجعت ليزا من روضة الأطفال وهي تجرّ عوداً وأعلنت: "لا أظنكم تعلمون أن اليوم عيد الشجرة، وقد أعطوا كلاً منا غرسة. وهذه الغرسة ستنمو وتصبح شجرة جميلة."

كانت "الشجرة" عوداً يابساً لا أثر فيه للحياة. وقد انتُزعت اللفافة عن الجذور الصغيرة بعد جرها طوال الطريق، فبانت جافّة لا أمل في إحيائها. لكنّ ليزا أقنعت أباها بمعاونتها في غرسها وسط الفناء الخلفي للمنزل. ثم وقفت وأعلنت: "سمّيتها أنجيلا[1] لأنها تحتاج الى بركات جميع الملائكة لكي تنمو."

دأبت ليزا على سقي أنجيلا يومياً، فكانت تربّتها وتكلّمها ثم تحني رأسها لتتلو دعاء وتطلب لها البركة. كان في صدر ليزا ايمان بريء راسخ بأنها ستتعهّد هذا العود وسينمو ويغدو شجرة شامخة.

صباح أحد أيام الصيف اندفعت ليزا الى المطبخ هاتفة: "ورقتان يا أماه! ورقتان!" كان العود المسمّى أنجيلا أنبت زوجين من الأوراق الخضر الصغيرة احتفلت بهما ليزا ودعت ذلك اليوم "يوم التهليل."

وما لبثت أنجيلا أن غدت فرداً من أفراد العائلة. وتعودنا أن نكلمها لارضاء ليزا. وحين مسّتها لزلي بجزازة العشب يوماً طلبت منها ليزا تقديم اعتذار. فانحنت لزلي فوق أنجيلا وقالت بأدب واحترام: "آسفة لصدمك، وأعدك بألّا أكرّر ذلك."

في نهاية ذلك الصيف أحسستُ أن أنجيلا فرضت عليَّ اعترافاً باطنياً بحضورها حتى في غياب ليزا.

في شتاء ١٩٧٣ - ١٩٧٤ كانت ليزا تخرج الى الفناء غير آبهة للثلج والصقيع، وتشجّع أنجيلا على الهجوع خلال فصل الشتاء والاستعداد للنهوض في الربيع. وفي الصيف نبتت لها أوراق

(١) اي الملاك.

جديدة، فكان ذلك بالنسبة الى ليزا مدعاة الى الاحتفال والابتهاج. وشاركنا ليزا في فرحتها حين وقفت ويدها على أنجيلا وهي تبتسم لنا جميعاً باعتزاز وشقاوة.

تلك هي صورة صغرى بناتي التي اختزنتها في مخيلتي.

نبضة أخيرة

في شهر أغسطس (آب) بعد يومين من عيد مولد ليزا السابع، أطلّ علينا الجرّاح الذي كان يجري لها جراحة في صدرها في مستشفى أوماها في نبراسكا. وكنت وزوجي كين في الانتظار، فقال لنا متجهّم الوجه: "لست في حاجة الى الفحص بمجهر، فالورم هو أخبث الأورام التي شاهدتها في حياتي." ثم غادرَنا مذهولَيْن ولم نره ثانية.

وكانت ليزا استيقظت ليلا قبل أسبوعين وقالت لي: "ماما أشعر بسخونة داخلي." وعلى الأثر انتابتها نوبة سعال حاد. وبعد أسبوع لاحظتُ انتفاخا في صدرها، وأظهرت فحوص الأشعة السينية (اكس) وجود ورم، فنقلناها فوراً الى أوماها التي وصلنا اليها بعد خمس ساعات في السيارة.

وفي المستشفى، أخذت الأيام تتوالى في متاهة مضنية من الانتظار والفحوص الطبية والمخبرية والآراء المتضاربة والقرارات المعذِّبة. ثم أُجريت جراحة وأُعلن التشخيص الرهيب: ورم لمفاوي من غير نوع هودجكنز.[٢] ولمحاربة هذا الوحش الذي نهش صدر ابنتنا اعتمدنا معالجتين: واحدة بالأشعة وأخرى بالمواد الكيميائية. وكان أكثر ما يروّعنا سماع ابنتنا الغالية وهي تصرخ ألما. وتقلّص حجم الورم، لكنه ما لبث أن عاد أشدّ فتكا من ذي قبل.

ولكم صلّيت من أجلها. وذات ليلة حلمت أنها ماتت، فلم أخبر كين بالحلم لكنني كنت على يقين من أن تلك ستكون الخاتمة.

في عيد الميلاد الذي سبق إصابة ليزا بالداء أهدى اليها "بابا نويل" كلباً محشوا ضخما ذا أذنين عريضتين متدلّيتين، فدعته نورمان. وهي أخذته معها الى مستشفى الاطفال في دنفر في كولورادو حيث تقرر أن تقيم خمسة أسابيع تخضع فيها للمعالجة بالإشعاع. وكانت كل يوم تُدخَل غرفة جرداء لتتلقى العلاج بينما أقف أنا وراء النافذة حاملةً نورمان.

وعادت ليزا الى المنزل وظلت خاضعة لعلاج كيميائي. كانت تمضي معظم الوقت منزوية في غرفتها. وحين كانت تخضع لمعالجة كيميائية عنيفة كانت تحضن نورمان علّها تجد في ذلك راحة. ولازمتها كلبتنا الصغيرة بوتن. وكان الدكتور لويس هاردن، طبيب الأطفال الشاب العطوف، يعودها ليلاً أو نهاراً كلما احتاجت اليه.

كنت أتحادث مع ليزا ساعات طويلة من الليل، وأحيانا يخالجني شعور بأنها تريد طرح بعض الاسئلة عن مرضها، عما إذا كانت مشرفة على الموت. لكنها لم

(٢) Non-Hodgkin's lymboblastic lymphoma

تسألني مرة. لذا وقعت في حيرة وأنا لا أعرف كيف أحملها على طرح السؤال. وما كنت أدري بماذا أجيب لو سألتني. فالتزمت الصمت حيال هذا الموضوع.

وذات صباح كنت أمشّط شعرها الأشقر الأملس فأخذ يتساقط خصلاً في يديّ. وعلى رغم ألمي العميق جهدت في أن أبقى هادئة رابطة الجأش. في تلك اللحظة دخلت علينا لزلي بوجهها الجميل المحبّ وقالت لي بهدوء: "ماما، دعيني أنا أمشط شعر ليزا."

مرت سنوات كثيرة قبل أن نتكلّم على هذه اللحظة التي تبين لنا في ما بعد أنها كانت نقطة تحوّل مثير لكلتينا. فللمرة الأولى أثناء محنة ليزا تسنح فرصة للزلي كي تعطي شيئاً من ذاتها. وكانت مصمّمة، مثلنا، على التزام مؤامرة الصمت والزعم أن الحياة ما زالت تسير في مجراها الطبيعي.

حلّ شهر يونيو (حزيران) فشعرت ليزا بتحسن طفيف مكّنها من ركوب درّاجتها الهوائية. لكنها ما لبثت أن أصيبت بنكسة اضطرتها الى العودة الى المستشفى في دنفر، حيث أعلن الطبيب أنه لم يبقَ سبيل ناجع لمعالجة السرطان وأن لا جدوى من متابعة العلاج الكيميائي وتحميل الفتاة مزيداً من الآلام. فعدنا الى البيت .



ليزا ماري لانغفورد.

كنت على يقين من أن ليزا عرفت بدنو أجلها وإن لم نتلفّظ نحن أمامها بما يحملها على هذا الاعتقاد. وعلى رغم ذلك لم يفارقها الابتهاج في تلك الساعات الحالكة ولم تُظهر أنها خائفة. فقطعت على نفسي عهداً أن أساعد ليزا على أن تعيش بقية حياتها مشبعة الرغبات لا ينغّصها توق الى أي شيء حتى يحين موعد مفارقتها. كانت مصرَّة على تعلم السباحة، ففعلت. وظلت تقوم بزيارات مصطحبة نورمان. وكلّفها أحد الجيران مرة مساعدته في إقامة حفلة لزوجته، فحضر الجيران جميعهم وكانت تلك مناسبة مثيرة أبهجت ليزا.

بعد أسبوعين، في أصيل ١٧ أغسطس (آب) والحرّ على أشده، غرقت ابنتنا الصغيرة في غيبوبة هانئة ونورمان الى جانبها. وأخذ تنفّسها يخفّ الى أن توقّف. وللحظات طويلة ظلّ الدكتور هاردن يرتقب تجدّد النبض الذي غاب كلياً. فقطعتُ السكون أخيراً وسألته: "هل انتهى كل شيء؟"

أجاب بهدوء: "نعم، لقد انتهى كل شيء."

في مأتم ليزا غصت الدار بالمشيّعين الذين وفدوا لوداعها. ورُفعت الى جانب النعش الصغير راية رسمت عليها فراشة

جميلة ترفرف باسطةً جناحيها كأنها سابحة في الأثير. والتزمنا، نحن أفراد عائلتها، الظهور بمظهر الأقوياء والترفع عن البكاء.

بعد الدفن عدنا صامتين الى المنزل حيث اقتعد نورمان فراش ليزا الخالي في الطبقة العليا وانتصبت أنجيلا في الخارج وحيدة تحت أشعة الشمس الحارقة. وغارت قلوبنا في سكون ووحشة وفراغ.

داخل مكعَّب زجاجي

كنت أخال أن عائلتنا ستجد راحة بعد وفاة ليزا التي انتقلت الى جوار ربّها بعد طول معاناة، وأننا سنعود الى متابعة مسيرة حياتنا المثمرة.

إلّا أن ذلك لم يحصل.

وبغية الظهور بمظهر "الاقوياء" الذين لم تُثنهم نكبتهم عن "السير في ركب الحياة،" عمدنا الى بيع أثاث غرفة ليزا وأهدينا لعبها وملابسها الى جمعيات خيرية. غير أن نزعة غريزية حملتنا على ايداع نورمان إحدى الخزائن. وبعد أيام لم يبق في المنزل أثر ظاهر يذكّرنا بليزا سوى الكلبة بوتن التي كانت تقبع ساعات طويلة على الأرض في غرفة ليزا ساهية حزينة واليأس والكآبة يشعّان من عينيها. كانت بوتن الكائن الوحيد في البيت الذي انفتح قلبه على جروح المأساة المكبوتة.

كنا نتجنّب التحدّث في الموضوع، وسهَّل علينا غياب ليزا الامتناع عن ذكرها. كنا كأنما كل منا يعيش داخل مكعّب زجاجي، يرى الآخرين ويسمعهم، لكنه لا يمسّهم بفكره.

ألفيت نفسي وحيدة وخائفة من أن أكون، بمحاولتي إخفاء الداء عن ليزا، عزلتها وزججتها في دوّامة من المخاوف الغامضة. ورحت أبحث عما أجد فيه شفائي، بيد أني كنت متيقّنة من أن المهم في الأمر هو أن أبقى قوية ولا أستسلم للبكاء.

في تلك الأوقات الحالكة كانت أنجيلا الرابط الوحيد الذي يشدّنا الى ليزا. ونمت الى أن بلغ علوّها مترين. لكن ذكريات وفاة ليزا كانت تملأ بيتنا، فقرّرنا الانتقال الى مسكن آخر وتعهّدنا أن ننقل أنجيلا في الربيع الى مسكننا الجديد.

ولكن اتضح لنا بعد فوات الأوان أن هربنا من أنفسنا أمر يرثى له. إذ ما إن أقمنا في منزلنا الجديد حتى أدركنا أننا حملنا اليه كل أسانا ولوعتنا.

وصباح يوم قارس من أيام ابريل (نيسان) عدنا الى منزلنا القديم لننقل أنجيلا. ومثل ليزا، غمرنا شعور ملحاح غير معلن بوجوب العناية بأنجيلا وتعهّد نموها كما كانت ليزا لتفعل لو بقيت حية. فغرسنا الشجرة في فناء المنزل حيث نراها من غرفة الجلوس.

لم تتوقف مسيرة الحياة. فتابع كين عمله المصرفي، وأمضيت أوقاتي في تنشئة لين ولزلي. واستمرّ كبت عواطفنا. وكان الاعتناء بأنجيلا، التي ازدادت رونقاً وعافية، سبيلنا الوحيد الصامت الى تذكّر ليزا.

بعد سبع سنوات على وفاة ليزا رافقتُ كين الى لقاء للآباء المفجوعين عقدته جمعية "الاصدقاء العطوفين."

استهل رئيس الجلسة اللقاء بالقول إن كلًا من المجتمعين فقد ولداً عزيزاً، لذلك كلنا مؤهلون لمساعدة الآخرين على تحمّل هذا المصاب. فأغضبني كلامه وهتفت: "ولماذا أساعد الآخرين وأنا لم يساعدني أحد في نكبتي؟"

وجلست متوترة والجميع ينظرون الي بصمت.

ثم حدث أمر مثير آخر، اذ تلقيت اتصالاً من لزلي التي تخرّجت في الجامعة وكانت تسكن في أوماها. كانت مضطربة كأنما ثمة خطب جلل. وسألتني فجأة: "ماما، أين نورمان؟ ألم تحتفظي به؟ أرجو أن تقبّليه عني قبلة حميمة."

ثم أضافت هامسة: "اشتقت الى ليزا."

انفتحت السدود العاطفية داخلنا وأفضنا في الحديث عن ليزا. رحنا نتذكّر كم كانت رائعة وذكية ومسلّية. أما الفضل في كشف مشاعرنا العميقة والاعراب عما يختلج في قلبينا فيعود الى نورمان، ذلك الكلب الطويل الأذنين.

في ذلك اليوم خرج نورمان من الخزانة ليصبح جزءاً بارزاً من منزلنا. وإذ أفصحتُ عن مكنونات قلبي وشرعت أحدّث الآخرين عن البهجة والفرح والدروس التي حفلت بها حياة ليزا القصيرة، أحسست أن تغيرا جذريا طرأ على حياتي.

بتُّ أرتاح الى مشاركة أفراد جمعية "الاصدقاء العطوفين" في آلامهم وأتراحهم. وتوصلت الى ادراك حقيقة مهمة: أنني، طوال فترة تعاستي، كنت أترقّب من يمدّ لي يد المعونة. وتيقّنت أن شفائي سيأتي من طريق مساعدة الآخرين. لذلك وضعت هذه الغاية نصب عينيّ، فدرست وحزت شهادة ماجستير في علم الارشاد، وشاركت في تأسيس مصحّ عقلي، واختصاصي مساعدة أولئك الذين فقدوا أحبّاء.

عملاقة خضراء

في كلّ عيد ميلاد أجتمع بعائلات مفجوعة بفقد أحد أولادها، والى جانبي يجلس نورمان الذي شاخ لكنه ما زال يعكس الحب الذي غمرته به ليزا. فأروي لمحدثيَّ قصة لفّ نورمان بالنايلون وايداعه الخزانة طوال سنوات لكبت ذكريات ليزا في صدورنا، وقصة كفاحنا الطويل القاسي لمواجهة مأساتنا وحزننا لوفاة ليزا. وأخلص من ذلك الى تشجيعهم على مقاومة الرغبة في أن "يظهروا بمظهر الأقوياء" وحضّهم على أن يُجِلّوا ذكرى الأولاد الذين ماتوا ويُشركوا فيها بعضهم بعضاً. بذلك فقط يبقى الولد الفقيد حياً في قلوبهم، كما بقيت ليزا في قلبي.

حين توفيت ليزا كانت لين في الثانية عشرة من عمرها، وهي لم تأت على ذكر أختها اطلاقاً لسنوات. واعتبرت أن جمعية "الاصدقاء العطوفين" ليست

سوى "سخافة." وذات ليلة، وكانت تدرس في الجامعة، تلقيت منها اتصالاً عاطفيا كالذي تلقّيته من لزلي قبل سنوات. وباتت لين تفرح بالمشاركة في ذكريات ليزا.

بعد زواج ابنتينا انتقلتُ أنا وكين عام ١٩٨٨ الى منزل أصغر. وكانت أنجيلا العزيزة كبرت بحيث تعذّر نقلها. فالتقطتُ لها صورة وهي في روعة تفتّحها وعلقتها في غرفة نومنا.

وفي أواخر ١٩٩٠، في الذكرى الثالثة والعشرين لمولد ليزا، خصّص كين المال الذي كان سيصرفه على تعليمها لتقديم منح جامعية الى طلاب معوزين.

وأنا الآن سعيدة وأشعر بالرضى لأن معاناتي الطويلة في ظل الموت انتهت ولأن الصلاح والرحمة أعادا الى نفسي السكينة التي افتقدتها. وصرت أعرف أن المأساة غالبا ما تكون مغلّفة بالرجاء، وأن كل حياة مهما قصرت غنيّة بالآمال والوعود. كما أعرف أن سرّ شفائي كان في فتح قلبي ليتلقّى النور وتتفتّح فيه ذكريات ليزا، وفي ملء الفراغ الذي خلّفه موتها بخدمة الآخرين.

تركت لنا ليزا إرثا ثمينا رائعا هو أنجيلا. فشجرة الميس هذه أصبحت عملاقة خضراء شامخة ترتفع ١٩ متراً، راسخة وضاربة في الفضاء شهادة حيّة على ايمان طفلة طاهرة. فليزا لم يخامرها أي شك في أن ذلك العود الجافّ الهزيل الذي غرسته قادر على التجذّر في الأرض والنمو ليصير شجرة مهيبة وارفة. وفيما كان مفترضاً أن نكون نحن معلّمي ليزا، كانت هي التي علّمتنا فغرست في قلوبنا محبة وايمانا.

بات لانغفورد ■



بلاغة ريفية

وصلنا الى منزلنا الريفي في طقس ماطر، فوجدنا التيار الكهربائي مقطوعاً في منزلنا. فاتصلنا بالمالك الذي قال انه سيرسل الينا عامل تصليحات. وصل العامل بعد قليل، وكانت العاصفة اشتدت، فسألتُه: "أتعتقد ان هذه العاصفة ستنتهي؟"

فاجاب بثلاث كلمات: "كانت تنتهي دائماً."

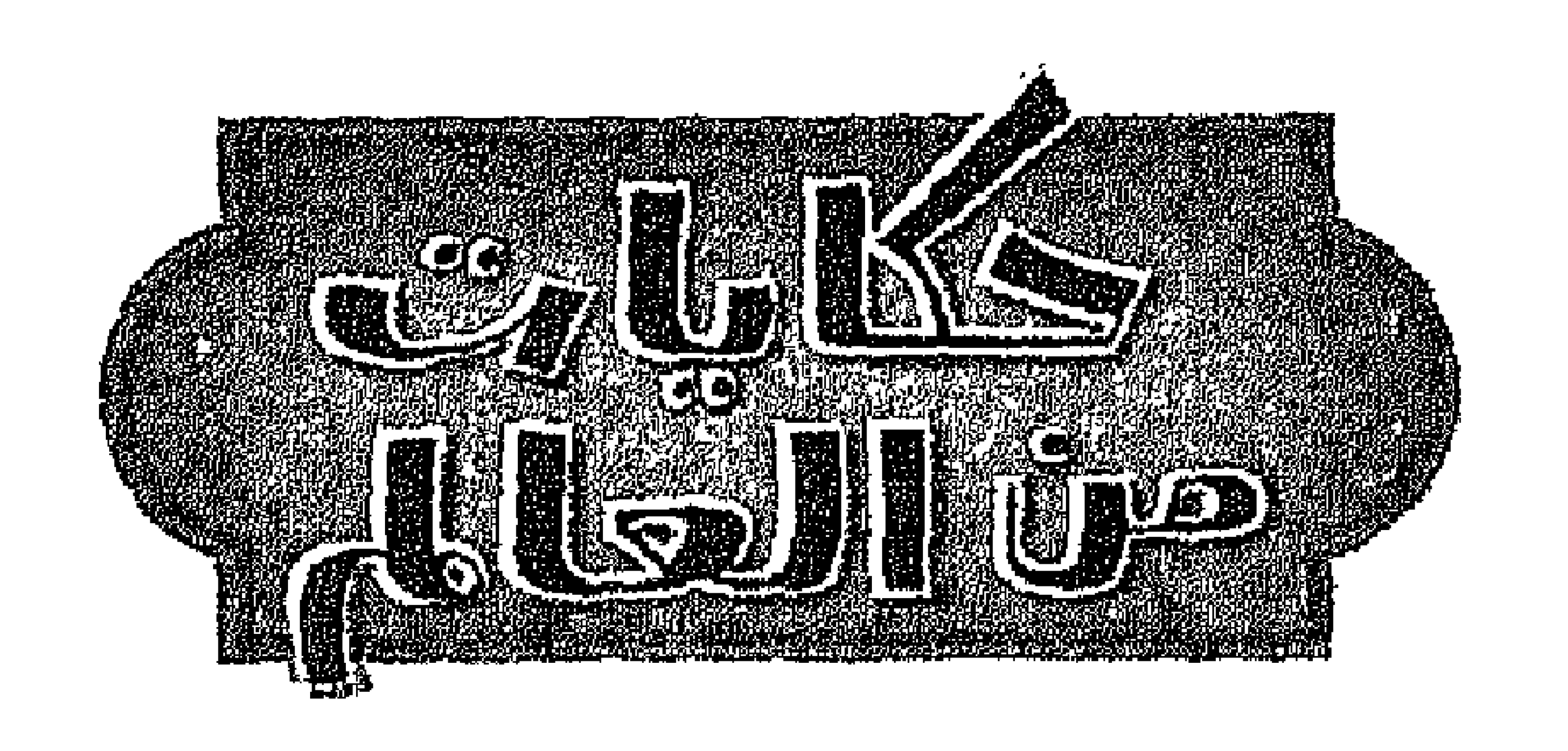
د.و.

أنا موجود!

تعلّم صديقتي مادة الفلسفة في احدى الجامعات. ذات يوم سألت طلابها ان يكتبوا عبارة قصيرة رداً على السؤال: "كيف تثبت انك موجود؟"

وقد جاء في احدى الاجابات: "أنا ادفع القسط الدراسي، اذاً انا موجود!"

س.م.



سكان العالم

□■ اذا جُمع سكان العالم البالغ عددهم نحو ٥،٤ مليارات في بقعة واحدة، وحظي كلّ منهم بحوالى نصف متر مربع ليقف فوقه، لغطوا جميعاً مساحة أقلّ من ألفي كيلومتر مربع.

صحيفة "باراد"

الالقاب في روسيا

□■ لا يدري المواطنون الروس اليوم بماذا يتنادون. فمنذ ثورة ١٩١٧ غابت القاب التشريف عن اللغة الروسيّة المحكيّة. وعبارتا "غوسبودين" و"غوسبوجا" تعنيان "سيّد" و"سيّدة"، لكنهما قد توحيان طبقية خفيّة، ويجد فيهما بعض الرفقاء القدامى مهانة.

وقد لا يرغب البعض في أن يُنادى "غراجدانين" اي "مواطن" لأن هذه العبارة تستخدم في مخاطبة السجناء. وعبارة "ديفوشكا" اي "آنسة" تعني حرفياً "فتاة" ولذلك توحي استعلاء. أما العبارة القديمة "سودار" وتعني "السيّد" فتبدو من مخلّفات العهد القيصري.

لذلك لا يزال الروس يتخبطون في ما يستعملونه للتنادي، خلافاً لشعب جمهورية أوكرانيا الذي عاد الى استعمال ألقاب التشريف القديمة مثل "بان" و"باني" المقتبسة عن البولونية والتي تحمل مضامين مخاطبة طبقة الاشراف الاقطاعيين. هذه التسميات لم يمحُها نظام ولا زمن.

صحيفة "نيويورك تايمز"

خشب البرازيل

□■ ادّى طوفان غمر الوف الكيلومترات المربعة من غابات المطر البرازيليّة الى نشوء صناعة جديدة غير تقليديّة هي استخراج الخشب من تحت الماء.

وكانت ملايين من جذوع الاشجار مغمورة تحت مياه البحيرة التي كوّنها بناء سد توكوروي الكهرمائي عام ١٩٨٠ في منطقة بارا. واثارت هذه الثروة المائية "شهيّة" المستثمر الصناعي خواريز كريستيانو غومز، فاخترع منشاراً كهربائياً يعمل تحت الماء، وأسس شركة لاستخراج هذه الأخشاب.

ويحمل الحطابون قوارير أوكسيجين على ظهورهم ويغطسون الى عمق ٥٠ متراً تحت سطح الماء. وهم بمنأى عن خطر سقوط الاشجار عليهم، فهذه، ما ان تقطع بالمنشار حتى "تقع" صعوداً الى السطح حيث تُقطر الى المناشر. لكن ثمة خطراً آخر. فقد عضت سمكة بيرانا حطاباً تحت الماء. (البيرانا سمك مفترس يعيش أسراباً ويلتهم حيواناً ضخماً في دقائق.)

صحيفة "دسبرتاي" البرازيلية

التأجيل يتعب أكثر مما يريح

إلامَ تؤجلون عمل اليوم؟ اقرأوا هذه الارشادات وابدأوا اليوم عملاً تجنبتموه طويلاً

قرر موظف اداري في شركة كبرى أن يتقاعد من وظيفته وهو في السن الثانية والخمسين. واشترى بما ادخره معملاً متواضعاً للشوكولاتة. كان المعمل يكاد لا يغطي تكاليفه، لكن صاحبه الجديد أمل أن يزدهر بسرعة بحكم خبرته هو ومهارته في حقل التسويق.

وعلى رغم هذه الآمال العراض بدأ الموظف السابق يهمل عمله، فيضيع وقته في البيت بدل التبكير في الذهاب الى المصنع، ويقوم بأعمال هامشية وبأي شيء يعيقه عن الذهاب الى عمله. وفي هذه الاثناء كان معمله يتداعى نتيجة سوء الادارة.

كثيرون منا يعتمدون المماطلة والتأجيل من وقت الى آخر. ففي دراسة أجرتها استر روثبلوم وزملاؤها وشملت ٣٤٢ طالبا في جامعة فرمونت، اعترف نصفهم بأنهم يتلكأون في كتابة مواضيع وفروض تطلب منهم في الجامعة. وتنوعت الاسباب، ولكن أقرّ الجميع بأن الخوف من الفشل هو الدافع الاول للتأجيل.

ويبدو أن صاحبنا لم يتولَّ كليا إدارة شركة من قبل، فهالته المسؤولية وتولاه الذعر. وأوصلته مخاوفه المفرطة الى تصور افلاسه وفقدانه احترام زوجته وابنه ومحبتهما.

وعندما تحدثنا عن مخاوفه تبين له

مدى سخفها وأدرك أنه وإن خسر معمله فلن يخسر حب عائلته. والواقع أن الازمات يمكن أن تقوي الرابطة العائلية وتشد أواصرها.

عاد الرجل الى عمله بعدما اطمأن نفسيا. وبعد أسبوع طلع ببدعة جديدة في التسويق فزادت طلبات منتجاته وباتت تباع في عشرات المتاجر.

قد يتهرب واحدنا من دفع الفواتير أو من دعوة صديق الى مقهى أو مطعم. لكن تأجيل عمل ما، مهما يكن شاقاً، لهو أصعب كثيراً من تأديته. هنا خمسة ارشادات تخلصكم من هذه السيئة، سواء أكانت وقتية أم نمط حياة:

١ . توقعوا صعوبات. يفترض المماطلون أن الناجحين في الحياة انما يحققون أهدافهم بعيداً عن كل إحباط أو إخفاق أو تشكيك في الذات. لكن هذا الافتراض لا يستند الى واقع. فالاشخاص المتميزون بانتاجية عالية يدركون أن الحياة ملأى بالاحباطات، لذا يتوقعون كثيراً من العوائق في الطريق لكنهم يعملون على تخطيها.

اشتكت ابنتي مرة من صعوبة في استيعاب مادة الكيمياء خلال سنتها الثانية في الثانوية. فأخذت تؤجل درسها الى ليلة ما قبل الامتحان بعدما يئست من استيعاب المادة. وكانت تحصل بصعوبة على المعدل في الامتحانات.

شرحت لها أثناء مناقشتنا المشكلة مدى معاناتي خلال تعلمي أموراً كثيرة. ولاثبات حقيقة كلامي أطلعتها على فصل من كتاب في مادة الاحصاء درسته طوال سنة من دون أن أتمكن منه. وكان الكتاب بالياً من كثرة التسطير والتقليب. أخبرتها أن تقدمي البطيء لم يدفعني الى اليأس، لانني توقعت أن تكون دراسة الموضوع صعبة وعرفت أني سأفهم أكثر وأستوعب أكثر كلما أعدت قراءة ذلك الفصل.

عندما اقتنعت ابنتي بما قلته تغيرت طريقة دراستها وأصبحت تدرس المادة على أساس تحدّ لا خصومة.

٢ . حللوا الحسنات والسيئات. قارنوا الايجابيات التي تعتقدون أنكم تكسبونها من تأجيل عمل ما، بالسلبيات المترتبة على هذا التأجيل.

أخبرني طالب في المرحلة الاعدادية لدراسة الطب أنه يماطل في كل شيء حتى في النهوض من النوم صباحاً. وبدل حضور صفوفه يتسكع مع أصحابه نهاراً ويتسلى بالكمبيوتر ليلاً. وأوصله إهماله الى شفير الرسوب على رغم ذكائه ومواهبه الكثيرة وشعبيته الواسعة.

طلبت منه أنْ يعد لائحة بالحسنات التي تدرها عليه المماطلة. فكتب: "أولاً، اني أجد متعة في السهر والنهوض متأخراً. ثانيا، يمكنني التحدث الى أصحابي بدل الدراسة. ثالثا، انني أتجنب القلق الذي سيستبد بي إن حضرت الصف وأدركت مدى تأخري عن

زملائي. رابعاً، أنني أتمرد على أهلي الذين يضغطون علي لأدرس الطب مثلما فعل أبي."

أما السلبيات فلم يذكر منها سوى ثلاث: "أولاً، سأرسب وأفصل من الجامعة. ثانياً، أنني أشعر بالقلق والذنب. ثالثاً، لا هدف أبلغه في الحياة."

بعد مراجعة صاحبنا لائحة الحسنات والسيئات أخذ إجازة من الجامعة وعمل مدة سنة الى أن استقر على حقيقة هدفه في الحياة. وأدرك أنه كان في مرحلة "إضراب" احتجاجاً على تسلط أهله وتحكمهم بحياته. وتوضحت لديه الاولويات فأصبح طالباً متفوقاً في دائرة الكمبيوتر.

وأنتم أيضاً، إذا ما أعددتم لائحة بايجابيات المماطلة وسلبياتها، قد تتعرفون الى الاسباب "الوجيهة" التي تدفعكم الى تجنب أمر ما، وعندئذ تعيدون تقويم أهدافكم وطموحاتكم.

٣ . خطوات صغيرة لاعمال كبيرة. يعتقد معظم المماطلين أن للمزاج دوراً في انجاز أمر ما، فيقول الواحد منهم: "سأنتظر حتى يتحسن مزاجي." لنكن صريحين، لن نشعر أبداً برغبة في تنظيف مرأب أو ترتيب مكتب أو مراجعة حساب مصرفي، فهذه أعمال مملة وغير مغرية. ولكن علينا أن نخطو الخطوة الاولى لنتمكن من الاقلاع. ويمكننا أن نفعل ذلك بتجزئة العمل خطوات تنجز على دفعات، فنعمل ضمن الحاضر ولا نقلق على كل ما يترتب علينا في المستقبل. فالحياة لحظة فلحظة، وما علينا في أي وقت الا أن نعمل دقيقة ملأى، وهذا ليس بالامر العسير.

وجدت مكتبي ذات يوم في حال فوضى بعدما تركت سكرتيرتي العمل من دون انذار فتكدست السجلات المالية وملفات المرضى واختلطت أوراق بأوراق. استبد بي القلق لمجرد تصور الفوضى التي تعيَّن علي ترتيبها. وحاولت شغل نفسي عن التفكير في الامر، لكني قلت أخيراً: "سيستغرق الترتيب أشهراً، وبدل أن أنجزه دفعة واحدة يمكنني انجازه على دفعات تستمر كل منها دقائق. فإذا أنجزت الدفعة الاولى اطمأننت وذهبت مرتاح البال." وأدركت عندئذ أن الامر لم يكن مستحيلاً كما توقعت.

٤ . تخلصوا من الافكار السلبية. بعدما أنهيت تأليف كتابي الاول "الشعور بالرضى" في المعالجة الذاتية للكآبة والانهيار العصبي، كان علي أن أجد ناشراً. وهذه مهمة شاقة، فأنا كاتب مغمور، والمسودة الاولية للكتاب بدت طويلة الى حد الاملال. وبعد بحث طويل اهتديت الى دار نشر وتعرفت الى محررة لطيفة تدعى ماريا غارناشيلي أرشدتني الى طريقة أعيد بها صياغة الكتاب بحيث يبدو أكثر إثارة وحيوية. كما أسرَّت اليّ أنه سيكون من أكثر الكتب رواجاً.

عدت الى البيت محملاً بالآمال، لكنني غرقت في إحباط عجيب لسبب لم أعرفه. جلست الى طاولة مكتبي طوال عشرة أيام محاولاً تعديل جملة واحدة في النص من دون جدوى. وأسوأ من ذلك أنني لم أعرف ما الذي كان يعيقني. أخيراً تناولت ورقة ودونت أفكاري: "يجب أن يكون هذا الكتاب واحداً من أكثر الكتب رواجاً. لكني طبيب نفساني ولست كاتباً، ولا أعرف كيف تؤلف الكتب الرائجة. سيخيب أمل ماريا بي."

شعرت بارتياح عظيم عندما انتهيت من كتابة الافكار التي كانت تراودني. وأدركت عندئذ أن مخاوفي لا تستند الى الواقع. وتأكد لي أيضاً أنني لست مؤهلاً لكتابة ما يسمى "أروع القصص"، إلا أن في وسعي كتابة مؤلَّف بأسلوبي الخاص الذي أستخدمه في التعامل مع مرضاي. أما حجم المبيعات والدعاية فجزء من مهمة الناشر.

استجمعت طاقتي وأكببت في الاشهر التالية على مراجعة كتابي بحماسة بالغة.

قد يغذي المرء خياله بأفكار سلبية وغير واقعية فيلجأ الى التأجيل كمخرج من الواقع. لكنه قد يبدد هذه الافكار عندما يدونها على الورق.

٥ • أثنوا على أنفسكم. عندما تبدأون عملاً تجنبتموه فترة، من المهم أن تعطوا أنفسكم زخماً معنوياً بين حين وآخر. فالمكافأة المعنوية تقوي العزيمة وتعزز الاندفاع، لكن الناس غالبا ما يقللون من أهمية انجازاتهم ويركزون على النواحي السلبية والمعوقات التي تعترضهم.

أخبرتني امرأة أنها تعمل كنحلة. فهي تربي ولدين وتحضر صفوفا مسائية في الجامعة. وقد أعجزها برنامجها المزدحم عن انجاز كل الاعمال وتلبية كل المسؤوليات المترتبة عليها.

اقترحت عليها مرة أن تدون كل ما فعلته خلال النهار، فأذهلتني اللائحة التي استغرقت كتابتها ١٥ دقيقة. لقد درست بضع ساعات، ودفعت فواتير الماء والكهرباء والهاتف، ونظفت المنزل، وأوصلت ولديها الى المدرسة، ثم الى صف السباحة، وتسوقت، وحضرت العشاء. لكنها لم تدرك حجم انجازاتها الا بعد مراجعتها اللائحة.

كثيرا ما نعتبر الثناء شيئاً يأتي من الخارج. فاطراء عمل ما يرفع المعنويات، وكلمة "جيد" أو "ممتاز" على ورقة امتحان تعتبر دافعاً مشجعاً، ومثلها صفقة ناجحة مع زبون صعب المراس. لكن المكافأة يجب أن تأتي من الداخل في النهاية. وعلى المرء أن يثني على نفسه من وقت الى آخر مهما صغر حجم المهمة التي يؤديها أو يقبل عليها. وعليه أن يرضى بنتيجة جهوده والا فلن تنفعه كل محاولاته مهما كبرت. وعندئذ فقط يمكنه أن يواجه أصعب المهمات.

ابدأوا الآن.

ديفيد بورنز ■



النساء أطول عمراً من الرجال!

يولد ١٠٥ صبيان في مقابل كل ١٠٠ بنت لكن المسنّات أكثر عدداً من المسنّين

تختلف الحضارات والثقافات باختلاف المناطق في عالمنا الحديث، وتتباين الانظمة الغذائية وأنماط الحياة وأسباب الموت، الا أن أمراً واحداً يبقى اياه: النساء يعمّرن أكثر من الرجال.

يبدأ التباين قبل الولادة. ففي لحظة الحمل ذاتها يفوق عدد الاجنة الذكور عدد الاناث بنسبة ١١٠ الى ١٠٠. وتهبط هذه النسبة وقت الولادة الى ١٠٥ صبيان لكل ١٠٠ بنت. وفي السن الثلاثين يبقى عدد الرجال مساوياً عدد النساء. ومن ثم تزداد نسبة النساء باطراد. وبعد الثمانين يصبح عدد النساء ضعفي عدد الرجال.

تقول ديبرا ونغارد الاختصاصية بعلم الاوبئة في جامعة كاليفورنيا بسان دييغو: "اذا نظرنا الى الاسباب العشرة أو الاثني عشر الرئيسية للوفاة، لوجدنا أن كلًا منها يقتل عدداً أكبر من الرجال." وتعدد ونغارد خمسة من هذه الاسباب القاتلة: أمراض القلب، سرطان الرئة،

CONDENSED FROM IN HEALTH (JULY / AUGUST '91), © 1991 BY HIPPOCRATES PARTNERS, SAUSALITO, CALIF.

جرائم القتل، تليّف الكبد، ذات الرئة. وكل منها يقتل عدداً من الرجال يقارب ضعفي ما يقتل من النساء.

قبل قرن كان الرجال يفوقون النساء عدداً ويعمرون أكثر منهنّ. وفي القرن العشرين بدأت النساء يعمرن أكثر لسبب رئيسي هو تقلّص أخطار الحمل والولادة. وأخذت الهوة تتسع باطراد.

وبعض الاسباب مُنزلة بالنفس ذاتياً: فالرجال يدخنون ويتعاطون المسكرات ويخاطرون بحياتهم أكثر من النساء. ويُقتل الرجال (على أيدي رجال آخرين عادة) بنسبة تفوق ثلاثة أضعاف مقتل النساء، وحوادث انتحارهم تتعدى حوادث انتحارهنّ. ويتعرض الرجال لحوادث اصطدام قاتلة ولوفيات ناجمة عن تناول الكحول أكثر كثيراً من النساء.

لكن السلوك وحده لا يفسر الفارق في الاعمار، ولا الضغط أو الاجهاد هو السبب الاوحد. ففي الخمسينات كثر ضحايا أمراض القلب الذكور، وعزي السبب الى ضغوط العمل. فقال الاطباء: لتخرج النساء من المنزل الى غمار العمل، وستعادل وفياتهن وفيات الرجال. ولكن طرأ أمر مثير في مسيرة الموت هذه، اذ بينت دراسات عدة أن النساء العاملات هن في صحة وعافية مثل ربات المنازل. ويعتقد بعض العلماء أن الطبيعة قد تكون محابية للنساء.

أبطال وأشرار. كل كائن حي "مجموع" بحسب التعليمات التي تحملها الكروموزومات،[1] وفي البشر ٢٣ زوجاً من هذه. ولكن في الذكور زوج غير متكافىء وسريع العطب يعرف بـ «XY». والزوج المقابل له في الاناث يعرف بـ"«XX» وقد تعتبر "طاقته" الوراثية الداعمة سر القدرة الاحتمالية المتفوقة لدى النساء. فاذا كان الكروموزوم «X» المفرد لدى الذكر يحمل صفة مَرَضية، فيحتمل ظهور اضطراب وراثي خطير في صاحبه. فالنزف المزمن[٢] وبعض أنواع من سوء التغذية العضلي،[٣] على سبيل المثال، سببها علة في جينة[٤] واحدة في الكروموزوم «X». وهذه الامراض هي أكثر شيوعاً لدى الذكور منها لدى الاناث.

لكن نظرية الكروموزوم «X» المفرد تفتقر الى برهان قاطع. فليست هناك اصابات كافية بالامراض الوراثية المخيفة ليصحّ اعتبارها من أسباب فارق طول العمر بين الرجال والنساء. كما أن بعض الباحثين يلقون اللوم على الكروموزوم الذكري «Y».

وقد يتعلق السبب بالهرمونات. فقبل السن الاربعين، حين تكون جميع النساء تقريباً في مرحلة انتاج الاستروجين، تقتل أمراض القلب ثلاثة رجال في مقابل كل امرأة. لكن هذا الامتياز يتضاءل بعد الاربعين. ان أمراض القلب هي السبب

---

(١) الكروموزوم او الصبغي خيط في نواة الخلية يحوي الجينات التي تحمل الخصائص الوراثية.

(٢) Hemophilia

(٣) Muscular dystrophy

(٤) الجينة او المورِّثة هي حاملة خصائص وراثية في نواة الخلية.

الرئيسي للوفاة لدى الجنسين، لكن النساء يحظين بعقد اضافي من السلامة قبل أن تقارب نسبة وفياتهن بأمراض القلب نسبة وفيات الرجال.

واذا كان الاستروجين هو "بطل" الرواية، فان التستوستيرون، الهرمون الذكري، هو "الشخصية الشريرة" فيها. فقبل سن البلوغ تتعادل مستويات الكولسترول في الصبيان والبنات. ولكن متى دخل الصبيان مرحلة المراهقة وفعل التستوستيرون فعله فيهم، هبط مستوى البروتيين الدهني العالي الكثافة[٥] وهو ما يُعرف بـ"الكولسترول الصالح." أما لدى البنات فلا تتغير مستويات هذا الكولسترول. وفي أواخر سني المراهقة ترتفع لدى الجنسين مستويات البروتيين الدهني المتدني الكثافة[٦] وهو ما يعرف بـ"الكولسترول الشرير"، لكن الزيادة تكون أكثر حدة لدى الرجال.

ويبدو أن التستوستيرون عنيد في بقائه على رغم زوال "أيام عزّه." ويبدو أن هذا الهرمون هو الذي يسبب نزعة عدوانية، ومؤكّد أنه ينمي عضلات كبيرة، وربما كان دوره رائعاً حين كان رجال القبائل يتقاتلون ويتقاذفون الصخور. لكنه لم يعد "صفقة" رابحة في عصرنا.

الصحة والعقل. ليس كل فارق بين الجنسين هو في مصلحة النساء. فالرجال، في المتوسط، أطول قامة من النساء، وعظامهم أضخم، وعضلاتهم أكبر وأقوى. ونموت، نحن معشر الرجال، أبكر من النساء، ولكن حين يغيّبنا الموت نكون حققنا انجازات رائعة اكثر منهن.

قد تبدو النساء أقل تأثراً من الرجال بالامراض القاتلة، الا أنهن أكثر تأثراً بالعلل والآلام العادية. في العام ١٦٧٦ كتب أحدهم في يومياته: "سمعت الاطباء يقولون إن لديهم مريضتين في مقابل كل مريض." وتزور النساء الاطباء ويتناولن أدوية موصوفة وغير موصوفة ويلازمن الفراش بسبب المرض أكثر مما يفعل الرجال. وهن يُبتلين بالتهاب المفاصل والتهاب المثانة وتورم ابهام القدم ومسامير القدم والبواسير وآلام الطمث (الحيض) وصداع الشقيقة (ميغرين) وداء الدوالي (ڤاريس).

في مقابل ذلك يصاب الرجال بنوبات قلبية وسكتات دماغية (فالج).

النساء يمرضن، لكن الرجال يموتون!

وماذا عن الصحة العقلية؟ إن الكآبة والانهيار العصبي شائعان لدى النساء أكثر منهما لدى الرجال. لكن الفصام (الشيزوفرينيا) هو أكثر تأثيراً ووقعاً في الرجال منه في النساء، وربما كان الفصام أقسى أنواع الامراض العقلية.

بعد وفاة الزوج يبدو الرجل في حال اسوأ من حال المرأة. فالرجال الارامل يغرقون في الكآبة أكثر من النساء الارامل، وهم أكثر تعرضاً للمرض والموت. وقد تبين أن نحو ٨٠ في المئة من الاشخاص الذين تجاوزوا الخامسة

(٥) High-density lipoprotein «HDL»
(٦) Low-density lipoprotein «LDL»

والستين ويعيشون وحدهم هم من النساء. وتتعثر حياة كثير من الرجال الارامل لأن زوجاتهم كن موضع ثقتهم والمؤتمنات الوحيدات على أسرارهم. فالارمل حديثاً تنهار حياته ويغرق في اليأس. أما النساء المترملات فغالباً ما تكون لهن حلقة من الصديقات يثقن بهن ويجدن لديهن سلوى.

لكن نمط السلوك في تغير، والفارق الصحي بين الرجال والنساء ليس معلماً ثابتاً. ففي العقود الاخيرة تقلّص الفارق بين أعمار الرجال وأعمار النساء. وتفسير ذلك ليس تدهور صحة النساء، فهي في تحسن، بل ان صحة الرجال في تحسن أسرع.

فقد بات الرجال يدخنون أقل ويشربون أقل ويأكلون أفضل. وتقول ديبرا ونغارد: "الفـارق يتقلص، ليس لان النساء يتصرفن كالرجال، بل لان الرجال باتوا يتصرفون على نحو أقرب الى تصرف النساء."

ادوارد دولنيك ■



محاسبة شاطرة

وضعت مشترياتي على منضدة صندوق المتجر وناولت الموظفة قسيمة عرض خاص جاء فيها: "اشتروا ثلاثة قوالب زبدة وخذوا واحداً مجاناً."

راحت الموظفة تتفحص القسيمة حائرة، فسألتها: "هل هناك أي خطأ؟"

قالت: "أرى هنا أربعة قوالب زبدة."

قلت: "هذا صحيح."

قالت: "ولكن يجب أن أدخل أسعارها في الحاسبة."

قلت: "حسناً، افعلي ذلك."

قالت: "ولكن أيها القالب المجاني؟"

ج.هـ.

زوج مطيع

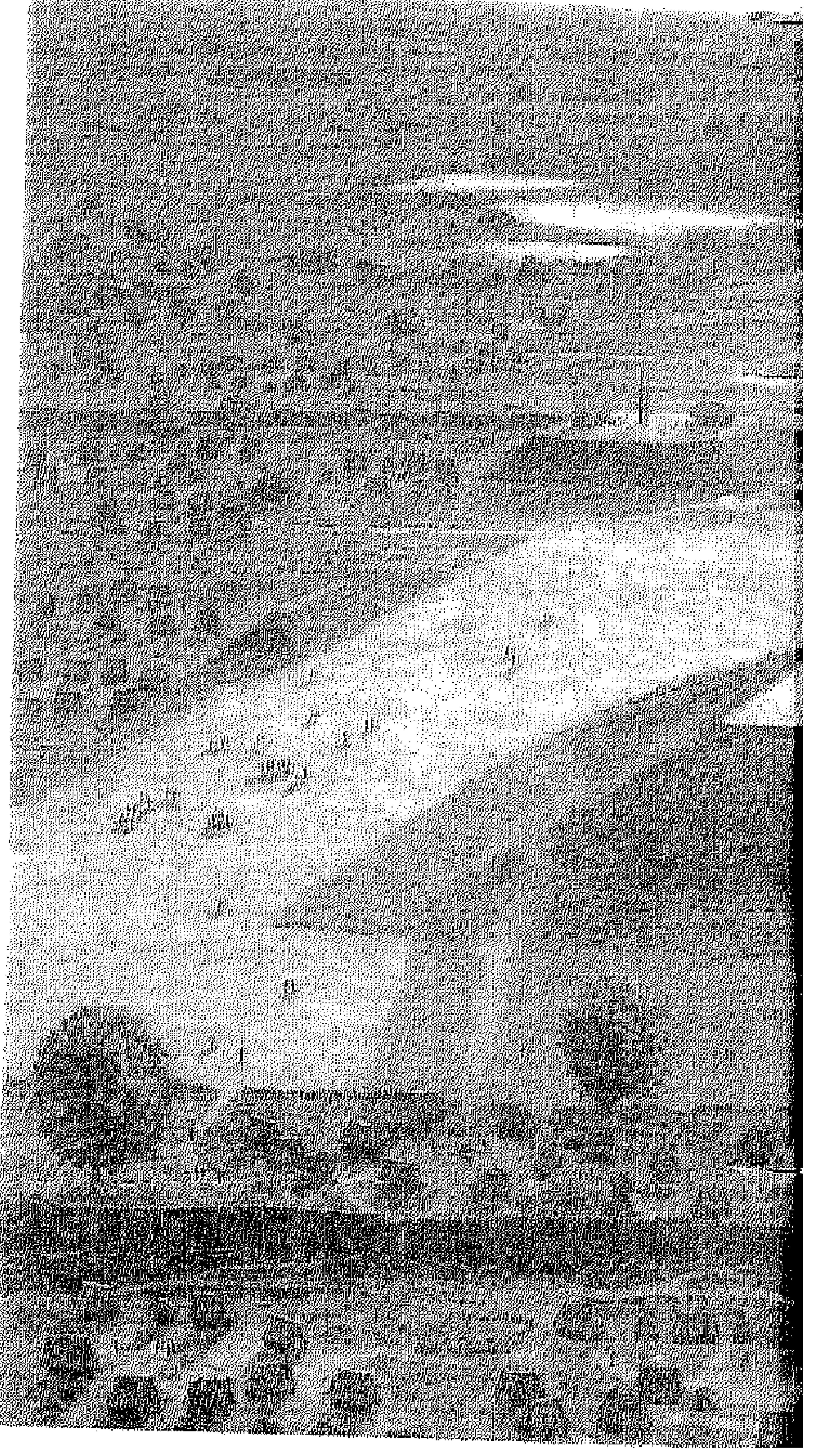
أثبتت سلسلة من الفحوص المضنية أن سمع شقيقي يفوق المعدل كثيراً. لكن الطبيب ابدى رغبته في معرفة السبب الذي يدفع شخصاً يتمتع بسمع ممتاز الى الخضوع لكل هذه الفحوص.

فأخبره شقيقي: "زوجتي هي التي ارسلتني الى هنا بحجّة انني لا أسمع كلمة مما تقول."

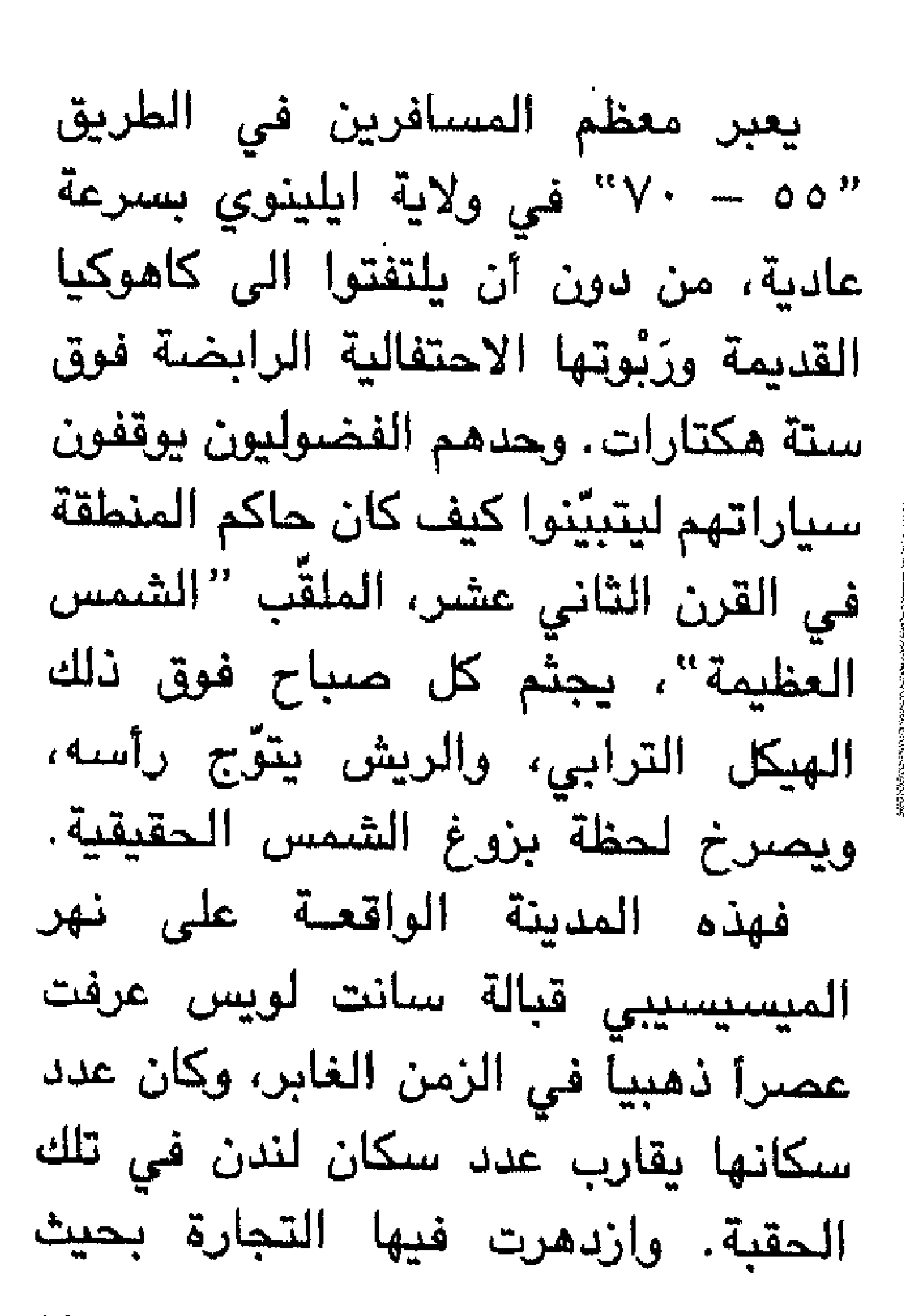
ك.ك.

الأمريكيون الأوائل
فينيقيون أم ڤايكنغ؟





عاش الامريكيون الأوائل في خيم وهياكل واقتاتوا بالكركند العملاق وكانوا يستحمّون يومياً مما أثار اشمئزاز المستوطنين الاوروبيين



يعبر معظم المسافرين في الطريق "٥٥ – ٧٠" في ولاية ايلينوي بسرعة عادية، من دون أن يلتفتوا الى كاهوكيا القديمة ورَبْوتها الاحتفالية الرابضة فوق ستة هكتارات. وحدهم الفضوليون يوقفون سياراتهم ليتبيّنوا كيف كان حاكم المنطقة في القرن الثاني عشر، الملقّب "الشمس العظيمة"، يجثم كل صباح فوق ذلك الهيكل الترابي، والريش يتوّج رأسه، ويصرخ لحظة بزوغ الشمس الحقيقية.

فهذه المدينة الواقعة على نهر الميسيسيبي قبالة سانت لويس عرفت عصراً ذهبياً في الزمن الغابر، وكان عدد سكانها يقارب عدد سكان لندن في تلك الحقبة. وازدهرت فيها التجارة بحيث

ILLUSTRATION OF CAHOKIA MOUNDS: LLOYD K. TOWNSEND PHOTO OF STONE CEREMONIAL PIPE: UNIVERSITY OF ARKANSAS MUSEUM

غطّت الأصقاع الممتدة من خليج مكسيكو الى البحيرات الكبرى. الا أن كتب التاريخ المدرسية في الولايات المتحدة لا تذكرها.

ويكاد النسيان يطوي صفحة كاهوكيا لأن التاريخ الامريكي، في أذهان كثيرين، بدأ قبل ٥٠٠ سنة فقط بوصول كولومبوس الى العالم الجديد عام ١٤٩٢. وفي ذلك التاريخ كانت كاهوكيا عاشت عصرها الذهبي واندثرت.

واجهت كاهوكيا مشكلة نمو، مثل كثير من المدن الحديثة، ومثلها لم تقوَ على معالجتها. فشحّ محصول حقول القمح التي كانت في ما مضى تؤمّن القوت لنحو ٣٠ ألف نسمة. وتحوّلت الغابات تدريجاً أراضي جرداء. كما ساهمت الحروب والأمراض والصراعات الاجتماعية في زيادة الانحطاط الحاصل في المنطقة، فلما وطأ المستوطنون الفرنسيون أرضها في أواسط القرن الثامن عشر لم يجدوا غير تلال مترامية الأطراف.

لكنّ العالم الجديد لم يكن مقفراً عندما وطأه كولومبوس. فالامريكيون الأوائل كانوا من الآسيويين الذين وصلوا الى المنطقة قبل ١٢ ألف سنة، ربما بعدما اجتازوا ممرّاً برياً جليدياً بين سيبيريا وألاسكا. ويقدَّر أن عدد سكان النصف الغربي من الكرة الأرضية كان يبلغ، عام ١٤٩٢، نحو ٩٠ مليون نسمة عاش معظمهم جنوب الريو غراندي[1] فيما استقرّ ١٠ ملايين فقط في ما يسمّى اليوم كندا والولايات المتحدة. وطوال قرون ظهر كثير من المجتمعات القديمة واضمحلّ في هذه البقعة من العالم.

الاستحمام اليومي. على رغم أن الاوروبيين القادمين حديثاً الى المنطقة ألفوا أساليب قتل كانت معتمدة، كربط الاشخاص واضرام النار فيهم أو قطع رؤوسهم، فقد صُدموا بالواقع الامريكي. وادّعى كولومبوس أنه مضطر الى اصطحاب مئات من الهنود الكاريبيّين المتوحّشين الى اسبانيا حفاظاً على سلامتهم وسلامة جيرانهم الأراواك الذين كانوا يأكلونهم. (وقد وجد صعوبة في تبرير استعباده الهنود الاراواك المسالمين.)

لم يكن أكل لحوم البشر وتقديم الذبائح البشرية شائعين بين الهنود شمال المكسيك، لكن بعض القبائل درج على التخلّص من الاطفال غير المرغوب فيهم وأباح تعدّد الزوجات. كما أثار الاستحمام اليومي، الذي كان عادة مكرّسة لدى معظم الهنود، اشمئزاز المستوطنين الاوروبيين، فاتّضح لهم أن أمريكا ليست أرضاً جديدة فحسب وانما مختلفة أيضاً.

وصادف البيض في تجوالهم في أنحاء البلاد رجال قبائل أخذوا يسألونهم بإلحاح: "لماذا تسموننا هنوداً؟" والجواب طبعاً هو أن كولومبوس كان مخطئاً، اذ أطلق على جميع السكان

(١) الريو غراندي او النهر الكبير فاصل بين الولايات المتحدة والمكسيك.

المحليين اسم "لوس إنديوس"[٢] اعتقاداً منه أنه يمّم شطآن جزر الهند النائية الواقعة في مكان ما بين الهند واليابان. ولم يكن السكان المحلّيون يعتمدون تسمية معيّنة لعرقهم مكتفين بعبارات مختلفة مثل "الشعب" أو "الشعب الأصلي"، بينما سمّوا القبائل الأخرى "صديقة" أو "عدوّة" أو "أفعى".

ان التنوع الذي يشكّل اليوم ميزة المجتمع الامريكي كان موجوداً منذ القدم وقبل مجيء كولومبوس بفترة طويلة. وكانت الشعوب تتكلّم مئات اللغات المتباينة.

أُولع بعض الهنود بالحروب والقتال بينما كرهها البعض الآخر أمثال قبائل البيما في أريزونا التي درج أبناؤها بعد كل معركة على إخضاع محاربيهم لعلاج ضد الجنون يستمرّ ١٦ يوماً.

كذلك عرفت تلك المجتمعات النظام الطبقي. فقد كان "الشمس العظيمة" يرفس بقايا الطعام لأتباعه الناتشيز. ولكن قبل إقرار دستور الولايات المتحدة بثلاثة قرون كان لـ"عصبة ايروكوا" مجلس شبيه بالكونغرس يمارس فيه حق النقض وتُصان فيه حرية الكلام، وقد أرسى أسس التكافؤ بين طبقات المجتمع.

حرّم بعض القبائل على النساء دخول المجالس، فيما حكمت نساءُ قبائل أخرى ومنهن "سيدة كوفيتاتشيكي" التي أهدت الى المستكشف الاسباني هرنندو دي سوتو عام ١٥٤٠ لآلىء من نهر ساڤانا (فبادلها بالاختطاف).

لم يحبّذ الهنود الأباش علاقات ما قبل الزواج، خلافاً لقبيلة ناتشيز في الميسيسيبي. وكانت كل علاقة أخرى يقيمها هندي متزوج من أفراد قبيلة كريك في الاباما تكلّفه أنفه أو أذنه. كما أجازت قبائل لنسائها انهاء زواجهن بوضع حاجات أزواجهن خارج باب البيت، مما يعني إرسال الزوج الى أمه.

ستونهنج أمريكا. رفض المستوطنون الاوائل التسليم بأن الهنود "الكسالى بطبعهم" هم بناة آلوف الاستحكامات المهجورة التي عثروا عليها في أودية أوهايو والميسيسيبي. ورجّحوا أن يكون بُناتها الحقيقيّون من الفينيقيين أو الفايكنغ[٣] الضالين. ولم يقتنع المثقفون بأنها من انجازات أسلاف الهنود إلّا في التسعينات من القرن التاسع عشر.

وفي السنوات الاخيرة تجلّت عبقرية بُناة هذه الاستحكامات أكثر فأكثر. ففي شمال شرق لويزيانا، مثلاً، تقوم مجموعة من أنصاف دوائر متراكزة[٤] من التراب في مكان يدعى "پوڤرتي پوينت" أي بقعة الفقر ويرقى عهدها الى نحو ثلاثة آلاف سنة ويمتدّ القسم الأكبر منها على مسافة ١٢٠٠ متر.

وذكر روجر ج. كينيدي في كتابه "إعادة اكتشاف أمريكا" أن في وسع المرء أن يقف على قمة أحد

(٢) Los indios عبارة اسبانية تعني "الهنود."
(٣) الفايكنغ محاربون اسكندينافيون غزوا شواطىء اوروبا بين القرنين الثامن والعاشر.
(٤) اي ذات مركز واحد.

الاستحكامات الى الغرب من يوفرتي بوينت "خلال فترة الاعتدالين الخريفي والربيعي، فيحظى برؤية واضحة للشمس وهي تشرق فوق الساحة المركزية المنبسطة على مساحة ١٥ هكتاراً. وهو مشهد مماثل لما يراه المرء في ملتقى الشمس والأرض في ستونهنج."[٥]

وفي نيوارك بولاية أوهايو تضمّ أعمال الحفر الهندسية التي قام بها هنود هوبويل دوائر ومربّعات ومثمّنات غطّت في الماضي أكثر من ١٠ كيلومترات مربعة. ويوضح كينيدي، وهو مدير متحف سميسونيان الوطني للتاريخ الامريكي، أنه "لا يُعقل أن يكون هذا التساوي الرائع في الشكل والحجم من صنع أناس بدائيين. وأشك في أن يتمكّن طلاب السنة الاولى في جامعة هارفرد من تحقيق إنجاز ذهني مماثل."

وبدا واضحا أن كل مستكشف أو مستوطن في الزمن الغابر لاحظ عطور أمريكا التي تنعّم بها الهنود فترة طويلة. فقد فُتن روبرت بيفرلي بمغنولية فيرجينيا "صاحبة أجمل أريج." وتوقّف هنري هدسون في مرفأ نيويورك ليتمتّع بـ"الاطياب العطرة جداً" المنبعثة من أعشاب شاطىء نيوجرزي وأزهاره. وكانت لرائحة الدخان حصتها أيضا. ففي كل خريف كان الهنود يحرقون مساحات كبيرة من الغابات لتوسيع حقول القمح وإخصابها بالرماد وتوفير مراتع للأيائل والمواشي. فتكاثرت الحيوانات ونمت الأشجار التي نجت من الحرائق حتى بلغ قطر شجرة الجمّيز (الدلب الغربي) في أوهايو أكثر من مترين. وشمخ الصنوبر الابيض في نيو انغلند فراوح طوله بين ٦٠ و٧٥ متراً.

كانت الحيوانات أكبر حجما في ما مضى، إذ بلغ طول سمك السلمون في نيو انغلند ٦٠ سنتيمتراً فكان هدفا سهلا لرماح هنود الألغونكيان. كما راوح طول حَفْش فيرجينيا بين مترين ونصف متر. ووصل وزن سلّور الميسيسيبي الى ٤٥ كيلوغراما. واصطاد الهنود في مياه كيب كود حيوانات كركند يزن الواحد منها تسعة كيلوغرامات، ومحارات كبيرة كانوا يقطّعون لحمها ثلاثا ليسهل أكله.

ضريبة باهظة. جاء في الكتب أن العطاء خير من الاخذ. وتلك كانت عقيدة الهنود الراسخة، فحيّروا الوافدين الاوروبيين لشدّة كرمهم. إذ أغدق هنود الاراواك على كولومبوس عصافير وثيابا "وأشياء تافهة جداً." وبعد فترة طويلة منح السكان المحلّيون زوارهم الأوروبيين كل ما لديهم من سمك وديوك حبش وخبز وغيرها.

غير أن المستعمرين رأوا في كرم الهنود برهانا على سذاجتهم، وعيّروهم بالكسل لعدم ابدائهم رغبة في تكديس الثروات. إلّا أن قبائل هندية عدة تعاطت التجارة في تلك الحقبة. فتاجرت قبيلة بويبلو في كولورادو بطيور الببغاء الآتية

(٥) ستونهنج آثار غريبة التركيب من حجار عملاقة في ولتشاير جنوب بريطانيا شيدها رجال ما قبل التاريخ.

من مكسيكو. واجتاز أفراد قبيلة أوتاوا (ويعني اسمها الاتجار) البحيرات الكبرى في شمال غرب البلاد لتبادل السلع.

بعد عشرين سنة على استعمار كولومبوس جزيرة اسبانيولا (التي تتقاسمها اليوم تاهيتي وجمهورية الدومينيكان) قضت الأمراض وشظف العيش على الهنود الاراواك فأصبحوا يعدّون أقل من ٢٠ ألفا بعدما كانوا نحو ربع مليون نسمة. وحصدت أمراض "العالم القديم" ملايين من سكان "العالم الجديد" في فترة وجيزة، فارتفعت نسبة الوفيات في بعض القبائل الى ٩٠ في المئة.

وقبل سنتين من زيارة دي سوتو زعيمة كوفيتاتشيكي، غزا الطاعون أرضها فأهلك معظم سكان مدينتها وأفرغ مدناً أخرى مجاورة. كذلك قضى مرض آخر، قد يكون الجدري أو الحُماق، على ألوف الهنود القاطنين ساحل نيو انغلند.

بعد مرور ١٥ سنة على تقديم هنود البوهاتان العون وهِبات الذرة الى المستوطنة الانكليزية الصغيرة في جيمستاون، أباد المستوطنون القبيلة وأضرموا النار في محاصيلها وقراها كي يوسّعوا زراعة التبغ. وكان الهنود يرتجفون هلعاً كلما عثروا على نحل في جوف إحدى الأشجار، لأن "هذا الذباب الانكليزي" يقطع ١٥٠ كيلومتراً خارج "الحدود" وهو دلالة واضحة على أن الرجل الأبيض هو في الطريق اليهم. فكانت قبائل تلوذ بالفرار وتهلك أخرى.

لم يخلص من هذه المجتمعات الامريكية القديمة إلّا واحد بقي ثابتاً في أرضه على رغم صروف الدهر. فعلى هضبة في أكوما (صحراء نيومكسيكو) صمد هنود البويبلو في مساكنهم لأكثر من ألف عام على رغم الجفاف وهجمات الأباش والاحتلال الاسباني المتعسّف. وأكوما هي أقدم مرّتين من مستوطنة سانت أوغستين الاسبانية في فلوريدا التي تأسست عام ١٥٦٥ والتي تعتبر عموماً أقدم مدينة في الولايات المتحدة.

لويس لورد وساره بورك ■



ثقيل الدم

جلس شاب في قطار يقرأ قصة وقد تمدد بحيث لم يبق متسع للمراة الجالسة بجانبه. وهو رفض أن يتحرك عندما طلبت منه المراة أن يفسح لها قليلا. فصرخ به الرجل الجالس قبالته: "لماذا لا تجلس كالبشر؟"

فرد الشاب: "وماذا ستفعل اذا رفضت؟"

قال الرجل: "حسنا، ساخبرك بنهاية القصة التي تقرأها!"

ك.ر.

أم الحرية

صرخة أم شجاعة خاضت صراعاً مريراً لاستعادة ابنتيها المحتجزتين في المانيا الشرقية



يوتا في برلين في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٤ تحتجّ على احتجاز ابنتيها.

انقبض قلب يوتا غالوس وأحسَّت نذير شؤم مروّعا يخيّم على الحجرة التي دخلتها في المطار الكئيب خارج بوخارست عاصمة رومانيا. فألقت نظرة خاطفة على غونتر شميدت رفيق الرحلة وابنتيها كلوديا (١١ عاماً) وبيات (١٠ أعوام) تستشف من محيّاهم ما ينمّ عن توتر وانقباض. فلم تلحظ شيئاً من ذلك، فهونت الامر على نفسها آملة في أن تنتهي الرحلة بسلام. وبذلت قصارى جهدها لتبدو كما تدّعي، سائحة منزعجة قادمة من ألمانيا الغربية.

لكن هذه الرحلة لم تكن إطلاقا لتمضية عطلة. وصحيح أن يوتا الفاتنة الشقراء ابنة الخامسة والثلاثين وصحبها هم مواطنون ألمان، لكنهم ألمان شرقيون وليسوا من ألمانيا الغربية. وكانت يوتا عقدت العزم في أواخر أغسطس (آب) ١٩٨٢ على المجازفة وتحمّل المخاطر في سبيل إعتاق عائلتها.

PHOTO: COURTESY OF JUTTA GALLUS

وقف شرطيان رومانيان في انتظارهم، وكان أحدهما بالغ السمنة، ومن دون انذار نطح معدة غونتر برأسه فأوقعه والالم يعتصره، ثم رفسه.

عندئذ صاحت يوتا: "نريد التكلّم مع سفير ألمانيا الغربية."

فهزىء بها الشرطيان وقال السمين: "لا أظن ذلك، ستتكلّمون معنا."

ثم سألاهم كيف وصلوا الى بوخارست، فأجابت يوتا أنهم ركبوا القطار.

- من أين؟

"من باد أوينهاوسن في ألمانيا الغربية."

كانت الافكار تتضارب في ذهنها: تُرى هل عرفا بأمر الشاحنة الصغيرة؟ فقد قادها غونتر من منزلهم في دريسدن بألمانيا الشرقية عبر تشيكوسلوفاكيا والمجر (هنغاريا) الى بوخارست. وهل عثرا على الشاحنة المهجورة فتعقّبا آثارهم حتى دريسدن؟

طلب منهم الشرطي السمين أوراقاً تثبت أنهم ألمان غربيون. فردّت يوتا بأن جوازات السفر تثبت مواطنيتهم تلك. فضحك الرجلان ثانية.

ذلك لأن الخطة التي رسمها غونتر في الأساس قضت بتمضية "إجازة" في بلغاريا والفرار عبر يوغوسلافيا.

لكن الامور لم تسر على النحو المرجو. فاقترح غونتر ملء طَلبات للحصول على جوازات سفر "بدلا من ضائع" لدى سفارة ألمانيا الغربية في بوخارست.

وأقنعت يوتا أقرباءها الألمان الغربيين الذين يسكنون في باد أوينهاوسن بأن يكونوا شهوداً لهم. وأوشكت جوازات السفر الموقتة على الصدور، لكنهم كانوا يحتاجون الى تأشيرة خروج لمغادرة رومانيا، فراحوا يترددون الى وزارة الداخلية لاستكمال المعاملات. وارتاب فيهم موظفو الوزارة لدى رؤيتهم جوازات السفر الصادرة حديثاً. فألحوا عليهم بالسؤال: "ألستم ألمانا شرقيين تحاولون الهرب من بلادكم؟" فلم يتراجعوا عن روايتهم الاولى على رغم الخوف المتعاظم في نفوسهم.

وبعد يومين بادرهم موظف روماني بلهجة مطمئنة: "لا تزال ثمة إشكالات صغيرة عالقة، إنما يمكن حلها في المطار." ونُقلوا على هذا الأساس الى المطار في سيارة جيب.

وهناك وُصل التحقيق معهم الى ساعة متقدمة من الليل، وأعيد استجوابهم في الصباح الباكر الى ما قبيل الظهر حين أعرب رجال الشرطة عن رغبتهم في التحدث الى الفتاتين على انفراد.

حينئذ دبّت القشعريرة في أوصال يوتا فهمست في أذن كلوديا: "تمالكا انفسكما والتزما روايتنا.".

انقضت ساعات والفتاتان تكرران أقوال والدتهما. أخيراً سألهما أحد الرومانيين ملاطفاً: "بالمناسبة، كيف هي لغتكما الروسية؟"

فأجابت كلوديا: "لا بأس."

فانكشفت اللعبة للحال. أليس أولاد

الألمان الشرقيين هم وحدهم يتعلمون الروسية في المدارس؟ فارتبكت الفتاتان واعترفتا بالحقيقة.

وفي ٢ سبتمبر (أيلول) أرسل الجميع في طائرة الى برلين الشرقية.

لم تخف يوتا من السجن، بل كان أكثر ما تخشاه أن تفقد ابنتيها، اذ سبق لها أن سمعت إشاعات مفادها أن مسؤولين في المانيا الشرقية يعرضون أولاد السجناء السياسيين للتبنّي أحياناً. فغمرها اليأس وتساءلت في سرّها: "هل أرى ابنتي بعد الآن؟"

عدوة الشعب. عندما حطّت الطائرة انتُزعت الفتاتان من بين ذراعي والدتهما التي سيقت الى دريسدن حيث مقرّ الشرطة السرية التي كانت تزرع الرعب والهلع في النفوس، وحيث أمضت أربعة أشهر طويلة داخل زنزانة مظلمة.

ولم يكن مصير غونتر أفضل، إذ زُجَّ في السجن هو أيضاً.

مثلت يوتا أمام هيئة المحكمة في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٣، وحُكم عليها بالسجن ثلاث سنوات بتهمة "محاولة الفرار من جمهورية ألمانيا الديموقراطية"، وأُرسلت الى قلعة هوهنيك الرهيبة التي شيدت في القرن الخامس عشر والواقعة خارج مدينة كارل ماركس ستادت (شيمنيتز حاليا). هناك أعطيت ملابس قطنية سوداء سميكة وجُرّدت من مقتنياتها الشخصية باستثناء صورة عائلية قُص منها وجهها. فهي "عدوة الشعب"، وهذا يعني في عرف المانيا الشرقية ان لا وجود لها.

شاركت يوتا ٢٧ سجينة أخرى في زنزانة كبيرة تبلغ مساحتها ١٥ متراً مربعاً. وكنّ يغتسلن في أحواض شبيهة بتلك التي تُعلف فيها الابقار. وخُصّص مرحاضان لكل زنزانتين.

ومن حين الى آخر كان يُطلب من السجينات حضور "حلقات سياسية." وعندما تخلّفت يوتا مرة عن الحضور قدمت إحدى السجّانات لاصطحابها، فقالت لها يوتا: "لن أحضر، فأنا لا تهمّني الدولة. لا يهمني سوى أولادي."

فكان عقابها الوقوف ساعتين تحت الماء البارد. ولما حان موعد عقد حلقة ثانية قالت لها السجانة: "أظنك ستحضرين هذه المرة، أليس كذلك؟"

فكان جواب يوتا: "أفضّل الاغتسال على غسل الدماغ." وباتت مذذاك تمضي أوقات الحلقات السياسية في الحمام حيث كانت "تُنسى" لساعات.

في تلك الفترة أُودعت كلوديا وبيات ميتماً في مونتزيغ مخصصاً لـ"الاولاد الذين تصعب تربيتهم" ومعظمهم مشردون أو منبوذون أو أولاد سجناء لا يملكون شيئاً في هذه الدنيا، وتوزَّع عليهم أسبوعياً حصص من الثياب الداخلية والملابس والملاءات. وتخضع رسائلهم لمراقبة القيمين على الميتم.

في هوهنيك احتفظت يوتا بجميع الرسائل التي خلصت اليها بعد مرورها على الرقابة. وكانت تتأثر بعبارات

التشجيع التي حملتها هذه الرسائل: "نحن نثق بك يا أمي، تذكّري أننا معك."

وأخذت عهداً على نفسها أنها عندما تغادر السجن لن تدع شيئاً يفرّق شمل عائلتها ثانية. وعقدت العزم على العبور الى الغرب.

في ١٨ أبريل (نيسان) ١٩٨٤ نُقلت يوتا مع ٢١ سجينة أخرى في حافلة الى هرلسهاوسن الواقعة في الناحية الالمانية الغربية من الحدود. وقال لهن سائق الحافلة: "ارتحن الآن، فأنتنّ أحرار." واستقبلهن مسؤولون ألمان غربيون بالخبز والجبن والنقانق، فبكى الجميع وشربوا الانخاب رافعين كؤوساً ملأى بعصير الليمون، فيما راح الناس في الطرق يحيّونهنّ رافعين اشارات النصر.

علمت يوتا أن حكومة ألمانيا الغربية "اشترتها." هكذا. فالألمان الشرقيون يعانون ضائقة اقتصادية خانقة، ويمارسون هذه التجارة للحصول على سلع وعملة صعبة هي المارك. فتدبّر المحامي الالماني الشرقي فلفغانغ فوغل إطلاقها في مقابل فدية من السلع بلغت قيمتها ٩٥ ألف مارك (نحو ٦٠ ألف دولار اليوم).

امرأة عنيدة. استقرّت يوتا في شتوتغارت حيث افتتنت بالتغيرات الجديدة التي طرأت على حياتها وبأنواع السلع الكثيرة المتوافرة كما أدهشها انفتاح الناس ودعمهم اياها. لكنّ أفكارها ما برحت تحملها الى ابنتيها. وكان مسؤولون ألمان غربيون أخبروها أن استرجاعهما يستغرق ثلاثة أشهر.

وفي سبتمبر (أيلول) علمت يوتا أن السلطات الألمانية الشرقية منحت مطلّقها في دريسدن حق الوصاية على ابنتيه. فصممت على إنقاذهما من النظام الذي سبق أن دمّر طفولتها.

بعدما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها هربت عائلة يوتا من منزلها في كونيغسبرغ في بروسيا الشرقية قبل ساعات من دخول الجيش السوفييتي، وانتهى بها المطاف في دريسدن. وبعد فترة قرر أبوها متابعة الطريق غربا خوفاً مما ستؤول اليه الأوضاع في البلاد. لكنّ أمها لم تقوَ على مواجهة فرار آخر. فتابع الاب طريقه وحيداً وطلّق والدتها لاحقا وتزّوج ثانية. وعلى رغم أنه لم ينقطع عن المراسلة فان تفكك العائلة ولّد في نفس يوتا استياء مريراً ونقمة على وضع المانيا المجزأة الذي شرذم عائلتها.

كانت يوتا طالبة في الرابعة عشرة من عمرها حين أبلغ المدرّس اليها والى رفقائها أنه آن الاوان لكي ينضموا الى "الشباب الألماني الحر" أي جناح "الأشبال" في الحزب الشيوعي. وحدها يوتا رفضت الانتساب الى هذا التنظيم. ولما نهرها مدير المدرسة سائلا: "كيف تجرؤين على الرفض؟" أجابت بهدوء وحزم: "لن أنتسب اليه."

فحال قرارها هذا، إضافة الى وجود والدها في الغرب، دون متابعة تحصيلها العلمي.

وها هي اليوم امام تحد جديد يحضّها مرة أخرى على أن تظهر للسلطات أنها لا تهاب الصراع.

في ٣ اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨٤ شاهد المارة في شوارع بون امرأة تقف باعتزاز أمام مكتب ممثل المانيا الشرقية حاملة لافتة كُتب عليها: "أطلقوا الفتاتين كلوديا وبيات غالوس!"

وبعد أربعة أيام ظهرت المرأة أمام حاجز التفتيش "تشارلي" وهو نقطة العبور الرئيسية في جدار برلين. وتعاقبت الأيام والاسابيع والاشهر ويوتا تقف بثبات حاملة اللافتة التي باتت راية معركتها وجاء فيها: "الشرطة السرية أخذت ابنتيّ!"

في أوائل يناير (كانون الثاني) ١٩٨٥ بعثت يوتا برسالة الى ريتشارد فون فيتزاكر رئيس ألمانيا الغربية تلتمس منه المساعدة. ولجأت في ابريل (نيسان) الى الفاتيكان تطلب العون فتحدث اليها البابا وجاء حديثهما قبل ساعتين من لقائه الزعيم الألماني الشرقي إريك هونيكر.

حملت يوتا الى البابا رسائل من عشرة ألمان آخرين يستميتون لاستعادة أولادهم المحتجزين في المانيا الديموقراطية. وناشدته: "ساعدني على استرجاع ابنتيّ."

بعد لقاء البابا هونيكر سُمح لكلوديا وبيات بتسلم رزم ورسائل من والدتهما. وغالبا ما تحدّت الفتاتان قرار منعهما من زيارة خالهما كلاوس الساكن في دريسدن، فكانتا تذهبان خلسة الى منزله.

وذات يوم ناشدته بيات: "أرجوك يا خالي، أخبرنا عن ماما."

فقال كلاوس: "تذكّرا فقط أنها تحبّكما كثيراً ولا تألو جهداً في سبيل استرجاعكما. وستلتقين عما قريب."

كتبت بيات الى أمها في إحدى رسائلها: "أنا مصممة على المجيء اليك. أريد أن أبقى معك الى الأبد. ولكن، أرجوك، لا تأتي على ذكر هذه الرسالة عندما تكتبين إلينا، لأنني أرسلتها سراً."

وشرعت الفتاتان بدورهما في الكتابة الى الرئيس هونيكر وغيره من المسؤولين الالمان الشرقيين تتوسلان السماح لهما بالانضمام الى والدتهما في الغرب. لكنهما لم تتلقيا جواباً، بل استدعتهما الشرطة السرية وسألتهما: "لمَ تفعلان هذا؟"

فأجابتا: "نريد الانضمام الى أمنا."

وعود كاذبة. في مايو (أيار) سافرت يوتا الى أوتاوا في كندا حيث أجبرت أعضاء الوفود المشاركة في "مؤتمر الامن والتعاون في أوروبا" على الاستماع اليها. وانتقلت في أغسطس (آب) الى هلسنكي عاصمة فنلندا حيث عقد المؤتمر جلسة أخرى، فقيّدت نفسها الى سياج أمام "فنلنديا هاوس" وقد علّقت على ظهرها صوراً لابنتيها.

تمكنت يوتا من تمويل هذه الجهود بعملها في حقل الانتاج التلفزيوني وبمساعدات من "منظمة حقوق الانسان".


يوتا وابنتاها اليوم.

وأثمرت جهودها فبدأت تلقى أصداء ايجابية في أوساط السياسيين الالمان الغربيين ولدى وسائل الاعلام. وبعدما ظهرت ذات يوم على شاشة التلفزيون اتصل بها مجهول قال لها متوعداً: "لن تري ابنتيك ثانية إن استمررت على هذا النحو." وتكرّر الاتصال بعد فترة وجيزة: "سوف نحطمك." لكن يوتا تابعت تحركها غير آبهة بالتهديد والوعيد.

في ١٣ أغسطس (آب) ١٩٨٦ اجتمع البرلمان الالماني الغربي في برلين في الذكرى الخامسة والعشرين لاقامة جدار المدينة. فكانت يوتا هناك، وانتظرت ريثما فرغ الزعيم الديموقراطي الاشتراكي فيلي برانت من إلقاء خطابه، فأسرعت الى المنصة ووقفت أمام عدسات التلفزيون حيث فضّت شرشفاً كتبت عليه: "تكفي أربع سنوات من الفراق!"

حاول الحراس إبعادها، لكنها تقدمت من المذياع وصاحت: "لقد تحدّث المستشار السابق برانت بألفاظ منمقة عن العائلات التي التأم شملها، وها قد انقضت أربع سنوات وأنا أكافح في سبيل رؤية ابنتيّ. أتوسل اليكم، أعيدوهما الي."

هز المشهد مشاعر المواطنين، لكن الجانب الالماني الشرقي لم يحرك ساكناً.

في تلك الاثناء كانت يوتا التقت أكثر من ٥٠ شخصاً يعانون الأمرين من احتجاز أولادهم في المانيا الشرقية. منهم من نجح في استقدامهم الى الغرب ومنهم من يئس فعدل عن الكفاح. وها هي يوتا تنهار بدورها وتستسلم. وباتت تمشي في الطرق باكية، وجفاها النوم ولم تعد تجد رغبة في الاكل. لكنها ما لبثت أن استجمعت قواها وعاودت حملتها الشاقة.

في سبتمبر (أيلول) ١٩٨٧ علمت يوتا أن الرئيس هونيكر سيزور المانيا الغربية رسمياً للمرة الاولى. فعزمت على مواجهته في مطار بون. غير أن احد المسؤولين في الحكومة الالمانية الغربية اتصل بها قبيل الزيارة وقال لها مطمئناً: "ستتولّى شخصية سياسية بارزة عرض قضيتك على السيد هونيكر، وستطلق حكومة ألمانيا الشرقية ابنتيك. ولكن نرجو ألا تقدمي على أي عمل يسبب احراجاً لنا أو للسيد هونيكر."

فعدلت يوتا عن الذهاب الى المطار.

توقعت يوتا أن يكون ألفرد دريغر عضو البرلمان الألماني الغربي (بندستاغ) هو الذي سيعرض قضيتها. فكتبت اليه لاحقاً: "ماذا قلت لهونيكر في شأن ابنتي؟"

وتلقّت منه ردّاً جافاً: "لا يمكنني أن

PHOTO: PETER RONDHOLZ

أؤكد لك أنني أثرت قضية ابنتيك تحديداً." فأدركت أن الخطة كانت ترمي الى إبعادها ليس إلّا.

ومع حلول ربيع ١٩٨٨ كانت يوتا كتبت نحو ٣٠٠ رسالة الى الوزارات والدوائر في كلتا الدولتين، والى معظم السياسيين الالمان البارزين بمن فيهم المستشار الألماني الغربي هلموت كول ورئيس وزراء بافاريا فرانز شتراوس وإريك هونيكر. واقتصرت غالبية الردود التي تلقتها على عبارات فارغة من نوع: "تحلّي بالصبر يا سيدة غالوس"، فيما تجاهل آخرون التماسها كلياً.

اللقاء. في الحادية عشرة والثلث قبل ظهر ٥ يوليو (تموز) ١٩٨٨ تلقت يوتا في مكتبها اتصالا هاتفياً من مساعدة ولتر بريسنيتز وزير الدولة للعلاقات الالمانية الداخلية. فشعرت بالخوف يدبّ في عروقها إذ تذكرت الرسالة القاسية اللهجة التي أرسلتها الى الوزارة قبل أيام. وألحّت عليها المساعدة: "أرجوكِ، تحلّي بالصبر." ثم شرحت لها أن الوزير يتوقع تطورات ايجابية. فقاطعتها يوتا قائلة: "لقد انقضت سنوات وأنا أسمع بتطورات ايجابية متوقعة. لم أعد أصدّق ما يقال، أريد نتائج ملموسة."

وبعد ثلاثة أسابيع تلقت رسالة من المحامي الالماني الشرقي فلفغانغ فوغل تضمنت سؤالا مصوغاً بأسلوب رسمي جاف: "هل أنت راغبة في الوصاية على ابنتيك؟"

كان حرياً بهذا السؤال أن يضحكها، لكنها انفجرت باكية ثم كتبت ويداها ترتجفان: "نعم، أنا راغبة في الوصاية على ابنتيّ."

وبعد شهر في ٢٥ أغسطس (آب) جلست يوتا ومعها بريسنيتز في مكتب ببرلين الغربية والقلق يتأكلها. وفجأة سُمع وقع أقدام على السلّم وفُتح الباب. وظهرتا! كلوديا شقراء ممشوقة القوام جميلة المحيا غير تلك الفتاة الخرقاء التي لم ترها أمها منذ ست سنوات، والى جانبها بيات طويلة ناحلة ذات شعر كستنائي ووجه طافح بالارتباك والأمل.

شعرت يوتا بوطأة الوحدة والمرارة تسقط عن كاهلها اذ اندفعت ابنتاها بين ذراعيها فعانقتهما ضاحكة باكية.

تعمل يوتا اليوم في حقل الاعلان، وتعيش مع ابنتيها في شقّة مريحة من طبقتين في احدى ضواحي ميونيخ. وقد شهدت ألمانيا منذ ذلك اللقاء تحقيق انجازات كثيرة، فسقط جدار برلين وتوحدت الألمانيتان. وبدأ الانتعاش يعود الى القسم الشرقي المنهار اقتصادياً. لكنّ يوتا وكثيرين غيرها ما زالوا مقتنعين بوجوب تحقيق العدالة.

وتقول يوتا: "إن الذين زجّوا بي في السجن وحرموني ابنتيّ وهددوني عندما قاومت قرارهم يريدون دفن الماضي ومساوئه. ولكن، علينا ألّا ندعهم يحققون غايتهم، فالماضي سيظلّ حياً كي لا ينجوا بأفعالهم."

فرغوس م. بوردفيتش ■



تكنولوجيا ثورية
تمنح الاطباء نظرة "اختراقية"
تتيح لهم رؤية الاجنّة وتفجير
حصى الكلى ومعالجة علل داخلية من دون جراحة

"لن تشعر بشيء." بذلك وعدتني الاختصاصية بالتصوير الصوتي ايلي موريس فيما كانت تحضّر لتخطيط قلبي في مستشفى مساتشوستس العمومي ببوسطن. لم أتلقَّ حقنة أو محذراً، وانما مادة هلامية زلقة مسحت بها صدري. وأدنت الـ"سكانر"[1] من سريري، وهو جهاز على عجلات لا يزيد حجمه على حجم غسالة ملابس وقد أثبت في أعلاه جهاز فيديو. ثم أزلقت ما بين ضلعيَّ الخامس والسادس ترجاماً[2] (محوِّلاً) يشبه مذياعاً صغيراً (ميكروفون).

أدارت موريس الجهاز، فقفزت الى شاشة الفيديو فجأة صورة "مخلوق" غريب شرع يفغر فاه ويطبقه كأنما هو خارج من أحد أفلام الرعب. كان ذلك

(١) Scanner
(٢) Transducer

PHOTO: © TOM TRACY / MEDICHROME

المشهد لا يصدق، اذ بفضل الصوت الفوق – السمعي،[٣] أي الموجات الصوتية العالية التردد التي يتعذر على البشر سماعها، وجدتني أحدق مذهولا الى قلبي النابض وأشاهد الصمام الابهر (الأورطي) ينفتح وينغلق.

لقد أحدثت هذه الرؤية الاختراقية[٤] ثورة في عالم الطب، اذ بات في وسع الاطباء أن يحدّقوا في العمق داخل كل عضو في الجسم تقريباً من دون شقّه. ويقول الدكتور دنيس سارتي من مركز سيدرز – سينا الطبي في لوس انجلس: "تصوروا الروعة في فحص مريض ومشاهدة ما يجري داخل جسمه!"

وهذا المشهد هو في الواقع مسألة حياة أو موت بالنسبة الى ملايين الاشخاص الذين تنار قلوبهم بواسطة الموجات الصوتية. ففي امكان أطباء القلب تبين أي من الشرايين هو متضخم أو مسدود وأي من العضلات تفتقر الى الدم. وهذا ينطبق أيضاً على كل جزء من الجسم، اذ يستطيع الاطباء تبيّن الكييسات والآفات والانسدادات والاورام.

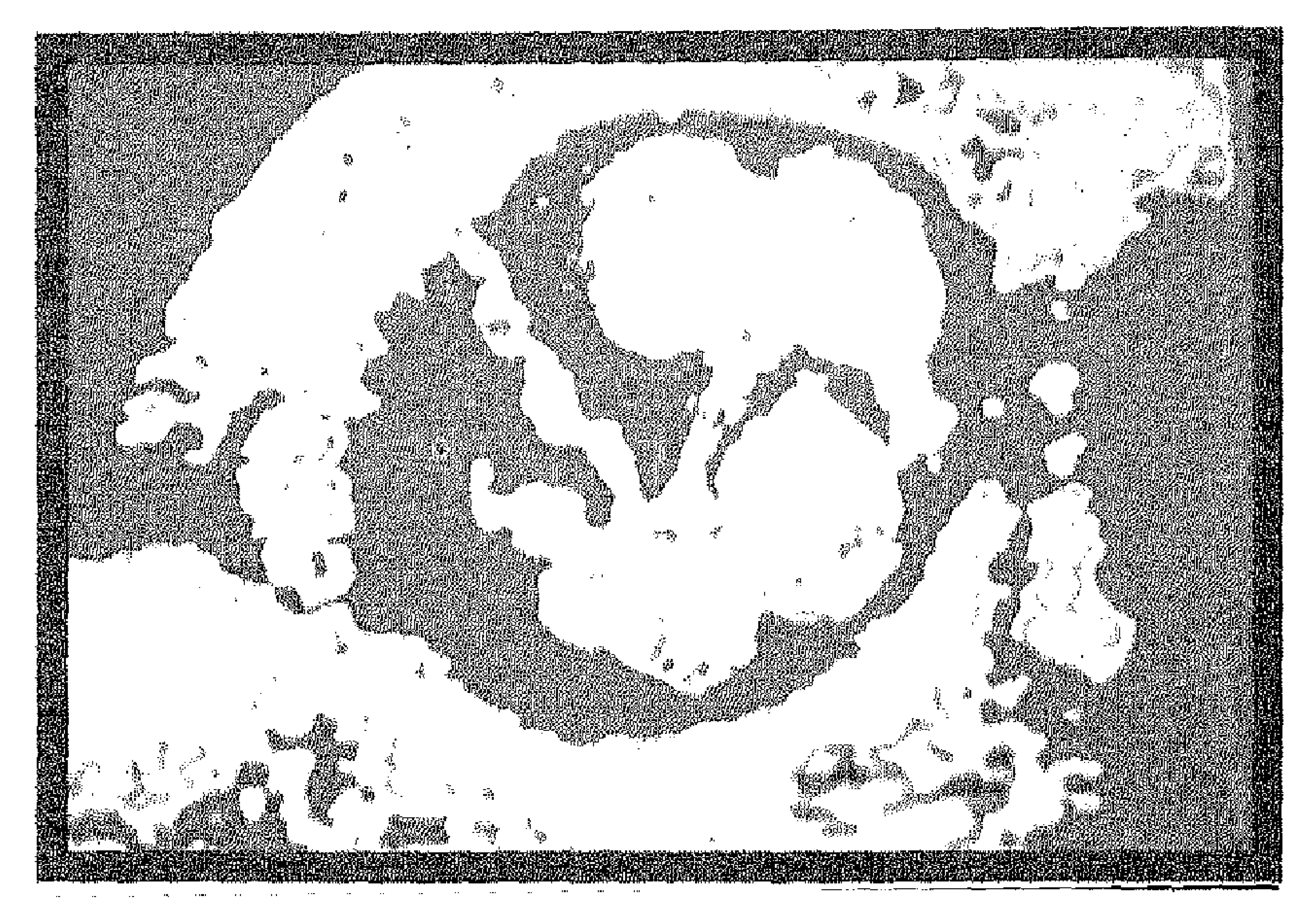
وفضلا عن التصوير، يمكن تركيز الموجات الصوتية – مثلما تركز إشعاعات الضوء عبر عدسة مكبرة – لاصابة بقعة صغيرة داخل الجسم. ويستخدم أطباء العيون الموجات الصوتية لمعالجة أورام في العين ولتخفيف الضغط الذي يسبب علّة الزرَق.[٥] فطلقة واحدة من الموجات الفوق – السمعية الفائقة الحدة تسحق حصى الكلى فتنتفي الحاجة الى الجراحة المؤلمة وأسابيع النقاهة. وتقول الدكتورة لين إفريت من مستشفى لويس فايس التذكاري في شيكاغو: "اننا نكتشف كل يوم طرقاً جديدة لاستخدام هذه الموجات."

وخلافاً للاشعة السينية (اكس) ليست للموجات الفوق – السمعية أي أعراض ضارة معروفة. لذا في امكان الطبيب استخدامها في أي وقت تدعو الحاجة الى مشاهدة ما في الداخل. وبالمقارنة مع أجهزة التصوير الطبية الاخرى، فهي سريعة وقليلة الكلفة، كما يسهل نقل الجهاز. أما السكانر الذي استخدم في تصويري والذي يصنع منه أربعة آلاف سنوياً فثمنه ٢٠٠ ألف دولار، بالمقارنة مع ما يراوح بين مليون ومليوني دولار ثمن آلة تصوير مغنطيسي ترجيعي رنان[٦] يزيد وزنها على ١٥ طناً.

والموجات الصوتية الفوق – السمعية تفتح آفاقا تكنولوجية جديدة خارج نطاق الطب أيضاً. فهي تلغي البراغي والغراء في منتجات بلاستيكية كأقراص الكمبيوتر (ديسك) وحفاضات الاطفال، وتطلق الحبر في بعض طابعات الكمبيوتر، وتلحم جيوب السراويل وتخيط اللحف.

مثل جناح فراشة. كان مسبار الصدى[٧] الذي اخترع في الحرب

(٣) Ultrasound
(٤) See-through vision
(٥) Glaucoma. وهي ما يعرف بالماء الاسود.
(٦) Magnetic-resonance-imaging machine
(٧) Echo-sounder



صورة فوق – سمعية لتوامين داخل الرحم.

العالمية الثانية لكشف الغواصات في أعماق المحيط تطبيقا للتكنـولوجيـا الفوق – السمعية: تتشعب المـوجات الصوتية بنعومة عبر مادة ناقلة الى أن تصطدم بجسم يختلف عن تلك المادة، قد يكون غواصة في بحر أو طبلة أذن أو شقا في قطعة فولاذ. فتتفرق الموجـات الصوتية ويرتجع بعضها الى المصدر الذي انبعثت منه. فتُجمع الاصداء وتُحوَّل الكترونيا من أصوات الى صور.

وبعيد الحرب انبثقت فكرة تصوير الجسم البشري بترجيع الاصداء.[8] لكن الصور الناتجة كانت ضبابية غير واضحة وغير موثوق بها ولا تصلح أساسا للتشخيص. وفي أواسط السبعينات، مع تطور علم الالكترونيات الصلابيّة[9] بات في الإمكان تحليل معلومات واسعة بسرعة شبه فورية. تقول الدكتورة سارتي: "بعد سنوات من ترجمة الخطوط الضبابية اذا بنا فجأة نرى الاشياء بدقة ووضوح كأننا شغّلنا مسّاحات زجاج السيارة."

يحوي الترجام الذي سدد الى قلبي وأنا ممدد على طاولة الفحص ٦٤ مكبراً للصوت بحجم رأس دبّوس، وكل منها يطلق مليونين ونصف مليون نبضة صوتية في الثانية تخترق جلدي، ثم يتوقف ليصغي الى الاصداء المرتجعة الخافتة. فيحتسب الكمبيوتر السنتيمترات التي قطعتها النبضات ويحول المعلومـات خريطة مرئية.

وبتحريك الترجام بمهارة استطاعت موريس التقاط صور مقرَّبة لصمامات قلبي وحجيراته. وقد شاهدتُ صمامي التاجي يرف كجناح فراشة.

عين في أنملة. يوفـر الفحص الفوق – السمعي أكثر من الوقت والمال. فقد دُعيت إيلي موريس أخيراً لفحص امرأة أدخلت المستشفى وهي تكاد تختنق، وكان تنفّسها يزداد صعوبة في

---

(٨) Echo pictures

(٩) Solid-state electronics

PHOTO: © HOWARD SOCHUREK / THE STOCK MARKET

كل لحظة. جرّت موريس جهاز السكانر الى جانب المرأة، وما هي الا لحظات حتى بانت العلة واضحة كلياً. فقد تجمع سائل حول القلب وراح يعصره بحيث تعذرت تعبئة الحجيرات، وكان محتملاً أن يتوقف القلب في أي لحظة.

فلو لم يكن الجهاز الفوق – السمعي جاهزاً وفي المتناول لاعتمد الاطباء الاشعة السينية ومهارات عيادية تقليدية أخرى لتقصي العلة، أو لجأوا الى عملية اختراقية تستهلك الوقت حيث تولج أسلاك داخل الاوردة وصولاً الى داخل القلب. ولكن هنا أتاهم الجواب للحال فبزلوا السائل بسرعة.

والجهاز الفوق – السمعي خير عون للحوامل يجيب عن تساؤلاتهن بدقة وأمانة: هل أحمل توأمين؟ هل الجنين في الوضع الصحيح؟ هل ينمو طبيعياً؟ هل قلبه نابض؟ وفي إمكان الاطباء إجراء جراحة للجنين بتوجيه من الجهاز الفوق – السمعي.

في الماضي القريب لم يكن من المتيسّر تحديد أسباب بعض أمراض الكبد الا بإجراء فحوص معقدة للدم على مدى أسابيع، أو باجراء جراحة خطرة. أما الآن فيتيح الجهاز الفوق – السمعي للطبيب رؤية سريعة لانسداد أو آفة ما، فيوجه ابرة بدقة الى البقعة المريضة وينتزع خلايا تُفحص مخبرياً. وما هي الا ساعات حتى يعرف الطبيب سبب العلة ومدى خطورتها وامتدادها.

يقول الدكتور لزلي بلومغارت أستاذ الجراحة في جامعة برن في سويسرا: "لقد أحدث الفحص الفوق – السمعي تحولاً جذرياً في عملنا. فالتشخيص الذي يسبق الجراحة هو الآن أفضل كثيراً مما كان، والتصوير الفوق – السمعي المستخدم خلال الجراحة هو بمثابة عين رائية في طرف البنان."

غسالة صحون! خارج النطاق الطبي تحافظ الموجات الصوتية العالية الحدة على تماسك عالم البلاستيك والبوليمر حولنا. ففي كل منزل أوعية ورزم وأكياس وعلب كرتون وأشرطة تسجيل مختومة ختماً محكماً بالموجات الفوق – السمعية. واذا لقينا صعوبة بالغة في فتح كيس جوارب أو علبة فستق فذلك لأن المفاصل حُمِّيت بموجات فوق – سمعية مركزة حتى ذاب السطح وتماسك الجزءان في قطعة واحدة.

ويمكن غسل الاواني بواسطة الموجات الصوتية. فاذا قُذف سائل ما بطاقة فوق – سمعية فانه يتحلل ويتحوَّل فوّارة من الفقاقيع الصغيرة التي تنسف الاوساخ في أدقّ الشقوق. وتستخدم هذه التكنولوجيا على نطاق واسع في المختبرات والسفن الحربية والمعامل ومتاجر المجوهرات، الا أن كلفتها الباهظة لا تشجع على استخدامها في المطبخ حالياً. ولكن، كما يقول جيم منغاسون الخبير بالموجات الصوتية الفوق – السمعية في شركة "برانسن ألتراسونيكس" في دانبري بولاية

كونيتيكت، "انها آتية حتما، غسّالة للصحون تنظف الاواني في بضع دقائق ولا تستهلك الا قليلاً من الماء."

ان المعالجة بالموجات الصوتية الفوق – السمعية هي حل للمشاكل على أنواعها. فصيادو السمك يستطيعون، باستخدام مسبار صوتي فوق – سمعي للاعماق، تحديد أماكن أسراب الاسماك في المحيطات. وتصرف شركات الطيران ملايين الدولارات لتفكيك الطائرات وتفحص أجزائها بحثاً عن شقوق دقيقة قد تتّسع لتصبح شقوقاً قاتلة. ويستغرق فحص دوّار محرك نفّاث ٤٠ ساعة عملاً. لكن الجهاز الفوق – السمعي الجديد الذي طوره علماء الفيزياء في المختبر الوطني للابحاث في لوس ألاموس بنيو مكسيكو، يستطيع تقصير هذه الساعات الى دقائق.

عندما تضرب الموجات الصوتية جزءاً معدنياً فانه "يرن" بنمط ترددي مميَّز، وهذا النمط من الرنين الفريد كبصمة اصبع يتغيّر لدى ظهور شق في المعدن. يقول ألبرت ميليوري العالم الفيزيائي المسؤول عن المشروع الاختباري: "تهدف الفكرة الى اختزان بصمة صوت لكل جزء لدى صنعه. فاذا اختلفت البصمة لدى اختباره لاحقاً اقتضى طرحه. ونحن نأمل وضع صندوق أسود في كل قمرة قيادة بحيث تتمكّن الطائرة من إجراء فحص ذاتي."

آفاق جديدة. أما التقدم الاكثر إثارة فتحقق في حقل الطب. فالاجهزة الجديدة التي تعتمد التكنولوجيا الرقمية تستطيع "رؤية" أوردة لا يزيد قطرها على مليمتر، وبعضها يكشف جريان الدم. لكن الاطباء لا يكتفون بالرؤية.

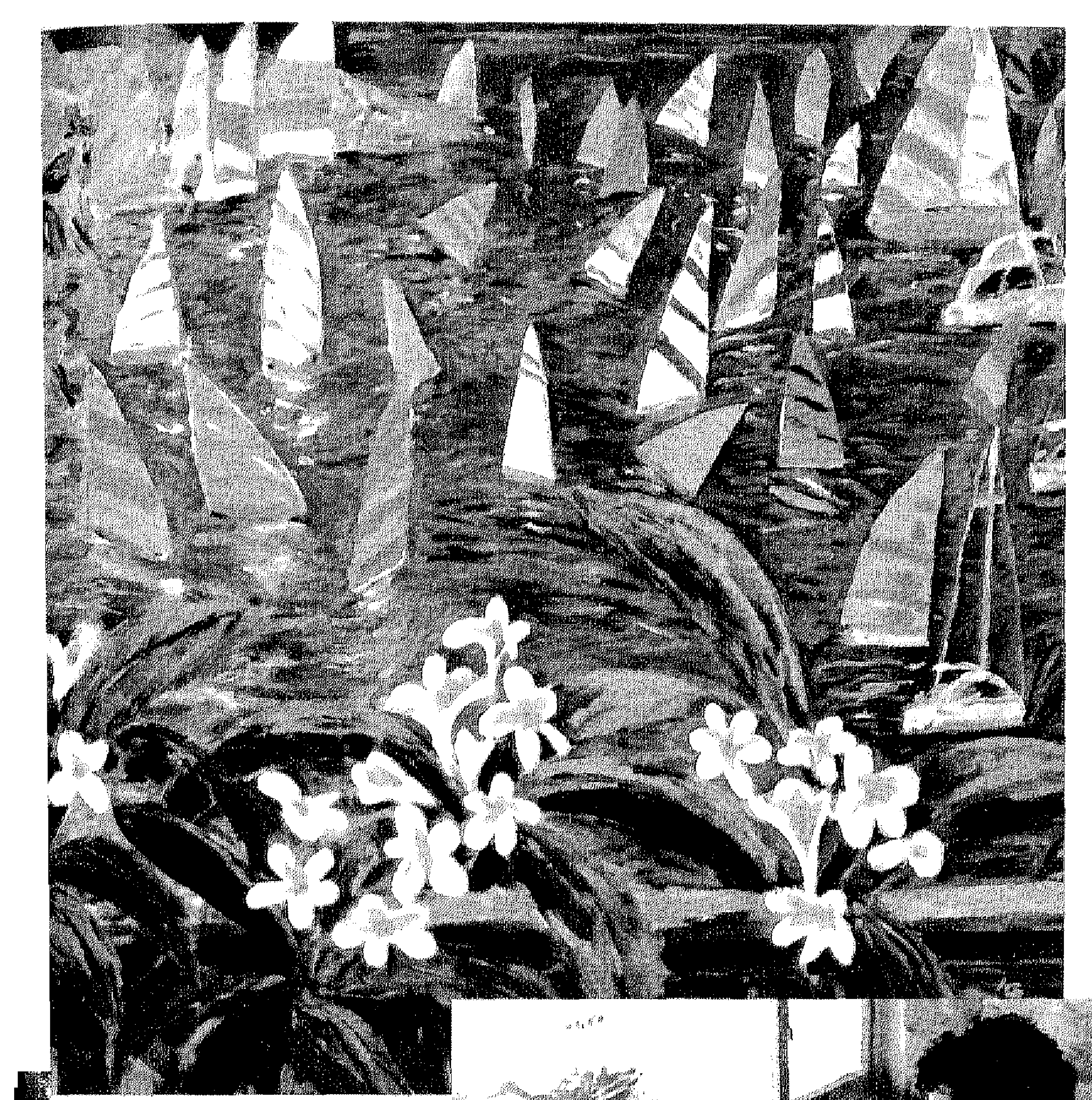
ان الجيل الطالع من الاجهزة الفوق – السمعية سيزود الطبيب الناظر الى قلبك تسجيلاً مطبوعاً يبين بالضبط مقدار الدم الجاري عبر الصمامات، فتتسنى له مقارنة معالجات مختلفة. وتَعِد الموجات الصوتية الفوق – السمعية بخفض عدد الجراحات المجازية[١٠] الخطرة والمكلفة.

يعمل فريق من الباحثين في معهد القلب بمركز سيتون الطبي في سان فرنسيسكو لايجاد سبل تتيح ادخال الترجام الى القلب واستخدام موجات فوق – سمعية لتنظيف الشرايين المسدودة أو الضيقة. ويقول الدكتور البريطاني ديفيد كمبرلند الاختصاصي بالتصوير الاشعاعي للقلب والاوردة: "عندما تضرب الموجات الفوق – السمعية الصفائح المتراكمة على جدران الشرايين تتبدد هذه كالدخان. ولا خطر من اتلاف الشريان ذاته."

كل يوم تُعبر حدود آفاق جديدة. وبات الاطباء ينظرون الى كل عضو في الجسم تقريباً. لقد أتاحت لهم الموجات الصوتية الفوق – السمعية مشاهدة ما لم يشاهدوه قبلاً وحصد نتائج لم يحلموا بها.

جون دايسون ■

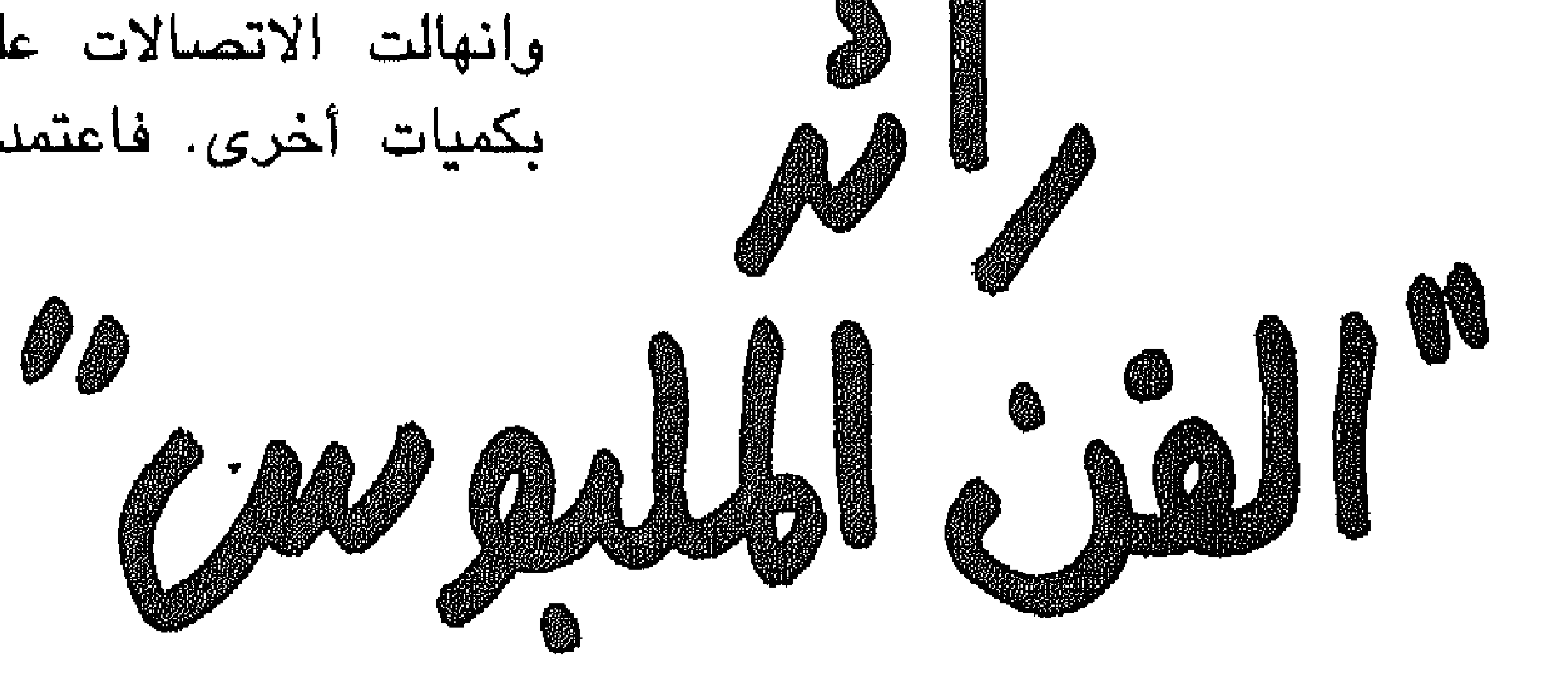
(١٠) Bypass surgery. وهي ما يعرف بجراحة القلب المفتوح.



"شاطىء تشاينمان في الصيف" (١٩٨٧) زيتية، ١٨٢ سم × ١٠٤ سم.

DONE ART AND DESIGN

هل يرسم فنان رصين لوحاته على قمصان وأكواب؟ طبعاً، وهي تلاقي استحسان الملايين



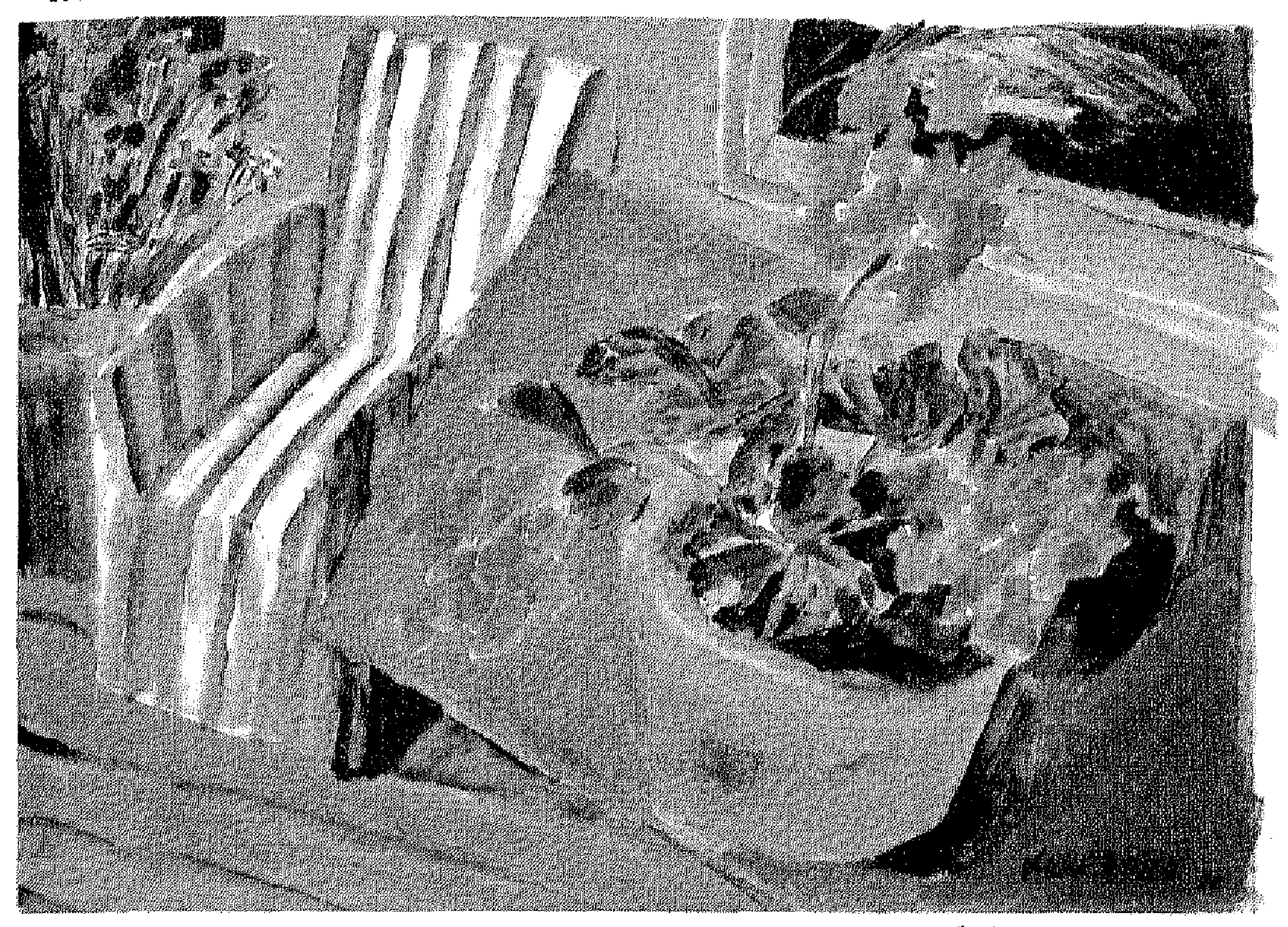


خضعت بات لويس قبل ثلاث سنوات لجراحة في وركها في مستشفى رويال نيو كاسل بمقاطعة ويلز الجنوبية الجديدة في أوستراليا، وعانت من جرائها آلاماً مبرحة وإحباطاً، فلم تكن ترغب في القراءة أو مشاهدة التلفزيون، لكن نظرها ظل أسير زخرفة الغرفة. فقد تألّق الجناح الذي ضم ١٨ سريراً بلوحات وستائر وأغطية ذات ألوان ناعمة ومناظرة بحرية خلابة. وتقول بات: "حملت إليّ ألوان اللوحات ونقوش القماش وعداً بغد أفضل، وساهمت كثيراً في شفائي."

وقعت بات لويس أسيرة كين دون، الفنان الاوسترالي الذي تسللت رسومه المرحة الطافحة بالحيوية والاشراق الى قلوب الملايين في أنحاء العالم.

نشأت ظاهرة كين دون عام ١٩٨٠ يوم تخلّى هذا الفنان عن صناعة الاعلانات وافتتح معرضه الخاص في سيدني حيث قام بحملة دعائية وزّع خلالها على رجال الاعلام قمصاناً بيضاء طُبعت عليها صور زرقاء لدار الاوبرا في سيدني، فنالت نجاحاً باهراً وجذبت اعلاميين آخرين. عندئذٍ قرر دون انتاج المزيد وبيعه.

لاقت هذه القمصان رواجاً كبيراً وانهالت الاتصالات على الفنان تطالبه بكميات أخرى. فاعتمد في خطوة ثانية



"خبّازى" (١٩٨٩). اكريليك على بطاقة، ٧٦ × ٥١ سم.

تصاميم من لوحاته طبعها على سراويل قصيرة وأكواب وقبّعات وبطاقات معايدة، فكان النجاح العظيم نصيبها جميعاً، ونفدت بسرعة من الأسواق. وأصبح فن دون بعد أحد عشر عاماً محور أعمال تجارية ناشطة تدرّ نحو ٥٠ مليون دولار سنوياً.

إن تفاؤل دون الجامح الطافح من شموسه الصفراء وشطآنه المتوهجة وحيوانات الكوالا المبتسمة انعكس على ملايين اللوازم اليومية وحوّلها تحفاً فنية.

يقول صديقه ريك هدلي (٣٠ عاماً) وهو مدرّس فنون في سيدني: "كين مؤمن بأن الفن لا يعلّق على الجدران فحسب بل يصلح لأن يكون في متناول المرء في جميع الاوقات. وقد تحوّل فنه وفق هذا المفهوم الجديد ظاهرةً فريدة."

وفي ما بعد أصبحت ألوان دون وتصاميمه المرحة علامة تجارية أبصرت النور في ماكلين، وهي مدينة صغيرة على الساحل الشمالي لمقاطعة ويلز الجنوبية الجديدة. ويقول دون: "عشتُ كصبي متشرد. كنت أذهب الى المدرسة حافي القدمين وسط أشجار الجكرندة، وأستيقظ قبل بزوغ الفجر، فأنزل الى نهر كلارنس لأنعم بسكونه قبل أن يفيق ويتدفّق خلال فترة الجزر."

استوحى دون نتاجه الفني الأول من

نهر كلارنس، وحصد ثماره، فنالت لوحة "مراكب صيد طافية على صفحة النهر" جائزة برنامج إذاعي تبثّه محطة «ABC». وتضافر تأثير النهر وتشجيع والديه اياه على المضي في هذا الدرب، فشغل الفتى أوقات فراغه برسم المناظر المحيطة به.

عندما أصبح كين دون تلميذاً ثانوياً، انتقلت عائلته الى سبرينغوود في "الجبال الزرقاء" في ويلز الجنوبية الجديدة. فانقطع عن دروس الفن باستثناء المقرَّر الوحيد الذي تؤمّنه مدرسة كاتومبا، وكان يسمى "صف الفرصة المتاحة" دلالة على استقطابه الأولاد غير الناجحين أكاديمياً. فانحدر مستوى تحصيل دون المتفوق، بملء ارادته، ليتسنّى له الانصراف الى الرسم. ولمّا بلغ السن الرابعة عشرة أتاحت له مواهبه دخول المدرسة الوطنية للفنون في كلية العلوم التقنية في سيدني. وعمل طوال أربع سنوات في محترف فني في المدينة. وسرعان ما اجتذبه المصمّم جون هولي، واستمر التعاون بينهما ثلاث سنوات عمل دون بعدها لحسابه الخاص.

عام ١٩٦٤ سافر دون الى نيويورك لزيارة أحد أصدقائه. وعنَّ له هناك أن يتصل بوكالة "ج. والتر طومسون" للاعلانات، فتلقّى عرض عمل مغرياً وأثبت كفايته خلال ستة أشهر. ثم سافر الى لندن وعاد منها ليلتحق بالوكالة مدير تصميم. وبعد فترة قصيرة تزوج جودي والكر، وهي منسّقة أزياء كان تعرّف اليها في سيدني قبل خمس سنوات.

قمصان واقمشة وأكواب وقرطاسية من تصميم دون الذي اطلق على تصاميم القماش اسم "كوالا فوق شجرة."

THE INK GROUP



"قرد وفنجان وليموز" (١٩٩٠). اكريليك على بطاقة، ٥١ سم × ٧٦ سم.

بذل دون في لندن جهوداً مثمرة وعُرف بابداعه وأفكاره الخلّاقة. ففي محاولة لترويج صنف من المشروب اقترح تصوير شريط دعائي تحت الماء، وهي فكرة مبتكرة، إلّا أن الوكالة خشيت المجازفة فتحفظت ازاءها. عندئذ، طلب دون من مديريه: "أمّنوا لي أجرة السفر الى جزر الكاريبي، وسأصطحب زوجتي موديلاً وأتحمّل بنفسي كل المصاريف الأخرى اذا لم ينجح المشروع."

ولقيت فكرته المستحدثة نجاحاً باهراً انعكس زيادة في المبيع والأرباح.

حصد دون خلال السنوات الخمس التالية عدة جوائز بما فيها جائزة "الأسَد الذهبي" في مهرجان كان.

وذات يوم، زار في لندن معرضاً للوحات الرسام الانطباعي الفرنسي هنري ماتيس، فافتتن بألوانها البرّاقة التي بدت "كالتطلّع الى الشمس والتنزه في حديقة." فترك المعرض في نفسه أثراً عميقاً، حتى انه غادره متوجّهاً مباشرةً الى مكتبه مقرّراً أن يرفع في وسطه جداراً فاصلاً يبقي نصفه مكتباً ويجعل نصفه محترفاً.

عاد دون الى سيدني عام ١٩٦٩. وكان، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، يتربّع على عرش حياة مهنية ناجحة في مجال الاعلان ويملي شروطه. وكان استمرّ في العمل لحساب الوكالة وخصص يوم الاثنين للرسم.

بعد بضع سنوات أسرّ دون الى زوجته برغبته الحقيقية فيما كانا مستلقيين على شاطىء نوميا: "الرسم هو جلّ مبتغاي."
فردت جودي: "إذاً، انصرف الى الرسم."

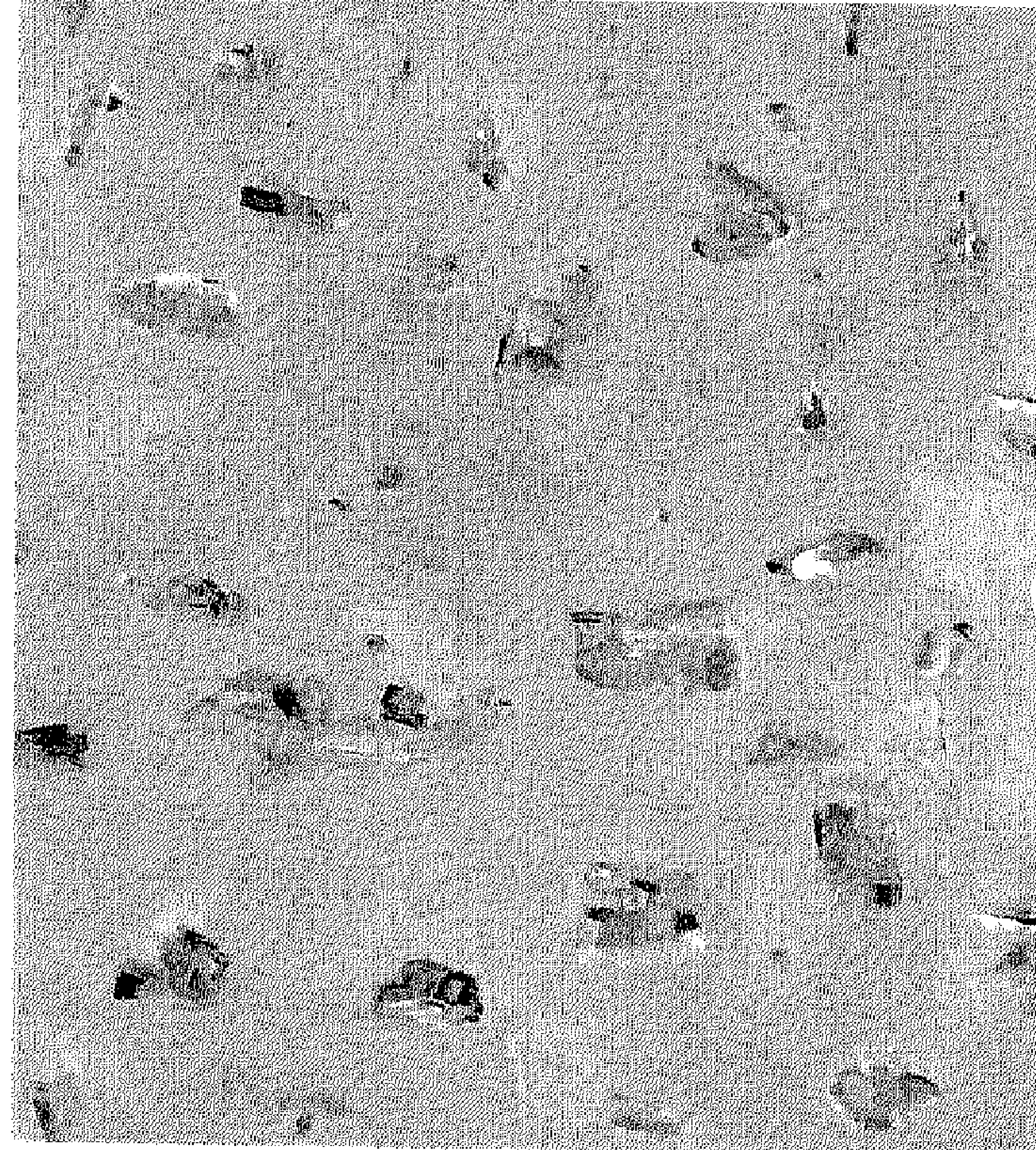
فقفل عائداً الى سيدني وترك وظيفته لينصرف الى الرسم والعمل الحر. وعام ١٩٧٩ قرّر المجازفة، فتفرّغ لفنه كلياً وحجز مواعيد في معارض هولدسوورث ليعرض لوحاته التي سيرسمها خلال ١٢ شهراً. واستأجر على شاطىء شاينمان كوخاً خشبياً يطلّ على مرفأ سيدني. فكانت الشرارة الاولى لعلاقة عاطفية مع المناظر الخلابة المحيطة به، فأسرها تكراراً على قماشات رسم: أزهار شاعرية زرقاء أو صفراء، ومراكب متهادية فوق زرقة فيروزية، وأجسام برونزية ممددة على الشاطىء. وقد تبدو في الصور أنابيب أصباغ أو زهرية أو قنينة أو آلة تسجيل تصدح بألوان زاهية.

أقام دون معرضه الأول عام ١٩٨٠، فتجاهله النقاد. ولمّا كان يأبى طرق الأبواب لترويج رسومه، فقد افتتح معرضه الخاص "غاليري المخرجين الفنيين" محضّراً لهذه المناسبة أول دزينة من القمصان. عندئذٍ أبصرت امبراطوريته النور.

لكن النجاح التجاري الذي حقّقه حمل زملاءه في عالم الفن الاوسترالي على نبذه. ويقول جيريمي بولمور زميله السابق العامل في حقل الاعلانات: "يفترض في الفنانين أن يكونوا إما فقراء معدمين واما ثملين، ومن المستحسن أن يكونوا الاثنين معاً. ولكن بما أن دون لا يعاني أيا من الحالين، فمن الواضح أنه لا يمكن أن يكون رساماً كبيراً."

تباع ثلاثة أرباع لوحات دون "ما وراء البحار"، وتُباع الأصلية منها بخمسة آلاف دولار أو أكثر، ويتسابق عليها الهواة.

من جهة أخرى، عمد رؤساء تحرير مجلة "هاناكو" اليابانية



"الشاطىء المربّع" (١٩٩٠). أكريليك على كنفا. ١٥٠ سم × ١٥٠ سم.

الى تكليف دون تصميم غلافات أعدادها الـ١٢٥ الاخيرة. وتُباع تصاميم دون في طوكيو وحدها في ١٦ متجراً. يقول دون: "يسألني اليابانيون عن إحساسي وأنا أمزج درجتين من اللون الازرق، بدلا من أن يسألوني عن المواد التي أستعملها."

حاليا، يقع مقرّ كين دون في مستودع كبير في ريدفرن، وهي مدينة قريبة من سيدني. وقد حُوّل هذا المستودع ليتلاءم ونشاطات الانتاج. إذ يعمل فيه ٥٠ موظفاً يحضّرون القمصان والملبوسات لأربعة عشر متجراً في أنحاء أوستراليا.

ويمضي دون ٩٠ في المئة من وقته في الرسم، فيما يوكل الى جودي أعمال التصميم. لكنّ النجاح لم يغيّره، بحسب إفادات أصدقائه. ويعتقد بول أتروشنكو وهو محاضر في كلية الفنون الجميلة في سيدني أن "دون يعي قيمته تماماً لكنه لم يفقد تواضعه."

إن اختراعه "الفن الملبوس" عرّضه لتعليقات ساخرة من الصحافة الاوسترالية، لكن ذلك لم ينل من إعجاب الملايين بفنّه. وقد كتب اليه أحدهم: "أنا فنان جدّي، تلقيت إعداداً أكاديمياً في الرسم الزيتي، وتلقى أعمالي استحسان البعض، لكن أعمالك أنت تمنح الملايين فرحاً وأملاً ونظرة منعشة الى العالم."

فيونا ماكمولن ■



شرطي متفائل

حين تخرّج ابننا في معهد الشرطة اهدينا اليه تمثالا صغيراً من معدن يمثل رجل شرطة. وما هي الا أيام حتى أهدى اليه صديقنا نعيم تمثالا مماثلا.

خيل الي للحظة أن ابني سينزعج لتلقيه هديتين متشابهتين. اما هو فهتف مبتهجاً: "انظروا! هذا نعيم يرسل الي شرطياً للدعم."

إ. هـ.

غلطة شاطر

بعد يوم عمل مضنٍ رأى المدير ان يوصل مساعِدته الى منزلها في سيارته تعبيراً عن تقديره. وهو لم يخبر زوجته الغيورة ببادرته لئلا يثير شكوكها.

وفي الليلة ذاتها توجه مع زوجته في السيارة الى سهرة في بيت اصدقاء، فلمح فردة حذاء نسائي تحت المقعد الأيمن. فتحين فرصة تطلع زوجته خارجاً وخطف فردة الحذاء ورماها من نافذته.

وعندما وصلا الى مقصدهما راى زوجته تتلفّت حول مقعدها، ثم سالته: "هل رأيتَ فردة حذائي يا عزيزي؟"

ج.ف.

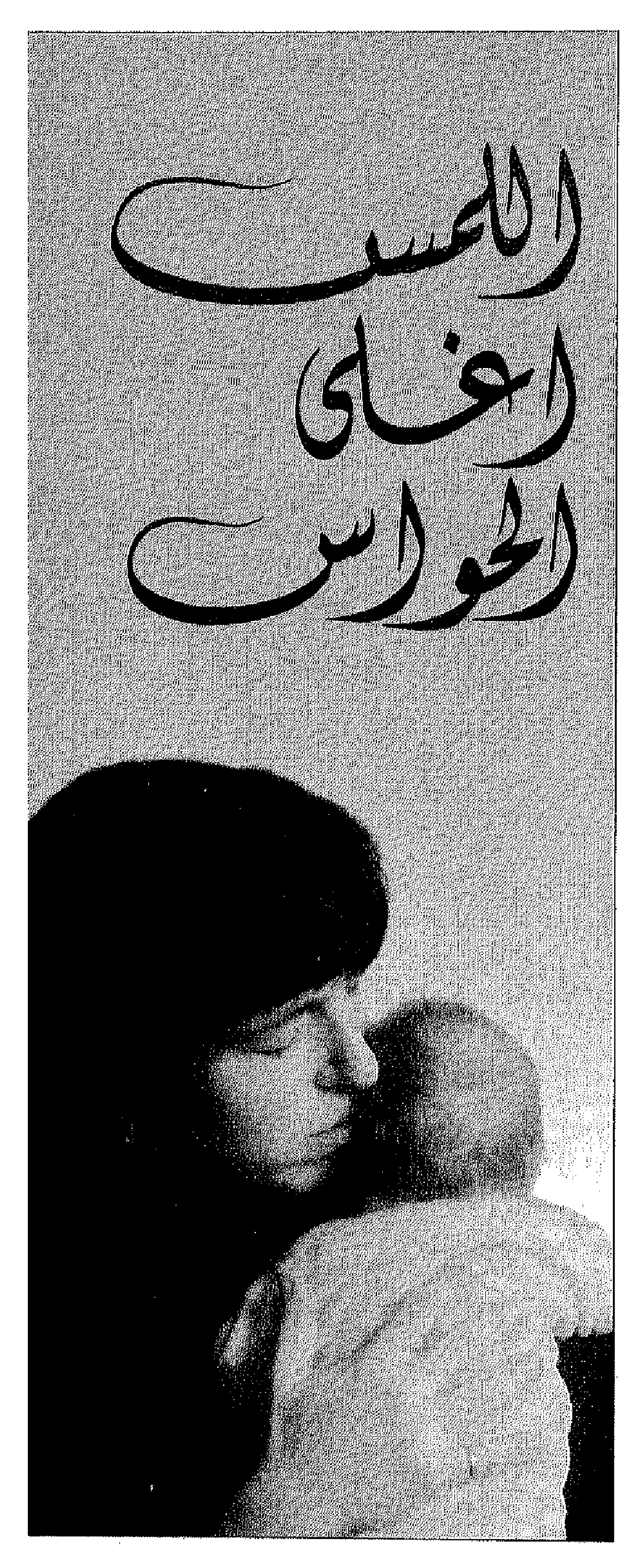


PHOTO: © ROBERTT WOLF

هل اغتسلتم بماء ساخن من دون أن تتحسسوه؟ وهل نزلتم سلّماً معتمة من دون لمس؟

□ عندما يضع العالم النفساني مايكل ميني طفله في الفراش وقت النوم يلفّ اللحاف حوله ويطبع على جبينه قبلة. فقد دلّت أبحاثه على الحيوانات أن الملاطفة باللمس في مرحلة الطفولة قد تؤدّي في مرحلة البلوغ الى جعل خلايا الدماغ أكثر عافية والذاكرة أكثر صفاء كما قد تخفض مشاكل الشيخوخة.

□ في أحد المستشفيات صفوف من المحاضن[1] داخلها أطفال خدّج (مولودون قبل أوانهم). وجميعهم يُعطون الطعام ذاته، إلّا أن الذين يجرى تدليكهم يومياً يزداد وزنهم ويتحسن نموهم العقلي أكثر من أولئك الذين لا يلقون هذه المعاملة.

□ يُطلب من المتسوّقين في أحد المتاجر الكبرى تذوّق نوع جديد من البيتزا. والمتسوقون الذين يُلمسون أثناء تبادل حديث الترويج، وإن لجزء من الثانية، يستجيبون غالباً فيشترون البيتزا الجديدة.

اللمس هو أول حاسّة ننميها، ونحن نكتسبها قبل أن نولد ولا حياة لنا من دونها. فهلّا تصورتم أنفسكم عاجزين عن تحسّس خطر الماء الغالي أو مضطرين الى نزول سلّم معتمة من دون لمس؟ ثمة اعتقاد غالب أن النظر هو الحاسة الأهم

(١) Incubators

لدينا. لكننا نغمض أعيننا للنوم فترة تعادل ثلث يومنا. أما احساسنا فلا يغيب عنا اطلاقاً، فنظل واعين ما يحيط بنا في العالم.

لقد اكتشف العلماء أن اللمس يكيّف عقولنا وصحتنا. وأجرى الدكتور سول شانبرغ أستاذ علم العقاقير والطب النفساني البيولوجي في جامعة ديوك في دورهام بكارولينا الشمالية، دراسة على الجرذان الصغيرة. فوجد أنها حين تُفصل عن أُمّاتها ٤٥ دقيقة تنتابها تغيرات داخلية تؤدي الى انخفاض شديد في مستوى هرمون النمو ومستوى أحد الأنـزيمات الـرئيسيـة، لكن هـذين المستويين يعودان الى طبيعتهما بعد إرجاع الأم الى جحرها. فافتقار الجراء الى لمس أمها أحدث لديها تلك التغيّرات الكيميائية البيولوجية. ولكن حين مُسّدت هذه الجرذان الصغيرة بفرشاة طلاء مبلّلة، عادت أيضاً الى حالتها الطبيعية.

حاسة الام. يولد ملايين الاطفال الخدج سنوياً، إلّا أن كثيرين منهم يعجزون عن النمو أو عن البقاء. لذا، بالتعاون مع شانبرغ وبتوجيه من العالمة النفسانية تيفاني فيلد، بدأ الباحثون في معهد أبحاث اللمس في كلية الطب بجامعة ميامي اخضاع الأطفال الخدّج لتدليك يومي مدته ٤٥ دقيقة. وكانت القاعدة الطبية تقضي سابقاً بابقاء هؤلاء الاطفال معزولين في محيط مماثل للرحم حيث لا يُلمسون باعتبار أن اللمس يشكّل إجهاداً لهم ويفقدهم فرص البقاء على قيد الحياة. لكن فيلد ومساعديها قاموا بتجربة على ٢٠ من الأطفال الخدج الذين استقرت حالهم، فأجروا لهم تدليكاً بطيئاً مع تحريك أطرافهم ثلاث مرات يوميا لفترة ١٥ دقيقة كل مرّة.

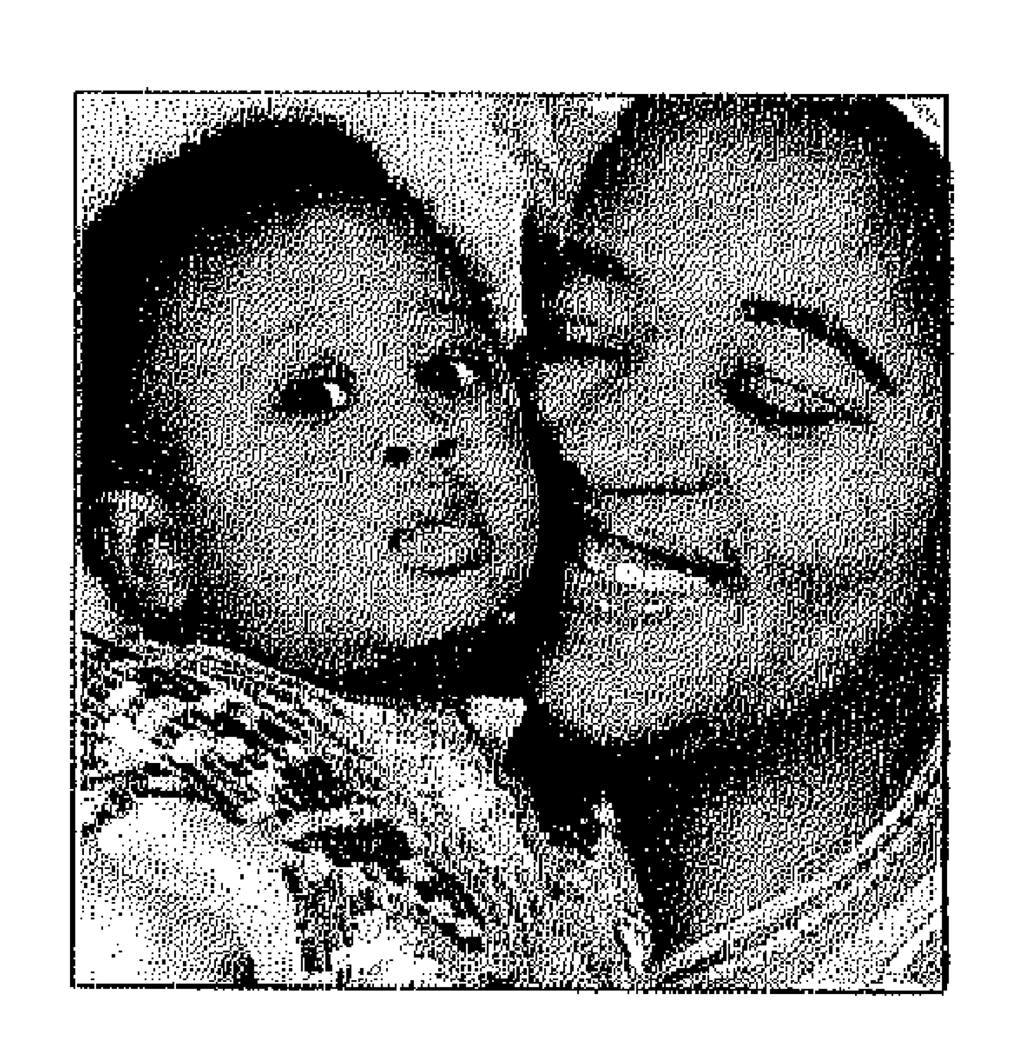


وبعد عشرة أيام تبيّن أن الذين دُلّكت أجسادهم زاد وزنهم أكثر من رفاقهم بنسبة ٤٧ في المئة. كما ظهر تحسن في نومهم وتيقّظهم ونشاطهم. وأظهـروا لاحقاً، طوال ثمانية أشهر من المتابعة، مهارات عقلية وجسدية أكبر. والأمر الاكثر إثارة هو أن الاطفال الذين مُسّدت أجسادهم غادروا غرفة العناية المركزة قبل ستة أيام، في المتوسط، من أولئك الذين فاتهم التمسيد. وتعلّل فيلد ذلك بكون اللمس ينشّط بعض الهرمونات التي تظهر طبيعياً لدى الاطفال الذين يولدون بعد فترة حمل كاملة، ومنها تلك التي تسهّل امتصاص الطعام.

وبحسب الدكتور رونالد بار من مستشفى الاولاد في مونريال، فإن الأطفال الامريكيين تحملهم أمهاتهم من ساعتين الى ثلاث ساعات في اليوم. وفي

بعض المجتمعات القبلية الافريقية تحمل الأمهات مواليدهنّ نحو ٩٠ في المئة من الوقت. الى ذلك تضيف كاثرين برنار أستاذة التمريض في جامعة واشنطن أن "ثمة ٨٠ في المئة من اتصالات الطفل تتمّ من خلال حركات جسمه، والتصاق الجلد بالجلد يسهّل قدرة الأم على قراءة تلك الاتصالات." وكلما زاد حمل الأم طفلها ازداد إدراكها لحاجاته.

فاللمس يلبّي حاجات تتعدّى تأمين الطمأنينة والسلامة. فقد اكتشف العلماء أن الاطفال حين يضعون لعبة أو خشخاشة في أفواههم لا يفعلون ذلك في محاولة لتذوّقها فحسب، فهم يستخدمون شفاههم وألسنتهم، التي هي أكثر مناطق اللمس حساسية، لاستجلاء ما يشاهدونه بأعينهم. فاثبات بُعد محيطهم وشكله وقساوته باللمس يساعدهم على تنمية حواس أخر، كالنظر.



وحتى إن بلغنا سن الرشد، فنادراً ما نقبل الفكرة القائلة ان "في النظر التصديق." فنتكلم بدلاً من ذلك على تفضيلنا الأشياء التي يمكننا "إمساكها"، أشياء "ملموسة، حقيقية."

ويختلف العالم الذي ندركه باللمس عن ذلك الذي نبصره بأعيننا. ضع عصابة على عينيك ودع أحد أصدقائك يجسّ جلدك بقطع مختلفة الأشكال من الكعك. الشخص العادي يمكنه أن يتعرف الى أقل من نصف الأشكال التي مسّت جلده. ولكن اذا أتيح لك لمس كل قطعة من الكعك باصبعك ارتفعت نسبة تعرفك الى هذه الاشكال الى ٩٥ في المئة.



لمسة ورسالة. ان نسبة اللمس هي الاعلى في الفترة التي تسبق دخول المدرسة. وينخفض اللمس الى أدنى مستوياته في أوائل سني المراهقة أو في منتصفها.

ويقول فرانك ويليس أستاذ علم النفس في جامعة ميسوري: "عندما أجرينا دراسة على الأزواج في الأماكن العامة، لاحظنا أن الرجل هو الذي يبادر الى لمس المرأة قبل الزواج. أما بعد الزواج فالمرأة هي التي تلمس الرجل أولاً في معظم الاحيان."

وعموما، يشعر الناجحون والواثقون بأنفسهم بحرية في اللمس أكثر من الخجولين المتردّدين. وفي الحياة اليومية



تعتمد النساء اللمس ويتقبلنه أكثر كثيراً من الرجال، وهنّ أكثر حساسية حياله في أنحاء أجسامهن، من رؤوس أصابعهن الى أخامص أقدامهنّ. أما الرجال فيردّون على اللمس المفاجىء بشيء من التوتر، إذ غالباً ما يرون فيه هيمنة عليهم او إثارة لحساسيتهم.

وقد يُساء فهم بَعض رسائل اللمس. فلمسة خفيفة للكتف أو المرفق أو اليد تعني عادة الصداقة. ولكن حين يلمسك شخص من الجنس الآخر، فهل تعني هذه اللمسة صداقة؟ أم تكون مبطّنة بالاغراء؟ أم تكون بقصد المضايقة؟

غير أن اللمسة المتريّثة على اليد أو الوجه أو العنق تعني، على الأرجح، أكثر من ذلك. فتربيت الرأس قد يدلّ على رغبة في فرض الرعاية، كأنك بذلك تقول: "أنا هو الرجل الراشد، وأنت الولد القاصر."

حتى إن لغياب الاحساس باللمس تأثيراً نفسانياً قوياً. فقد تبيّن لويليس أن ثمة عدداً أكبر من المتسوّقين الذين يُطلب منهم تذوّق نوع جديد من البيتزا، أو من المارة الذين يُطلب منهم التوقيع على عريضة، استجاب لدى لمسه بخفّة وإن لجزء من الثانية. واكتشف باحثون آخرون أن اللمسة العابرة الخاطفة تدرّ زيادة في الاكراميات المعطاة لندل المطاعم. يقول ويليس: "ان الابحاث الحديثة التي تتناول تصرّفنا غير المشفوع بالكلام، تعبر عما عرفه الباعة الناجحون منذ وقت طويل: أن لمسة خفيفة منك تقنع الزبائن غالباً بأنك ودود وصديق حقاً."



قوة شافية. يشير بعض الباحثين الى أن اللمس قد ينطوي على قوة شافية للبالغين كما للأطفال والأولاد. فلمس الأحبّاء والممرضات لنزلاء المستشفيات قد يفرّج عنهم القلق والتوتر وآلام الصداع. كما قد يخفض اللمس سرعة نبض القلب وعدم انتظامه. وتقول الممرضة ريتا كنغ من كاليفورنيا: "إن الاتصال البشري يجعل الناس يشعرون بحال أفضل وبمزيد من الطمأنينة والامان. فهو ذو تأثير مهدّىء. كما أن الشفاء يتمّ على نحو أسرع حين يشعر المريض بأن ثمة من يوليه العناية الصحيحة."

فهل يساعد اللمس على شفاء بعض العلل أيضاً؟

اكتشف مايكل ميني من مركز الابحاث في مستشفى دوغلاس في جامعة ماكغيل بمونريال، أن الجرذان الصغيرة حين تحظى برعاية خلال الاسابيع الثلاثة الأولى من حياتها، تشهد نمو خلايا حسية إضافية متقبّلة[٢] تضبط انتاج الغلوكوكورتيكويد[٣] وهذه مواد إجهاد كيميائية قوية وفاعلة قد تسبّب تقلّص العضل وفقدان الحساسية تجاه الانسولين وارتفاع ضغط الدم ومعدل الكولسترول. وتعطيل نمو خلايا الدماغ وتلفها.

فالمتقبلات التي أُنتجت من طريق اللمس في مرحلة الطفولة بقيت طوال حياة الجرذان. وعندما اعترضتها مشاكل وضغوط أصبحت أقدر على خفض انتاجها من الغلوكوكورتيكويد الى المستويات الطبيعية. وفي الاوضاع الخالية من الضغوط أنتجت الجرذان المحظية مقادير من الغلوكوكورتيكويد أقل من تلك التي أنتجتها تلك التي لم تلق رعاية.

واكتشف ميني أن الجرذان التي لم تُلمس في صغرها أصيبت بفقدان الذاكرة وبتلف في الدماغ من جراء التعرض للغلوكوكورتيكويد. أما تلك التي حظيت برعاية وهي صغيرة فأصيبت بتلف أخف كثيراً في الدماغ بفعل الضغط، ولم تفقد ذاكرتها في مرحلة الشيخوخة. وكانت خلاصة أبحاث ميني وزملائه التي نُشرت في مجلة "ساينس" حصول "تأخير فعلي لمعالم الشيخوخة."

ولأدمغة البشر، في ما يتعلق بالغلوكوكورتيكويد، الكيمياء والخلايا الحسية المتقبلة الموجودة لدى الجرذان، ويبدو محتملاً أن تكون استجابتنا للرعاية التي نلقاها في طفولتنا مماثلة.



وُلد أول طفل لميني فيما هو مكبّ على أبحاثه. وهو يقول: "إنني أُشبع ابني ضماً وتقبيلاً أكثر مما لو وُلد قبل هذه الاكتشافات. ودلائلنا تشير الى أن ضمه وتقبيله حالياً سيساعده على تذكّر ملامح وجهي وعلى عيش حياة أكثر سعادة وعافية. إن لمسي اياه اليوم قد يطبع مستقبله."

لويل بونتي ■

(٢) Receptors
(٣) Glucocorticoid

همس احدهم للعروسين: "اذا شئتما ألا ينساكما الناس، فلا تكتبا بطاقات شكر على هدايا الزواج."

ا.ر.

يتنقل هذا المغامر بين جزر المحيط الهادىء لانقاذ السفن الجانحة



"أوشين روفر" أحدث سفن ايان لوكلي راسية في غلادستون.

جنحت الناقلة العملاقة "أنرو آسيا" على شاطىء صنشاين بالقرب من بريزبين في أوستراليا، وراحت تتحطّم تحت وطأة الأمواج المتكسّرة والرياح العاتية والامطار الغزيرة. كان طولها ١٨٢ متراً، وهي ضربت الشاطىء بعنف فانهارت حجيراتها وتداعت الجدران ودعامات الهيكل.

انها أغلى حطام بحري عرفته أوستراليا. وها هو منقذ السفن الغريقة ايان لوكلي يسير على متنها مخوضاً في الماء بجزمته متحسساً قوة الامواج.

كان عقد العمل معه ينصّ على أن "لا أجر بلا إنقاذ." لكن لوكلي راهن على نجاحه بتعويم السفينة الغارقة مجازفاً بكل ما يملكه: منزله وزورقه وسيارته. وفي

PHOTOS: AVRILLE WILLIAMS

غضون أربعة أيام عصيبة صرف نحو مليون دولار على طوافات ومراس وزوارق قطر ومجموعة اختصاصيين شملت مهندسين بحريين ومهندسي كمبيوتر. كانت الخطة تقضي بانتشال السفينة بعد بضعة أيام حين يبلغ المدّ أعلى ارتفاعه، أما الآن فالعاصفة ما زالت على أشدها تهدد السفينة بكارثة مدمرة.

اتصل لوكلي بغرفة المحرّكات طالبا: "أعطوني أقصى الطاقة التي يولّدها المحرّك، ولنسحبها الى الشاطىء."

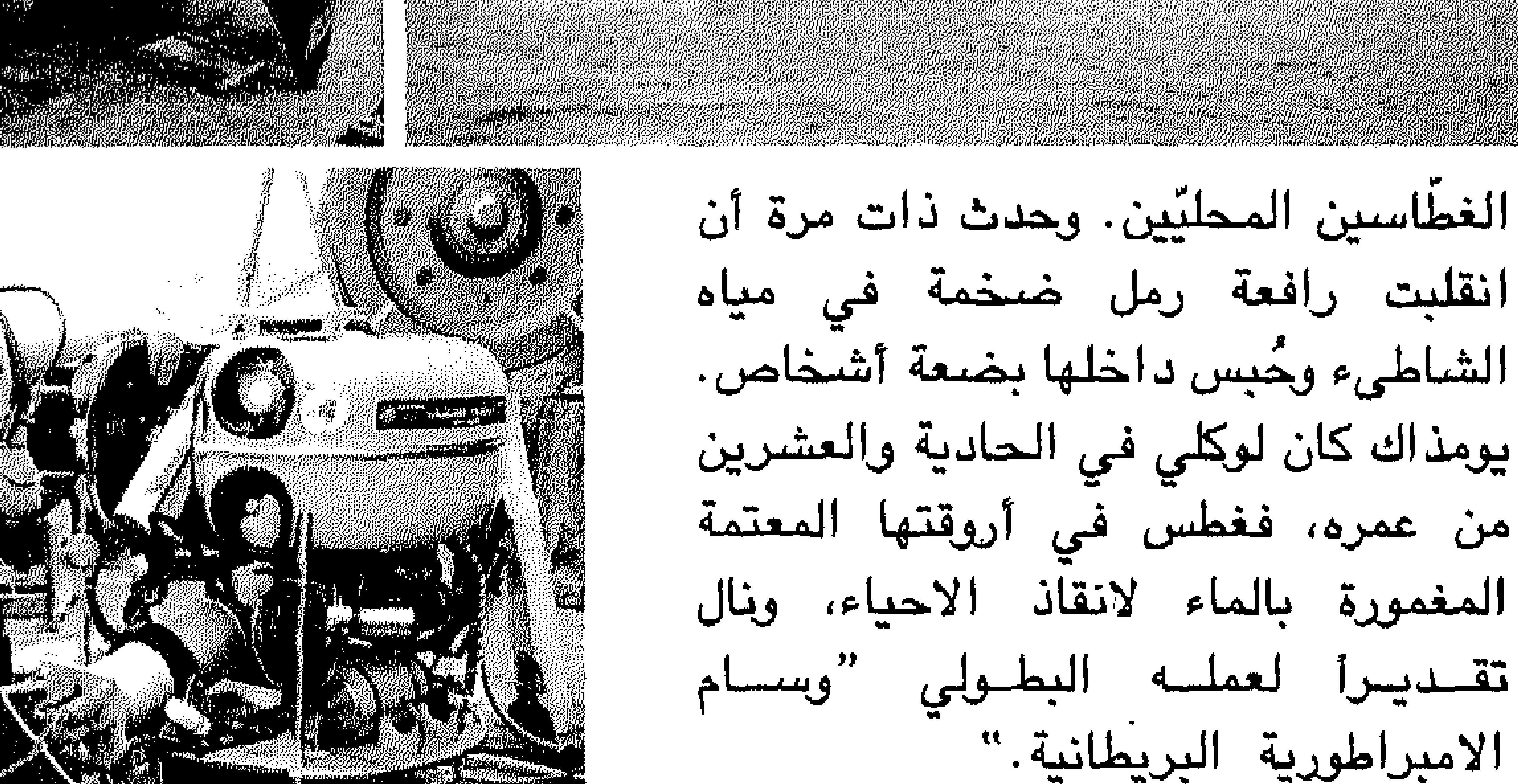
هدر المحرّك الذي تبلغ قوته ١٨ ألف حصان ونفث الداسر (المسيِّر) نافورة ماء مهّدت الأمواج ودفعت السفينة صعوداً بضعة سنتيمترات، مرة بعد مرة، في اتجاه الشاطىء. سحق ثقلها البالغ ٣٣٥٠٠ طن حَيْد الصخور الرملية قرب سطح الماء، وجثم قعرها في حفرة مغمورة بالماء، فثبتت بسلام وأصبحت الأنواء عاجزة عن التلاعب بها. ثم انقضى يومان آخران وارتفع المدّ فجرَّتها خمسة زوارق قطر وعوَّمتها وسحبتها الى مرسى أمان.

إن انتشال سفينة جانحة وسط عواصف هوجاء ليس أمراً خارجا على المألوف في مهنة مهندس مغامر يعيش حياة محفوفة بالأخطار. فقد أشرف لوكلي على انقاذ نحو مئة سفينة من حيود صخرية وشواطىء. وحين يسلِّم مالكو السفن بعجزهم عن القيام بأي شيء، ينبري في البحار الجنوبية سيّد انقاذ يحقق ما يعجز عنه الآخرون.

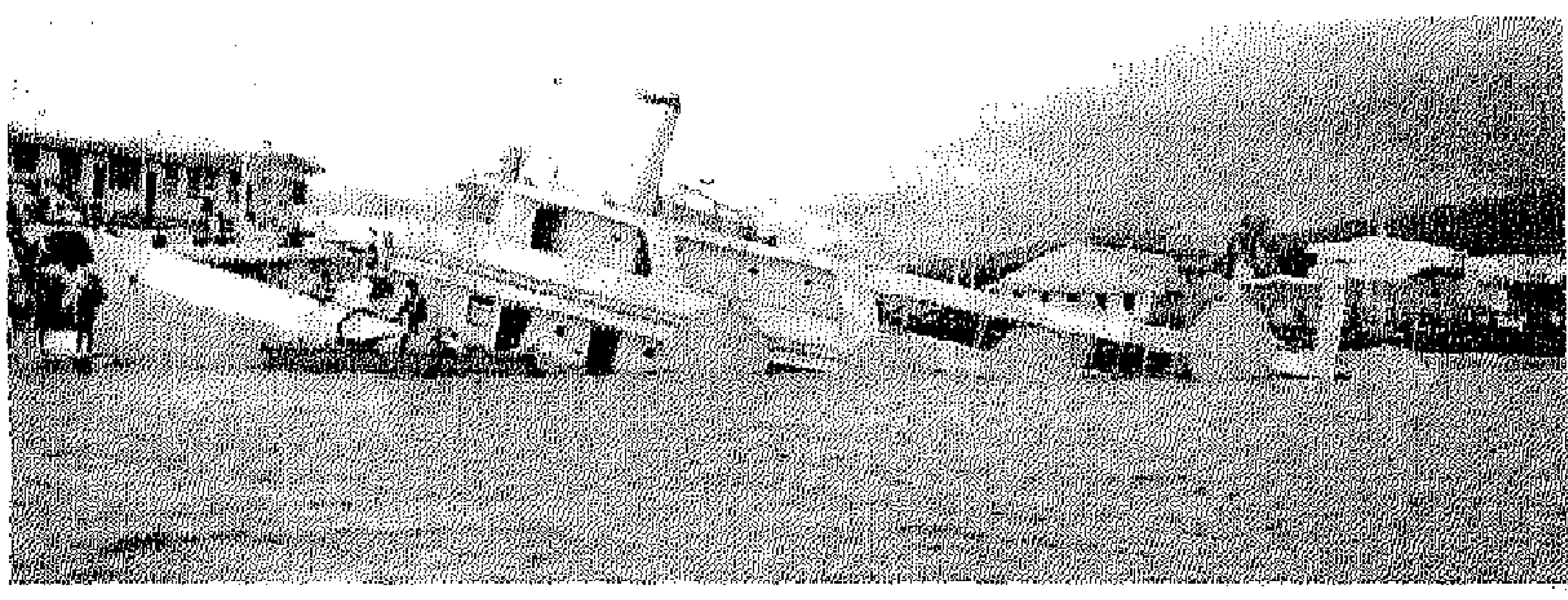
أفكار مبتكرة. وُلد لوكلي، الذي يبلغ الخمسين من العمر، في كوينزلاند. وهو رجل فارع الطول له لحية وخطها الشيب، تنبىء طلعته بمغامر جريء متباه. ووسط الأمواج الهادرة المتكسّرة يشرف على إدارة الآلات والمحرّكات الضخمة التي تولد طاقات من ألوف الأحصنة بمهارة وثقة كأنه سائق شاحنة قاطرة تنتشل سيارة من حفرة. ومهما تكن المهمة شاقة ومثبطة للعزائم، فان الابتسامة العذبة المشرقة تكاد لا تفارق ثغره تحت نظارتيه اللامعتين وقبعته الحمراء الباهتة اللون بفعل أشعة الشمس.

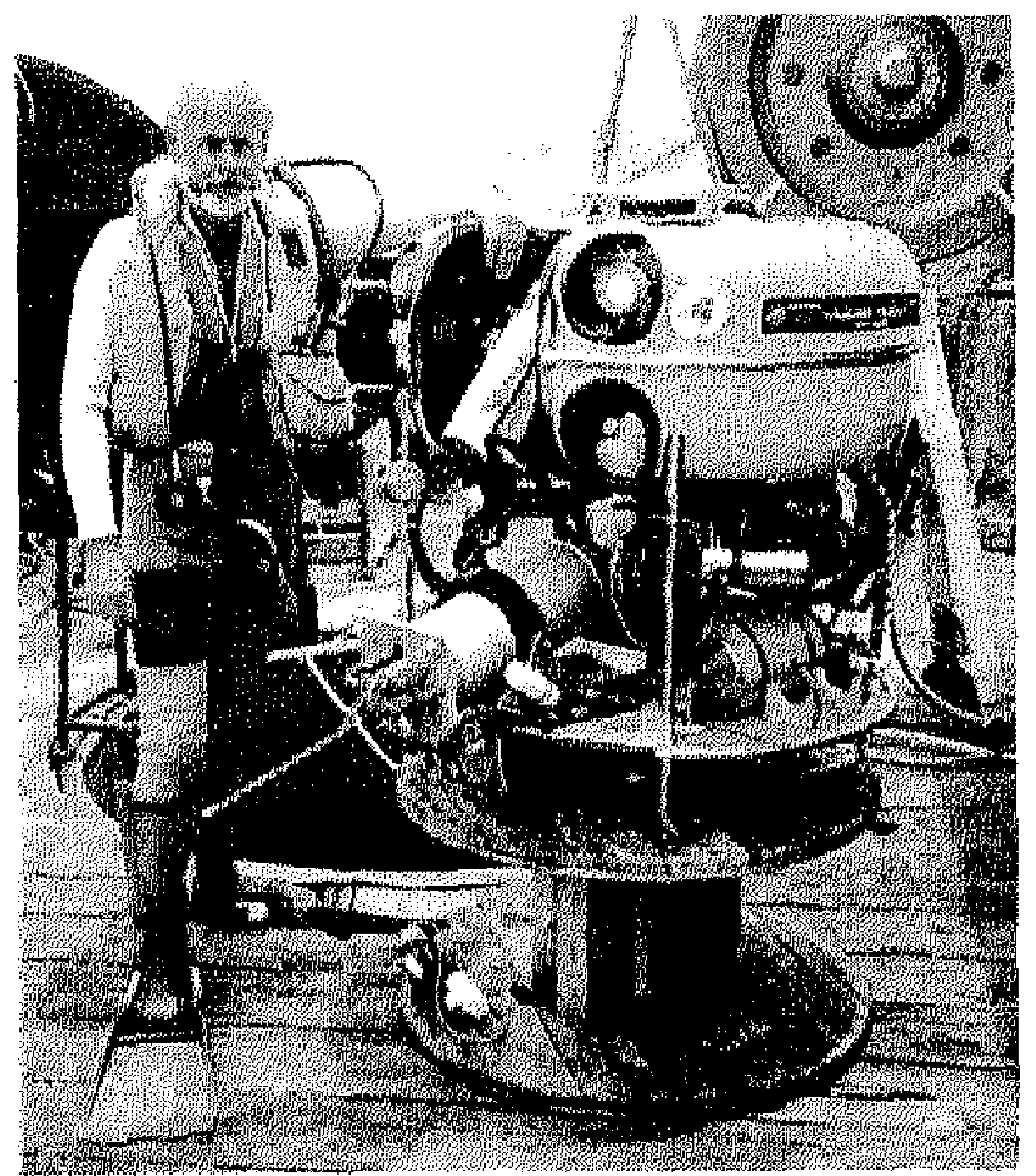
ولوكلي ربّ عائلة عطوف ومهندس حذر. فهو لا يلعب الورق (الكوتشينة) ولا يراهن على حصان أو ورقة يانصيب. لكنه يحسب بدقة أخطاراً هائلة ويخوض غمار تحدّيات مهنية عظيمة مستخدماً كل ما يؤول الى إنجاح مشروعه من أقمار اصطناعية تساعده في استكشاف الحطام الى أجهزة هاتف مكبّرة للصوت تحت سطح الماء.

في طفولته، كانت أمه تجده منبطحاً على وجهه في حوض الحمام فلا تدري أهو ميت أم انه يمارس تمريناً في الغطس. وفي الخامسة عشرة من عمره ابتكر مع رفيقه نيفيل غاريك جهاز غطس سار به في قعر نهر بريزبين قرب منزله، وكان مصنوعاً من تنكة كاز فارغة ومنفاخ إطارات وخرطوم مياه. ولاحقا، اشتغل خرّاطاً متمرّناً في اصلاح الجرّافات. لكنه كان يعمل في نهاية الاسبوع مع أحد



(الى اليسار) لوكلي يعرض اللاقط الهيدروليكي على رافعة الاعماق. (الى اليمين) استخدم لوكلي رافعات جبّارة لتعويم هذه السفينة التي أغرقها إعصار في لوتوكا (فيجي). (تحت) أحد الغطاسين يقف الى جانبِ "روبوت" بحري يمسك بهياكل السفن الجانحة ويثبتها للتمكين من القيام بأعمال الثقب والولوج.





الغطّاسين المحليّين. وحدث ذات مرة أن انقلبت رافعة رمل ضخمة في مياه الشاطىء وحُبس داخلها بضعة أشخاص. يومذاك كان لوكلي في الحادية والعشرين من عمره، فغطس في أروقتها المعتمة المغمورة بالماء لانقاذ الاحياء، ونال تقديراً لعمله البطولي "وسام الامبراطورية البريطانية."

عام ١٩٦٧ عمل ايان مهندساً في سفينة استطلاع، فجال في جنوب المحيط الهادىء وكان يمارس الغطس في أوقات فراغه. فعثر على حطام سفينة شحن بالقرب من جزيرة فاتوا في فيجي. ورأى سبائك من الألومنيوم خارجة من السفينة. كان معظم الغطاسين اعتبروا هذه السبائك خردة لا قيمة لها، أما ايان فقدّر أن كلاً منها تساوي ٢٠ دولاراً.

في أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٩ أجرى غطساً استكشافياً الى السفينة ووقّع عقداً مع مالكيها لانقاذها. ثم جمع مع نيفيل غاريك ما لديهما من مال لشراء زورق قطر، واستدان بقية المبلغ المطلوب من مصرف. وكان ايان أطلع مدير المصرف في بريزبين على صورة سبيكة ألومنيوم قائلاً له: "يمكنني الحصول على ألوف من هذه السبائك. فهلّا أقرضتني المال اللازم؟" وهكذا تيسّر لايان ونيفيل في يوليو (تموز) ١٩٧٠ شراء الزورق "سلمار" الذي يبلغ طوله ١٣،٧ متراً.

ثم أمضى ايان ونيفيل أربعة أشهر يمارسان الغطس في أماكن مختلفة. وفي

PHOTOS: IAN LOCKLEY

نوفمبر (تشرين الثاني) انطلقا في الزورق قاصدَيْن السفينة الجانحة وسبائك الالومنيوم، فيما سافرت زوجتاهما مع كيرستين ابنة ايان، الى جزيرة فيجي.

كان "سلمار" يحتاج الى مراسٍ وسلاسل اضافية لانتشال السبائك. فتوقف الملاحان عند حَيْد بحري قبالة ناغو، إحدى جزر فيجي، حيث عثرا على حطام انتزعا منه ما ينقصهما من معدات. وصادفا بالقرب منهما فريق انقاذ كان يحاول انتشال زورق صيد كوري. فاقترح ايان على الفريق ادارة مقدّم الزورق الغارق في مواجهة الأمواج المتقدّمة الى الشاطىء، فبذلك تساعد الأمواج على رفع المركب بدلاً من أن تتكسّر فوقه وتحطمه. ونجحت الفكرة، فعام الزورق وقبض ايان ونيفيل حصتهما التي بلغت ٢٤ ألف دولار جاءتهما هبة سعيدة غير متوقعة.

تمكّن ايان ونيفيل من انتشال ١١٠ أطنان من سبائك الألومنيوم وقيمتها ٥٢ ألف دولار مع داسرين احتياطيين تبلغ قيمتهما ٢٣ ألف دولار.

وعلم ايان من السكان المحليين أن ثمة حطاماً في بحيرة ضحلة قريبة. فتفحص الحطام واكتشف داسراً برونزياً ملقى في المياه الضحلة يصعب انتشاله. فمزج بعض المتفجرات وصنع منها قنبلة وضعها تحت الداسر وفجّرها. فطار الداسر في الهواء وسقط في المياه العميقة. عندئذ تمّ انتشاله وبيع خردة بمبلغ ٦٠٠٠ دولار.

ولحقت بيتي بزوجها ايان ومعها طفلتهما كيرستين. وسكنا في منزل في سوفا عاصمة فيجي أصبح قاعدة لعمليات الانقاذ. وبعد سنة، اشترى ايان حصة غاريك في الشركة.

"انتظِروا النهر!" في مياه المحيط الهادىء حيث تنتثر الجزر المرجانية المزدانة بشجر النخيل كلآلىء على سجادة خضراء، عمل ايان في إنقاذ السفن الجانحة المهدَّدة بالغرق. فكان يلبّي نداءات الاستغاثة في أي وقت تأتيه من الأماكن البعيدة. وكان ينام والخرائط البحرية ملصقة على الستائر الى جانب فراشه. وما إن يبلغه النداء حتى ينهض، وفي أقل من ساعتين يكون هيّأ معدّاته وانطلق في مغامرة بين الجزر الجميلة الخطرة. ذات مرة صرّحت زوجته بيتي: "الأمر بالنسبة إليّ أصعب من الزواج باطفائي. فما ان يرنّ الهاتف حتى ينهض ايان ويرحل، وقد يمرّ شهران قبل أن أراه ثانية."

في بابوا نيو غينيا اشترى ايان في إحدى رحلاته مركباً جانحاً على الشاطىء. وحين صعد الى متنه تصدّى له تاجر محلي شاهراً عليه مسدساً ومعلناً حقّه في ملكية المركب. فأذعن له ايان، لكنه أبلغ الحادث الى الشرطة في بورت موريسبي، فاعتُقل القرصان في الميناء واستعاد ايان الزورق.

وفي حادث آخر، بعدما عاين ايان مركباً جانحاً في جزيرة تاراوا المرجانية، ركب طائرة صغيرة عائداً الى سوفا. وبعد


أعضاء فريق الانقاذ يعرضون سبائك زنك انتشلت من حطام إحدى سفن الشحن.

دقائق اكتشف ربان الطائرة أن سكانا محليين سحبوا الوقود من خزّان الطائرة لتزويد دراجاتهم النارية. فاضطر الى هبوط طارىء على قطعة أرض ضيّقة وقد فرغ الخزان من الوقود تماماً.

وفي غمار إعصار بحري هبَّ على جزيرة فيجي جُرف مركب كبير الى طريق مطار نوسوري. ولرفع المركب، اقترح الخبراء تقطيعه ونقل القطع الى الشاطىء حيث يعاد جمعها. لكنَّ ايان استأجر جرّافتين وانتظر في المطار مترقبا فيضان النهر المجاور. وحين فاض النهر عام المركب فقطره ايان الى مرساه على غير علم من المسؤولين. وفي صباح اليوم التالي بلغه أن مالكي المركب عرضوا ٥٠٧٥ دولاراً لمن يتولّى تقطيع المركب ونقله الى الشاطىء. فعقد معهم اتفاقاً بهذا المعنى، ثم أضاف: "المركب يرسو الآن في الميناء."

عام ١٩٧٤ واجه ايان أول تحدٍّ كبير حين جنحت سفينة الشحن البريطانية "ميلبانك" واستقرت على حَيْد مرجاني في فيجي. فارتفع مقدمها وعام مؤخرها في المياه التي يبلغ عمقها ٢٥٠ متراً.

يومذاك عمد ايان الى صنع جهاز بكرات رافعة مستخدماً أسلاكاً ثخينة وبكرات بحجم عجلات سيّارة. ثم اشترى هيكل مركب صيد محترق بـ٦١٩٥ دولاراً وشدّه بأسلاك الى الرافعات، ونسف قعره وأنزله في العمق بطول أسلاكه مثبّتاً إياه كمرساة تحت جانب عمودي من الحيد. وأخيراً بدأ مهمة الانتشال، فأدار محرّكات السفينة لاحداث اهتزاز وشدّها الى الخلف، وفي الوقت ذاته شدّت ثلاثة زوارق قطر بأقصى طاقاتها فانقطع سلكان منها وثبت واحد. واذا بالسفينة تتحرّر من مجثمها وتعوم في المياه. فأوقفت محرّكاتها، ولم يلحق بها سوى أضرار طفيفة مما أتاح لها شحن حمولة سكّر. كما سافر ايان وبيتي على متنها لتمضية عيد الميلاد في ماليزيا.

كانت باخرة الركاب الامريكية "بريزيدنت كولدج" إحدى السفن الكبيرة الغارقة في البحار الجنوبية منذ الحرب العالمية الثانية. وكانت اصطدمت بألغام عام ١٩٤٢ ولمّا تزل مستقرّة في المياه على عمق ٦٥ متراً. كست بدنها الضخم قشرة من المرجان، وكان الوقود يرشح منها في ميناء سانتو في فانواتو (أرخبيل كان يُدعى سابقاً هبريد الجديدة.) وفي العام ١٩٧٥ وقع ايان عقداً لضخ الوقود منها. فنجح في ضخّ ٧٥٠ طناً الى زورق قَطْر قديم، ومنه الى

PHOTO: AVRILLE WILLIAMS

سفينة عابرة تؤمّن رحلات سياحية ونزهات ترفيهية. في أثناء العملية ضرب المنطقة زلزال سُمع دويه كقصف رعد، وغطّت الرواسب صفحة الماء، إلّا أنها لم تؤثّر في أعمال الغطس والضخ.

لا مناجم ذهب. المنافسة حادة في حقل الانقاذ، غير ان ايان يتمتّع بمزية تؤمن له الأفضلية، فهو خبير أيضاً. ويبدأ عمل الانقاذ نموذجياً بالهرع في طائرة أو زورق سريع إلى مكان الحادث. يلي ذلك غطس لتفحص الأضرار غالباً ما يتمّ في بحر هائج فيما الأمواج ترجّح السفينة فتكاد تلامس رؤوس الغطاسين. ثم تُلقى نظرة على خرائط السفينة ويُجرى تقدير سريع لما يقتضيه تعويمها. لكنّ ذلك كله رهن بتوافر التمويل.

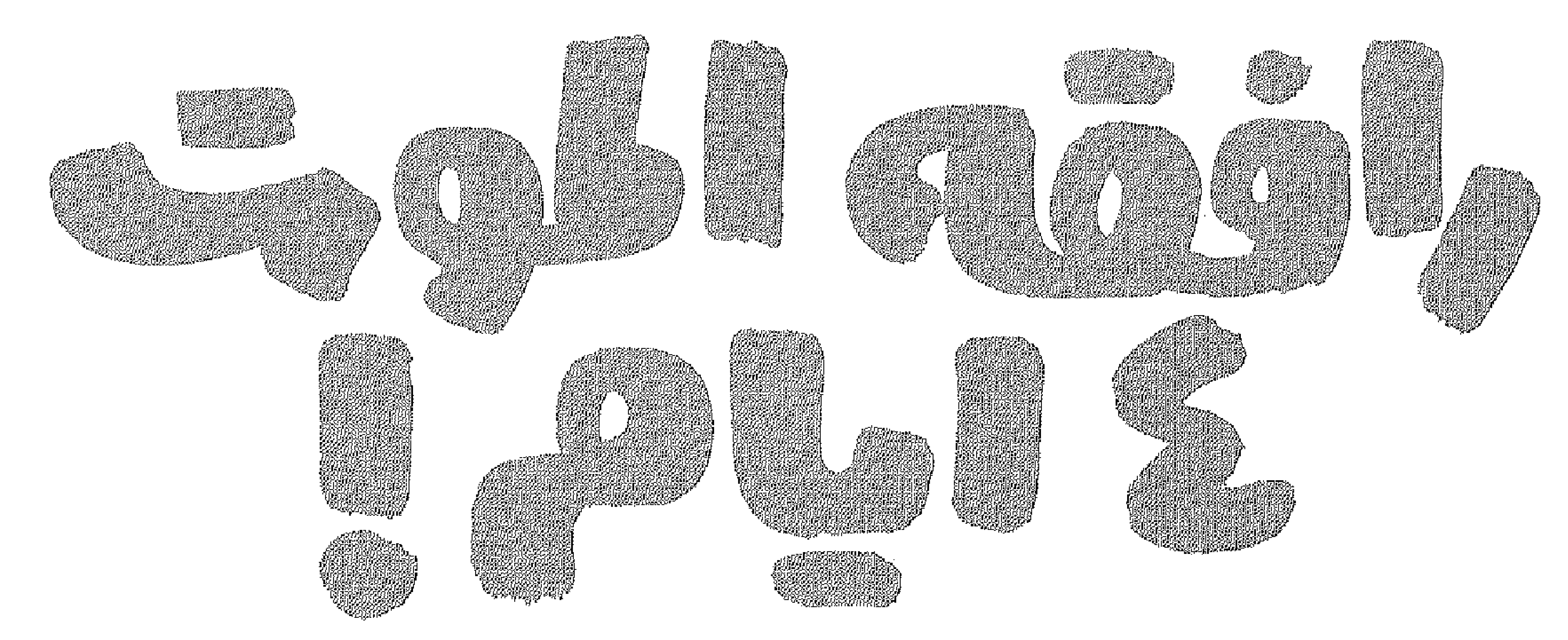
وغالباً ما يقوم نزاع بين المهندسين وربان المركب وبين الربان والمالكين. والمالكون يضغطون على المؤمِّنين، والمؤمِّنون يتنازعون مع المخمِّنين على قيمة الأضرار. أما متعهد عملية الانقاذ فيكون في وسط المعمعة. وقد تمرّ ثلاث سنوات قبل أن يدلي محكِّمو شركة "لويدز" اللندنية بافاداتهم، كما قد لا يتقرّر مبلغ الكلفة الفعلية لعملية الانقاذ قبل سنتين. وعندئذ يقبض متعهد الانقاذ ما يستحقّ ويدفع ما عليه. ويقول ايان: "إن هذه المهنة سبيل للعيش، لكنها ليست منجم ذهب."

"أوشين روڤر" أحدث سفينة يملكها ايان لوكلي وقد اشتراها عام ١٩٨٥. يبلغ طولها خمسين متراً، وكانت تؤمّن المؤن لحقول النفط. وهي ترسو حالياً في أحد حيود بحر المرجان على بعد حوالى ٥٥٠ كيلومتراً من الشاطىء. وفي قاعة "الورشة" على متنها تظهر على شاشات التلفاز صور سفينة شحن يابانية أخفقت زوارق القطر التي يديرها ايان في الوصول اليها قبل أن يغور مقدّمها في مياه الحيد مما بعثر حمولتها من سبائك الزنك والفولاذ وأجهزة الكمبيوتر وجزازات العشب، الى أن استقرّت على عمق ٦٥٠ متراً تحت سطح الماء. استخدم ايان غواصة مصغّرة تعمل بالتحكم عن بعد، مزوّدة آلة تصوير دقيقة وذراعاً آلية. وفي مخلب الذراع مجزّات مسنّنة كانت تلتف حول سبيكة الزنك فتلتقطها وتنتشلها كما انتشلت ألوف القطع المكدسة في عنبر السفينة.

واحتفالاً بنجاح العملية شوى ايان سمكة التُقطت على الحيد. أما مشروعه المقبل فينصبّ على تحسين صنع رافعة للأعماق مجهزة بلاقط هيدروليكي مركّب على شاحنة ويوجَّه من السفينة. فذلك يتيح القيام بعمل إنقاذي منظّم في أعماق لم يسبق التوصل اليها. ويأمل إيان الوصول يوماً الى عمق ألف متر.

ولكن، قبل كل شيء، يقصد لوكلي مدير مصرفه وعلى وجهه ابتسامة تحدٍ، ويلقي على مكتبه سبيكة من الزنك قائلاً: "هل لك أن تمدّني ببعض المال؟ ففي وسعي الحصول على ألوف من هذه."

جون دايسون ■



ارتمى المهاجر الشاب على طريق مزدحمة بعدما صدمته سيارة عابرة وبقي هناك نازفاً أربعة أيام

قصة من واقع الحياة

كاد خوان فرنسيسكو كاماتشو ينهار وهو يمشي متعباً جائعاً محبطاً على طريق "انترستايت – ٥" في أوشنسايد بولاية كاليفورنيا، عشية السبت ٥ مايو (أيار) ١٩٩٠. فهو أمضى نهاره متنقلا من مزرعة الى أخرى بحثاً عن عمل.

عَبَر خوان المسارات الاربعة المتجهة جنوباً، ثم شق طريقه عبر شجيرات الدفلى على الفاصل (الجزيرة) بين الاتجاهين، وتابع سيره شمالا في محاذاة



ILLUSTRATION: STEVEN STROUD

الفاصل منتظراً تباطؤ السير الكثيف لكي يعبر الطريق الى الرصيف المقابل.

فجأة سمع دوي موسيقى صاخبة خلفه.

ضربته دعامة السيارة في وركه الايمن ففتلته وقذفته عالياً. طار في الهواء وحطّ على الشجيرات صادماً الاسلاك الفاصلة خلفها ومرتدّاً ليقع على الطريق المعبدة.

سقط خوان على ظهره، وسمع صوت الموسيقى يتلاشى فيما السيارة الجانية تسرع في الفرار. وقف مستعيناً بأسلاك الفاصل وحاول المشي، لكن قدميه خانتاه في الخطوة الثانية.

رأى خوان الاضواء الامامية لمئات السيارات تمر به، ففكر: "لا بد من أن يساعدني أحدهم." لكن أحداً لم ينتبه له على رغم مرور السيارات في محاذاته بحيث خشي أن يُصدم ثانية. وبدأت موجات من الالم تسري عبر جسده المحطم. ففكر ثانية: "خير لي أن أبتعد قبل أن أقتل."

كانت رجلاه شبه مشلولتين، لكنه استطاع أن يدفع نفسه رافساً بقدمه اليسرى ومنشباً أصابع يده اليمنى السليمة في الارض. وهو استطاع بحركات بطيئة مؤلمة أن يجر نفسه تحت شجيرات الدفلى حيث انهار.

قاطف الثمار. كان خوان عاملا زراعيا في العشرين من عمره من ولاية اواساكا المكسيكية. وهو أخذ عهداً على نفسه قبل أربع سنوات أن يسافر الى الولايات

المتحدة ليعمل هناك ويرسل بعد أشهر مالا الى قريته سان سيباستيان لاقامة مهرجانها السنوي.

قال لأمه: "انني ذاهب الى كاليفورنيا للعمل. فعمي روساريو يقيم في سان دييغو، وسيساعدني في الحصول على ترخيص بالعمل."

عندما كان خوان في السابعة من عمره سقط والده ضحية بريئة في حادث اطلاق نار. فاضطر الصبي الى ترك المدرسة والعمل لاعالة نفسه وأشقائه وشقيقاته الاربعة الصغار.

وها هو يحيط والدته بذراعيه واعداً: "سوف أرسل اليك مالا، وفي يوم من الايام سآتي بك الى الولايات المتحدة."

فهمست الوالدة: "فايا كون ديوس" أي اذهب في أمان الله.

وصل خوان الى سان دييغو بعد ستة أيام. ولم يلبث، على رغم معارضة عمه روساريو، أن ركب حافلة متجهة الى الشمال حيث تتوافر الاعمال. فعمل في بايكرسفيلد في قطف ثمار الفريز (الفراولة) والحمضيات. كان الاجر قليلا، لكنه حرم نفسه كل مظاهر الترف لكي يدخر ما أمكن من مال.

وبعد أشهر أرسل ٥٠٠ دولار الى عمدة قريته "وفاء بالعهد الذي أخذته على نفسي لتمويل المهرجان."

عمل خوان خلال السنوات الثلاث التالية في قطاف معظم المحاصيل التي تزرع في كاليفورنيا، ولم يكف عن ارسال المال الى والدته. ثم تقلصت فرص العمل، وعندما سمع عن بدء قطاف الليمون في أوشنسايد عاد الى الجنوب. كان الاجر بخساً بحيث اضطر الى المبيت في العراء. ولم يشأ ان يعلم عمه أنه يمر بأوقات صعبة.

هذيان. كان خوان لا يزال ملقى على الطريق باصابات خطرة. وسيطرت على عقله فكرة وحيدة: "يجب أن أوقف أحدهم لمساعدتي."

زحف الى طرف الشجيرات وبدأ يلوح بوهن فلم يره أحد.

انقضى الليل ظلمة متطاولة قاطعتها أضواء السيارات العابرة ونوبات الالم. كان خوان يشعر بالدم ينساب بطيئا مستمراً مرطباً قدميه فيما هو يتلاشى الى حدود اللاوعي.

بدأ في الصباح بالهذيان. خيل اليه أنه رأى عمه روساريو يمر به قائلا: "سأعود لآخذك في ما بعد." وفي لحظة أخرى خيل اليه أنه رأى والدته، لكنه لم ينادها لئلا يثير قلقها.

وحميت الشمس في سماء كاليفورنيا آتية بعطش يثير الجنون. وراح خوان يصلي.

أحس في لحظة وعي شيئاً ينخسه في ظهره، فعدّل وضعه متألماً ليرى ما هو. لم يصدق عينيه! كان الشيء فوهة مرشّة لا تزال تقطر نقطاً من الماء الثمين! وفكر خوان: "الله يرعاني فعلا!" وجر نفسه ووضع لسانه على الفوهة، فالقطر البطيء سينقذ حياته.

مرت ليلة أخرى. ونهار الاثنين حاول خوان مراراً أن يلوّح بيده مستنجداً، لكن السيارات تابعت مرورها السريع أمامه. وراح يغيب في محادثات وهمية مع أفراد عائلته الذين طمأنوه الى أنهم سيكونون معه دائماً وما عليه الا الصمود.

لم يعد لليل والنهار من معنى الا كفترات من القيظ الحارق والبرد القارس لا تحميه منهما سترته القطنية. وهو اكتشف صباح الثلثاء أنه فقد كل احساس بذراعه اليسرى وكلتا رجليه. انتابه الذعر للحظة اعتقد خلالها أنه فقد هذه الاطراف. ولم يلبث أن تمالك نفسه، فهو لم يشعر بقلق عميق لان أحداً لم يأتِ لمساعدته، اذ كانت لديه قناعة مطلقة بأن الله يرعاه، وكان ايمانه بالله شديداً الى درجة منعت عنه الحزن واليأس والغضب. وهو فكر "ألم يعطني ماء؟ عندما يحين الوقت سيأتي أحدهم لمساعدتي."

٩٢ ساعة. بعد ساعات لاحظ كينيث جونز رجلا تحت شجيرات الدفلى على بعد مئات الامتار من المرأب القريب من الطريق حيث يعمل سائق شاحنة قطر. فقال لزميل له مشيراً الى الشكل الخفي المعالم: "انظر، لقد كان ذلك الرجل هناك خلال عطلة نهاية الاسبوع أيضاً."

فرد الآخر: "ربما كان مختبئاً من دوريات الحدود. هل تريد ترحيله الى بلده؟"

أجاب كينيث مفكراً: "لا، أبداً." ثم قاد قاطرته في مهمته التالية.

انقضت ليلة الثلثاء. وأدرك خوان بعد ظهر الاربعاء أن عليه اظهار نفسه أكثر اذا أراد أن يُرى. تلا صلاة وهو في حال هذيان، ثم استجمع طاقته وجر نفسه نحو الطريق حيث رفع جذعه عن الارض باذلا جهداً مضنياً. وجلس هناك لحظات عذاب على مرأى من المارة مراقباً السيارات وهي تمر به من دون التفات. ففكر هذه المرة: "ربما حانت ساعتي." وانهار من جديد.

في هذه الاثناء عبرت سيارة متجهة شمالا، ورأى سائقها شابا ينهض ثم يسقط، فتوقف على بعد كيلومترات واتصل بمكتب دوريات الطرق في أوشنسايد. لم يعرِّف عن نفسه واكتفى بالقول إنه شاهد أحد المشاة مصابا عند الحاجز الفاصل في طريق "انتر ستايت – ٥" على بعد حوالى ٨٠٠ متر جنوباً من كامب بندلتون. وفي الثالثة بعد ظهر ٩ مايو (أيار) أُرسل مساعدان طبيان الى المكان.

كانت النجدة في طريقها الى خوان فرنسيسكو كاماتشو بعد ٩٢ ساعة على اصابته.

"أنا جائع." فتحت الابواب الفولاذية في غرفة العناية المركزة في مستشفى سكريبس التذكاري أحد أفضل مستشفيات كاليفورنيا تجهيزاً لمعالجة الصدمات. وأدخل جسد خوان المحطم على محفة. كان خسر معظم دمه، وقد هبط ضغط دمه الى درجة خطرة وارتفعت

حرارته وأصيب بالتهابات شكلت خطراً على حياته. غرزت الممرضات حقناً وريدية في ذراعه لمدّه بالدم والسوائل المغذية، ونزعت عنه سترته وسرواله الجينز.

كان في أعلى فخذه جرح بالغ طوله ٢٠ سنتيمتراً كشف عظام حوضه المهشمة. وكان الدم لا يزال ينز من الجرح المغطى بالتراب. فحصٌ جراح الصدمات الدكتور ادغار غامبوا فريق الطوارىء العامل بامرته: "يجب أن نعمل بسرعة." وأدهشه أن الشاب المصاب لم يكن حياً فقط، وانما يقظاً ومتعاوناً وودوداً أيضاً.

سأله باسبانية ركيكة: "كيف تشعر؟ هل تتألم كثيراً؟"

"أبداً،" رد الشاب برصانة منكراً عذابه البادي للعيان، "أنا جائع فقط."

قال غامبوا لاختصاصي التجبير الدكتور كريغ سونسون: "ان ضغط دمه في انخفاض، يجب أن نتحرك بسرعة والا فقدناه." وانتظر الطبيبان بضع دقائق متوترة ريثما يعود الضغط الى طبيعته فيما الدم المنقول يدخل عبر الاوردة. وأخيراً قال غامبوا بارتياح: "ان وضعه يتجه الى الاستقرار." ونقل خوان بسرعة الى غرفة العمليات.

بعد لحظات بدأ الفريق الجراحي استكشاف اصابات خوان. وتبين أنه عانى، اضافة الى وركه المهشم، كسوراً في ساعده الايسر وكتفه اليسرى ورقبته. وكانت صدمة السيارة أحدثت شقاً واسعاً في حوضه، فغزت أنواع من الجراثيم مجرى دمه.

أمر الدكتور غامبوا باعطاء خوان ثلاثة أنواع قوية من المضادات الحيوية (أنتيبيوتيك) معلقاً: "هذا ليس حادثاً عادياً. سنفعل ما في وسعنا، ونصلي."

قوَّم الجراحون حوض خوان في جراحة استمرت أربع ساعات، لكنهم تركوا الاصابات الاخرى الى وقت لاحق لاضطرارهم الى التركيز على الالتهابات. فاذا صمد خوان أربعاً وعشرين ساعة، أنبأت نتائج الزرع الاطباء بأنواع الجراثيم التي يواجهون. وفي غرفة العناية المركزة كانت الوظائف الحيوية في جسم خوان تفحص كل ربع ساعة.

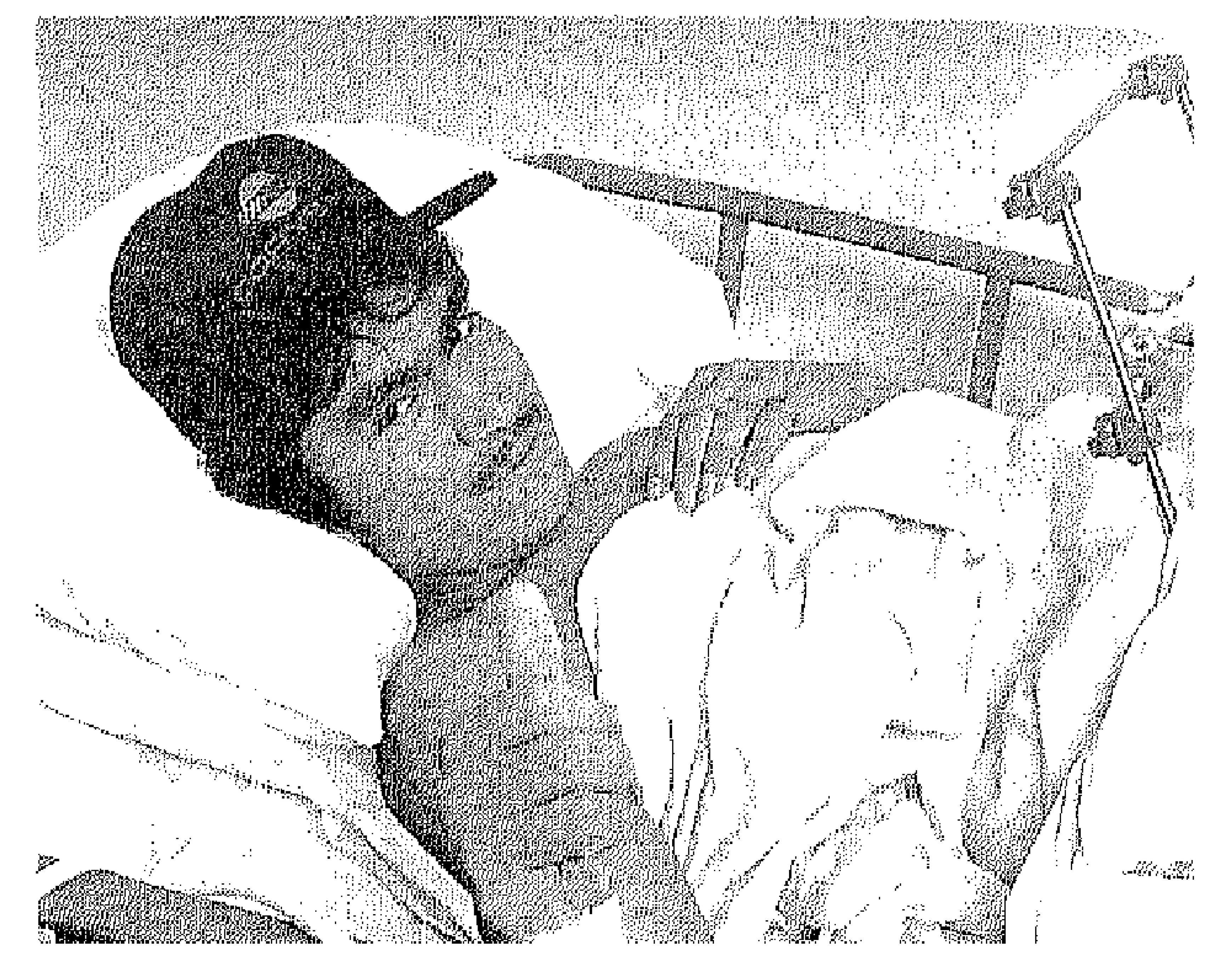
طعام للطفيليات. صمد خوان طوال الليل، فقال له غامبوا صباح اليوم التالي مبدياً ارتياحه: "انك شاب صلب العود. هل تذكر ما حدث؟"

أجاب بضعف: "قليلا، كنت أسير على الطريق، وكانت الساعة تقارب الثامنة عندما صدمتني سيارة..."

فقاطعه غامبوا: "هذا فظيع!" مفترضا أن خوان عنى الثامنة من صباح الاربعاء.

فتابع خوان: "الليلة الاولى كانت رهيبة."

سأله الطبيب مذهولا: "الليلة الاولى؟" ثم تذكر استفحال التهاباته فسأله: "في أي يوم بالضبط صدمتك السيارة؟"



خوان كاماتشو المتفائل في سريره في مستشفى سكريبس التذكاري.

فرد خوان: "السبت."

صعق غامبوا اذ أدرك أن الشاب أمضى أربعة أيام كاملة ملقى في مكان الحادث.

مساء الخميس درس الطبيبان غامبوا وسونسون تقرير نتائج الزرع. كان خوان مصاباً بأربع جراثيم مختلفة، فلفت غامبوا زميله الى ضرورة الحذر خلال اليومين التاليين تلافيا لحصول مضاعفات رئوية قد تؤدي، مصحوبة بصدمة، الى وفاة الشاب.

أدهش خوان الجميع في يومه الثاني في غرفة العناية. فقد كان لطيفاً مرحاً على رغم وضعه الحرج. وقالت رئيسة الممرضات للطبيب مندهشة: "لا يصدق المرء أنه مريض، انه لا يشتكي أبداً."

فوافقها غامبوا: "انه يبدو في حال حسنة، كأنه يتحدى احتمالات الخطر. لكن هذا يقلقني."

بعد قليل دخل اختصاصي بالامراض الجرثومية حاملا تقريراً عن حال خوان في الساعات الثماني والاربعين الماضية، فقال غامبوا باهتمام: "انه معرَّض للاصابة بانهيار عضوي مضاعف. وهو في الواقع طعام للطفيليات المجهرية."

ولكن بدا أن المضادات الحيوية أهمدت الجراثيم. وفي نهاية اليوم الثالث باتت الالتهابات تحت سيطرة الاطباء. وبعد أربعة أيام نقل خوان من غرفة العناية المركزة وعالج الاطباء اصاباته الاخرى في جراحات متتالية. وقد أخفى خوان ألمه عاجزاً عن الحركة لاسابيع، لكن عذاباً داخلياً كان يتأكله: "من سيخبر أمي؟ لا أريدها أن تقلق. كيف يمكنني الاتصال بعمي؟ لا أذكر عنوانه الجديد."

السنيورة كاماتشو. بلغت أخبار معاناة خوان وسائل الاعلام المحلية. وفي ١٤ مايو (أيار) شاهد روساريو كاماتشو في نشرة الاخبار التلفزيونية شاباً يشبه ابن أخيه راقداً في سرير في مستشفى. ففكر: "الحمد لله، خوان بأمان في سان لويس ري." وفي اليوم التالي عرض عليه أخوه صورة للشاب نفسه في احدى الصحف قائلا: "انه خوان يا روساريو!"

فهرع روساريو الى المستشفى.

أدى الاهتمام الاعلامي بانتصار خوان على خطر الموت الى ذيوع قصته في أنحاء الولايات المتحدة. فأرسل صانعو خير مبالغ مالية لتغطية نفقات المستشفى، ولمساعدته في مستقبله

PHOTO: © JOHN BARR/GAMMA LIAISON

المهتز كمهاجر لا يحمل أوراقا ثبوتية، ولاحضار والدته الى كاليفورنيا.

بكت السنيورة كاماتشو عندما دخلت غرفة ولدها في المستشفى، حزنا لمعاناته وفخراً بشجاعته. وشاهدت عشرات البطاقات والرسائل معلقة على الحائط فوق رأسه، وبينها واحدة من الرئيس الامريكي السابق رونالد ريغان.

خرج خوان من المستشفى في ٣٠ يوليو (تموز) الى بيت عمه روساريو جالسا في كرسي متحرك. وأمل الاطباء أن يستطيع السير ثانية يوما ما. قال له غامبوا: "لقد كان شفاؤك عجائبيا. انك تتحلى بجَلَد وقدرة على التحمل نادراً ما شهدتهما خلال السنوات التي أمضيتها جرّاح صدمات."

عاد خوان الى المستشفى في منتصف أغسطس (آب) لاجراء كشف. وهو دخل ماشياً، لا عكازات، ولا ألم، وبعرجة تكاد لا تلاحظ. فهتف غامبوا: "لا بد أن الله راض عنك!"

فردّ خوان: "أريد ان أشكرك على كل ما فعلته لي." وهو يشكر الله طوال الوقت، كما يحتفظ في قلبه بمكان خاص لذلك العابر الطيب الذي طلب له المساعدة بعدما مر به ألوف آخرون لم يتوقفوا.

ت. هـ. كالهين ■



القاضي والمحامي

كنتُ لا أزال مبتدئاً في سلك المحاماة حين جلستُ ذات مرة في قاعة المحكمة اراقب محامياً شهيراً يستجوب شاهداً. وقد اخفق المحامي بعد عدة محاولات في الحصول على معلومة معيَّنة من الشاهد.

اخيراً التفت القاضي الى الشاهد وطرح عليه سؤالا واحداً، فجاءه الرد المطلوب تماماً.

قال المحامي: "شكراً يا سيدي القاضي. ولكن كيف تمكنت من بلوغ صلب الموضوع في سؤال واحد في حين أخفقت انا في ثلاثة أسئلة؟"

فأجابه القاضي: "هذا أمر سهل، فانا لا اقبض اجري في الساعة."

ك.ر.

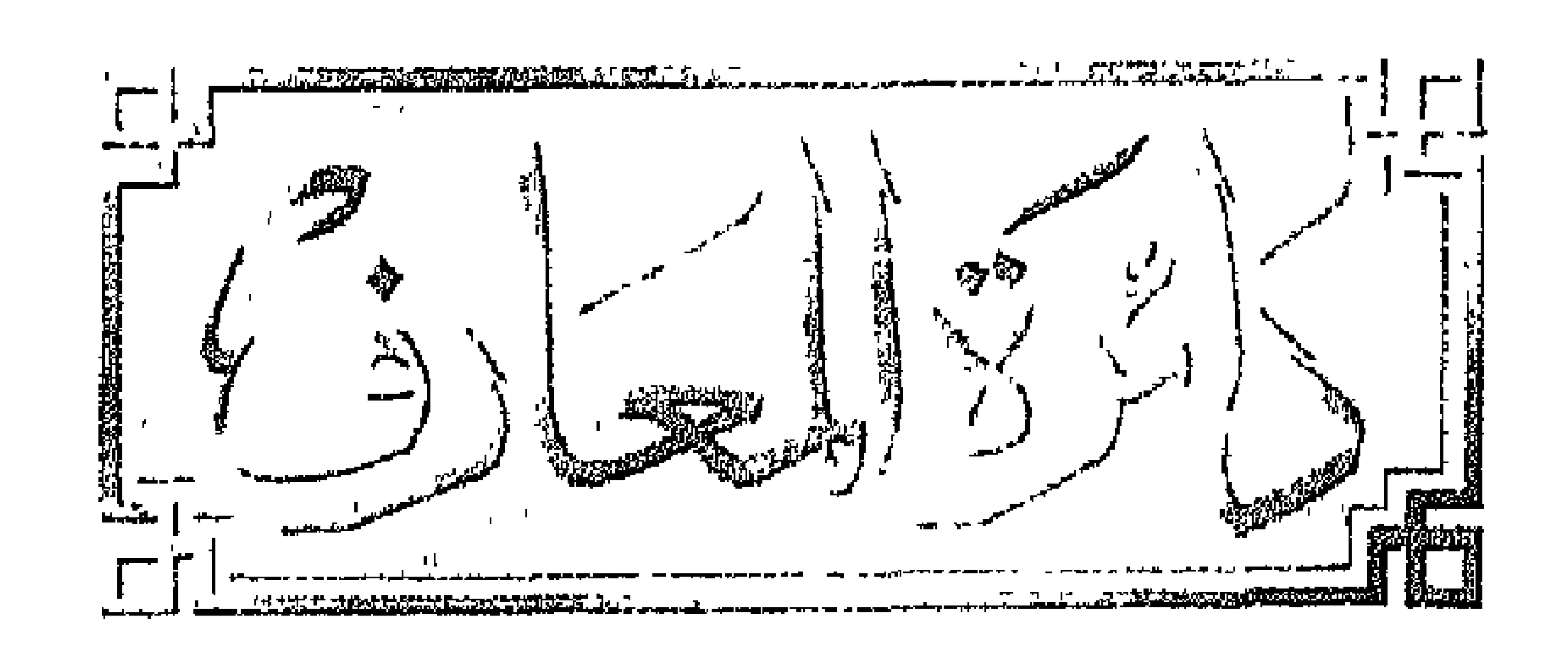
قليل الكلام

دخل رجل محلاً للزهور عُلقت عليه لافتة جاء فيها: "قلْ بالزهور ما تريد." وطلب من الموظفة أن تلفّ له وردة.

فسألته: "وردة واحدة فقط؟"

فأجاب: "نعم، فأنا رجل قليل الكلام."

د.ك.



ابدع العرب في تسمية الاشياء باسمائها. هنا بعض ما عرّفوه في السماء والنجوم والازمان والرياح.

"السماء": كلُّ ما علاك فأظلّك، ومنه قيل لسقف البيت: "سماء" وللسحاب: "سماء".

و"الفَلَك": مَدَارُ النجوم الذي يضمها، قال الله عز وجل (وَكُلٌّ في فَلَك يَسْبَحُون) سَمَّاه فَلَكاً لاستدارته، ومنه قيل "فَلْكَةُ الْمِغْزَل" وقيل "فَلَكَ ثَدْيُ المرأة."

وللفَلَكِ قُطْبَانِ: قطبٌ في الشمال، وقطبٌ في الجنوب، متقابلان.

و"مجرة النجوم" منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء.

و"بُرُوج السماء" واحدهما بُرْج، وأصل البروج الحصون والقصور، وأسماؤها: الْحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسَّرَطان، والأسد، والسُّنْبُلة، والميزان، والعَقْرب، والقَوْس، والْجَدْي، والدَّلْو، والحُوت.

و"منازل القمر" ثمانية وعشرون منزلا، ينزل القمر كلَّ ليلة بمنزل منها، قال تعالى (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ).

و"الأزمنة" أربعةُ أَزْمِنَة: الرَّبيعُ، وهو عند الناس الخَريف، سمته العرب ربيعا لأن أول المطر يكون فيه، وسَمَّاه الناس خريفا، لأن الثمار تُخْتَرَف فيه، ودخوله عند حلول الشمس برأس الميزان، ونجومه من هذه المنازل: الغَفْر، والزُّباني، والإكليل، والقَلْب، والشَّوْلة، والنَّعَائم، والبَلْدة. ثم "الشتاء" ودخوله عند حلول الشمس برأس الْجَدْي، ونجومه: سَعْد الذَّابح، وسَعْدُ بُلَع، وسَعْدُ السعود، وسَعْد الأَخْبِيَة، وفَرْغ الدّلو المقدَّم، وفَرْغ الدّلو المؤخَّر، والرشاء. ثم "الصيف" ودخوله عند حلول الشمس برأس الْحَمَل - وهو عند الناس الربيع - ونجومه: السرَطان، والبُطَين، والثُّرَيَّا، والدَّبَرَان، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع. ثم "القَيظ" وهو عند الناس الصيف، ودخوله عند حلول الشمس برأس السَّرَطان، ونجومه: النَّثْرة، والطَّرْف، والْجَبْهة، والزُّبْرَة، والصَّرْفة، والعَوَّاء، والسِّماك الأعزل.

و"سِرَارُ الشهر" و"سَرَرُه" آخر ليلة منه، لاستسرار القمر فيه، وربما استسرّ ليلة، وربما استسر ليلتين.

و"الهلال" أول ليلةٍ والثانية والثالثة، ثم هو قمر بعد ذلك إلى آخر الشهر.

و"ليلة السَّوَاء" ليلة ثلاثَ عشَرَة، ثم "ليلة البدر" لأرْبَعَ عشَرَةَ، وسمي بدراً لمبادرته الشمسَ بالطلوع كأنه يُعْجلها المغيب ويقال: سمي بَدراً لتمامه وامتلائه، وكل شيء تَمّ فهو بَدْر، ومنه قيل لعشرة آلاف درهم "بَدْرة" لأنها تمام العدد ومنتهاه، ومنه قيل "عَيْنٌ بَدْرَةٌ" أي: عظيمة.

وسمي النَّجْم "نجما" بالطلوع، يقال: "نَجَم السِّنُّ" إذا طلع، ونجمَ النجمُ. وسمي "طَارِقا" لأنه يطلع ليلا، وكلُّ مَنْ أتاك ليلاً فقد طَرَقَك.

وسمي القَمَر "قمَراً" لبياضه، والأَقْمَرُ: الأبيض، و"ليلة قَمْراء" أي: مُضيئة.

ويقال للشمس "ذُكَاء" لأنها تَذْكو كما تَذْكو النار، والصبح "ابْنُ ذُكَاء" لأنه من ضوئها. و"قَرْنُ الشمس" أعْلاَها، أو أول ما يَبْدُو منها في الطلوع. و"حَوَاجبها" نواحيها. و"إيَاةُ الشمس" ضوءُها.

و"الدارة" حول القمر يقال لها "الهالة".

والرياح أربع: "الشمَال" وهي تأتي من ناحية الشام، وذلك عن يمينك إذا استقبلت قبلة العراق، وهي إذا كانت في الصيف حارّةً "بارحٌ" وجمعها بَوَارح، و"الْجَنُوب" تقابلها، و"الصَّبَا" تأتي من مطلع الشمس، وهي "القَبُول" و"الدّبُور" تقابلها. وكل ريح جاءت بين مَهَبَّيْ ريحين فهي "نَكْباء" سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ، أي: عدلت، عن مَهابِّ هذه الأربع.

و"الْجَدْي" الذي تعرف به القبلة هو جَدْي بنات نَعْش الصغرى، و"بنات نعش الصغرى" بقربُ "الكبرى" مثل تأليفها: أربع منها نعش، وثلاث بنات، فمن الأربع "الفَرْقَدَان" وهما المتقدِّمان، ومن البنات "الْجَدْيُ" وهو آخرها، و"السُّهى" كوكب خَفِيٌّ في بنات نعش الكبرى، والناس يمتحنون به أبصارهم، وفيه جَرَى المثل "أُرِيهَا السُّهَى وَتُرِيني القَمَرَ."

و"سُهَيل" كوكبٌ أحمر منفرد عن الكواكب، ولقربه من الأفق تراه أبداً كأنه يضطرب.

و"السّعُود" عشرة: أربعة منها ينزل بها القمر، والستة البواقي: سَعْد نَاشِرَة، وسعد الملِك، وسعد البِهَام، وسعد الْهُمَام، وسعد البَارع، وسعد مَطَر، وكل سعد منها كوكبان، بين كل كوكبين في رأي العين قَدْرُ ذراع، وهي متناسقة.

فهذه الكواكب، ومنازل القمر: مَشَاهِير الكواكب التي تذكرها العرب في أشعارها.

وأما "الخُنَّس" التي ذكرها الله تعالى فيقال: هي "زُحَل، وَالْمُشْتَرِي، وَالمَرِّيخ، وَالزُّهَرَة، وَعُطَارد، وإنما سماها خُنَّسا لأنها تسير في البُرُوج والمنازل كسير الشمس والقمر ثم تَخْنِسُ، أي: ترجع، بَيْنَا يُرى أحدها في آخِر البُروج كَرَّ راجعا إلى أوله، وسماها "كُنَّسًا" لأنها تَكْنِسُ، أي: تستتر، كما تكنس الظباء.

الأوْقَات: يقال: هَزِيعٌ من الليل، وهُدْءٌ من الليل، وذلك من أوله إلى ثلثه. وجَوْزُ الليل: وسَطه، وجَهمَةُ الليل: أول مآخيره، والبُلْجَة: آخرهُ، وهي مع السَّحَر، والسُّدْفَة مع الفجر، والسُّحْرَة: السَّحَر الأعلى، والتَّنْوير: عند الصلاة، والخيط الأبيض: بياض النهار، والخيط الأسود: سَوَاد الليل، والضحى: من حين تطلع الشمس إلى ارتفاع النهار، وبعد ذلك الضَّحَاءُ إلى وقت الزوال، والهَاجِرَة: من الزوال إلى قرب العصر، وما بعد ذلك فهو الأصيل، والقَصْرُ والعَصْرُ: إلى تطفيل الشمس، ثم الطَّفَلُ والجُنُوح: إذا جَنَحَتِ الشمس للمغيب، وهما شفقان: الأحمر، والأبيض، فالأحمر: من لدن غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء، ثم يغيب ويبقى الأبيض إلى نصف الليل.

و"الحِقَب" السِّنُونَ، واحدها حِقْبَةٌ، و"الْحُقُبُ" الدهر، وجمعه أحْقَاب و"الْقَرْن" يقال: هو ثمانون سنة، ويقال: ثلاثون.

ويوم الجمعة: يوم العَرُوبَة.

و"أيَّام العَجُوز" عند العرب خمسة: صِنٌّ، وَصِنَّبْرٌ، وَأُخَيُّهُمَا وَبْرٌ، وَمُطْفِىءُ الجَمْر، وَمُكْفِىءُ الظُّعْن، هذه الرواية الصحيحة عندهم. قال ابن كناسة: وهي في نَوْءِ الصَّرْفَة، وسميت الصَّرْفَة لانصراف البرد وإقبال الحر.

ويوم "النَّحْر" يوم الأضحى، ويوم "القَرِّ" بعدهُ، لأن الناس يَسْتَقِرُّونَ فيه بمنًى، ويوم "النَّفْر" اليوم الذي بعده، لأن الناس يَنْفِرُونَ فيه مُتَعَجِّلِينَ، والأيام "المَعْلُومَات" عَشْرُ ذِي الحجة، والأيام "المَعْدُودَات" أيَّامُ التَّشْريق، سميت بذلك لأن لحوم الأضاحي تُشَرَّق فيها أي تقدَّد.

المَطَر: "الْوَسْمِيُّ" مطر الربيع الأول عند إقبال الشتاء، ثم يليه "الرَّبيعُ" ثم يليه "الصيف" ثم "الْحَمِيمُ" الذي يأتي في شِدَّةِ الحَرِّ.

وأضْعَفُ المطر: "الطَّلُّ" وَأَشَدُّهُ: "الوَابِلُ" ومنهُ السَّيْلُ، قال الشاعر:

هُوَ الجَوَادُ ابْنُ الجَوَادِ ابْنِ سَبَلْ
إنْ دَيَّمُوا جَادَ، وَإِنْ جَادُوا وَبَلْ

يريد أنه يزيد عليهم في كل حال.

عجل في الدار

تجلت في هذا العجل العجيب
أروع آيات الودّ والدفء والحنان

هتف زوجي بيل: "يا إلهي! لماذا تختار هذه الأبقار طقس الصقيع لتضع عجولها؟" وبان القلق جلياً في صوته. ثم ارتدى معطفه، وهرعت وابننا سكوت معه الى الحظيرة. كان الليل انتصف والحرارة هبطت في مزرعتنا القائمة وسط صحراء أريزونا الى ٢٠ درجة مئوية تحت الصفر.

كانت بقرتنا الحلوب فالنتين من نوع "هولشتين" الضخم، وكان مرّ شهر على ميعاد وضعها فبلغ وزنها ١٣٠٠ كيلوغرام. لذا ساورنا القلق. ففالنتين، خلافاً لماشية "هيرفورد" التي تضع مواليدها في البرية، تحتاج الى حظيرة دافئة تضع فيها، لأنها مميّزة، تربّى كي تدرّ حليباً يكفي لارضاع عجلها وأربعة عجول أخرى من تلك التي نفقت أمّاتها عند الولادة او التي لا تدرّ من الحليب ما فيه الكفاية.

وقفنا لثلاث ساعات نرقب البقرة وهي تعاني آلام المخاض وتنبش القشّ بحوافرها. أخيراً، ارتمت أرضاً وما لبثت، بمساعدة بسيطة منا، أن وضعت عجلة تزن ٦٥ كيلوغراماً أي ما يعادل ضعفي الوزن الطبيعي، ذات لون سكّري ضارب الى السمرة. وما إن انتهت معاناة فالنتين حتى أسرعنا عائدين الى فرشنا الدافئة ننشد النوم ما تبقّى لنا من الليل.

قبل بزوغ الفجر قصدتُ الحظيرة للتأكّد من قدرة العجلة على النهوض والرضاعة، فتناهى إليّ صوت رضعها عالياً من المربط في الزاوية. ثم أطلقت فالنتين خواراً ترحيباً بقدومي، فتمتمتُ: "يا لك من أنثى طيبة!" واقتربت لأحكّ أذنيها، فاصطدمت قدمي بشيء مطمور تحت القش. ثم شقّ حجاب الليل خوار حادّ.

حبست أنفاسي وتراجعت كي يدخل الحظيرة بعض نور، لكنني لم أتوقع رؤية ما شاهدته أمامي: عجلاً قبيحاً أسود توأماً للعجلة الجميلة، لكنه مشوّه.

راح يضرب بقوائمه محاولاً النهوض، فراعني منه رأسه الضخم والحدبة الكبيرة الناتئة من ظهره وقوائمه القصيرة الملتوية. وكانت حوافره معوجّةً الى الداخل.

غمرتني الشفقة فركعت ولمسته. فأطلق العجل الصغير صيحة مؤثّرة وشرع يمصّ أصابعي بحثاً عن حليب. أحطته بذراعي وقلبته كي أتمكّن من مشاهدة وجهه. أحسست كأن قلبي توقّف عن النبض، فالعجل البائس مولود بعين واحدة في جبينه!

لست أدري لماذا لم نقضِ عليه. فتوأمه تخشاه، وحين يحاول الرضاعة ترفسه أمه وتُعمل قرنيها في جنبيه وتدميه حتى يسقط أرضاً. لكنه كان ينهض كل مرة مهشّماً نازفاً ويعيد محاولة الرضاعة. كان يكافح مستميتاً للبقاء.

حفزه الجوع على اعتماد الحيلة والدهاء. فصمّم على الرضاعة مهما كلفه الأمر. كان يراقب أمه من بعيد فينتظر حتى تضطجع وتغفو، وعندئذ يتقدّم نهماً فيرضع من ضرعها متشبثاً به كأنه بحّار مشرف على الغرق.

العجل والصوص. في بادىء الامر رأى أولادي الكبار في العجل المشوّه ظاهرة منفّرة مخيفة. لكنّ مشاعرهم تغيّرت على أثر مشاهدته وهو يكافح للبقاء حياً. وقال سكوت لوالده: "كم هو ودود وأليف يا أبي! إنه يعدو الى البوابة متمايلاً حين نأتيه بالطعام، ولا يفارقنا، بل يمضي في معاكستنا ولا ينفكّ يفعل حتى نحكّ له رأسه."

ذات يوم، عادت جنيفر من المدرسة لاهثة والإثارة بادية على محيّاها: "أمي! كنا نقرأ في صف اللغة الانكليزية أوذيسة هوميروس وفيها قصّة جبار بعين واحدة يدعى سيكلوبس. ألا ترين أن هذا الاسم يناسب عجلنا تماما؟"

وهكذا تمّت تسميته سيكلوبس، وأصبح العجل العجيب مدلّلاً آخر في المزرعة. كان شغوفاً بحض الاولاد الصغار على اللعب معه. فكانوا يلفّون عينه بغطاء ثم يركضون ويختبئون. فيشرع سيكلوبس في البحث عنهم، فيقع على الارض وينهض متعثراً مراراً وتكراراً الى أن يجدهم.

أكانت تلك قساوة من الأولاد؟ لا أظن ذلك، فقد كان سيكلوبس يكافأ دائما باحتضانه وبقطعة من السكّر أو ببعض الطعام الشهيّ. وعرفانا بالجميل كان يلحس أيديهم الصغيرة وخدودهم المورّدة، فيهتف أحدهم: "انظري يا أمي، سيكلوبس يحبني!"

مع مرور الوقت لفت انتباهنا أنه أصبح محبوباً من بعض الحيوانات. ففي الشتاء كنا نجد هرّة متكوّرة حول حدبته. وفي الصيف كانت الكلاب والصيصان تستظلّ فيئه.

أما أفضل أصدقائه فكان الصوص أومليت ابن الأسبوع الواحد الذي فقس في محضن عندنا. وجد الصوص الصغير سيكلوبس نائماً، فاقترب منه وشرع ينقد

قطرات العرق المنسابة على أنفه الأسود الملتمع.

أحسّ سيكلوبس وخزاً خفيفاً فشخر عالياً ونفخ فأطار الصوص بعيداً. لكنّ ذلك لم يُثنِ أومليت الذي عاد الى التحرّش بالعجل. وأخيراً قفز الى وجه سيكلوبس وتسلّق حتى استقرّ بين قرنيه العجيبين.

ذلك أن قرنَيْ سيكلوبس، بدلاً من أن ينموا صعوداً منفتحين الى الخارج، كانا معوجّين الى الداخل وقد تشابكا مشكّلين ربوة وجد فيها الذباب مرتعاً خصباً وآمناً.

وما لبث أومليت أن اكتشف الوليمة الفاخرة بين ذينك القرنين. وفي نهاية الصيف أصبح ديكاً كامل النمو، ومع ذلك ظل يشاهد جاثماً طوال ساعات على رأس سيكلوبس ينقد الحشرات المعشِّشة فيه. ووجد العجل في أومليت الرفيق الذي جلب له الراحة والصديق الذي كان في حاجة يائسة اليه.

وبقيت مأساة سيكلوبس مع بني جنسه. فخلال السنتين الأوليين من حياته لم يحتمل وجوده ثور ولا بقرة ولا عجل في المزرعة.

ثم حلّت ليلة الميلاد، وكان الاولاد انتهوا من تزيين شجرة العيد. فسمعتُ إحدى البنات تقول: "لكم وددتُ لو لم تكن الأبقار خسيسة مجافية لسيكلوبس."

وساد الصمت برهة ثم خطرت لسكوت فكرة ظريفة فهتف: "دعونا نزيّنه!" وما هي إلا دقائق حتى انطلق سكوت وفي يده غصن شجرة ومعه أضواء فائضة، وتبعته شقيقاته. وبعد لحظات تناهى الى مسمعي صراخ وضحك ابتهاج رنّان آتٍ من المرعى الخلفي. فأزحت الستائر، ويا لعجب ما رأيت!

كان رأس سيكلوبس مكللاً بأضواء العيد متلألئاً كتاج مرصّع بالجواهر. وكانت تغذّي الاضواء بطارية ثبّتها سكوت بين قرني العجل. وبدافع الفضول الذي تتّصف به البقر تقدمت كل منها لالقاء نظرة على العجل المرذول من بني جنسه. وصاحت بيكي: "إنها تحاوطه! صار لديه أصدقاء!"

وقال جيمس الصغير ابن السنوات الخمس: "إنه يبتسم لأنها تحبّه."

كشاف البقر. بلغ سيكلوبس السن الثالثة. وكنا نتحاشى الحديث عن عدم جدواه في المزرعة. ذلك لأن زوجي بيل كان يربّي عجول "هيرفورد" المؤصّلة، فلماذا يهدر وقته وماله على هذا المسخ الذي يفتقر حتى الى القدرة على الاستيلاد؟ لقد أصبح سيكلوبس حيواناً مدلّلاً باهظ التكاليف، إذ بلغ استهلاكه من العلف طناً من التبن شهرياً وزاد وزنه الى ٧٧٠ كيلوغراماً. فأي نفع يُرتجى منه؟

أقبل الربيع وحلّ موسم الاستيلاد، فأطلقنا العجول في مراع خاصة مع بقرات مؤصّلة من سلالات محددة، فيما أبقى بيل عشرين عجلة قرب المنزل لاخصابها اصطناعيا.

ان معرفة موعد النزاء (ذروة الحرارة

الجنسية في الحيوان) لتسهيل الاستيلاد الاصطناعي هي أكثر المراحل إحباطاً واهداراً للوقت. كانت تمرّ ساعات ونحن نراقب علامات في البقرة تنبىء باستعدادها لتقبّل التلقيح.

حُبس سيكلوبس في الزريبة خشية أن تعتبره الثيران خطراً يتهددها أو أن تهاجمه البقرات اذا تجرّأ على الاقتراب من عجولها. فكاد يجنّ في عزلته، وأخذ يخور باستمرار حتى انخفض صوته الى شبه همس. وفجأة انقطع عن الطعام.

عندئذٍ قلت لبيل: "إنه سيموت."

فرد: "دعينا نترك الطبيعة تأخذ مجراها."

إلّا أن غريزة البقاء لدى سيكلوبس تغلّبت، فعاد الى تناول علفه.

مرّت أشهر من دون أن نلحظ دلائل النزاء الا في اثنتين من العجال العشرين. وذات يوم لاحظنا أن سيكلوبس توقف عن الخطو في الزريبة وراح يحدق بشوق الى عجلة صغيرة. ثم شرعا يتناديان ويتجاوبان لساعات طوال. فعلّق بيل: "يأخذني العجب، فهل يعرف ذلك اليائس ما خفي عنا؟"

قال سكوت: "دعونا نفكّ قيده، فيسرح ويمرح ونعرف حقيقة الأمر. وما المانع، فهو عقيم، فأي ضرر في إطلاقه؟"

فتحنا بوّابة الزريبة، فشخر سيكلوبس عالياً واندفع في المرج يعدو متمايلاً كالمسعور، ولم يكفّ عن البحث حتى وجد ضالته. جأر سيكلوبس فتجمّدت العجلة. فاقترب منها بحذر وأحنى رأسه ليداعب عنقها بفمه المخملي. وبعد تجاذب قليل سمحت له بأن يلقي رأسه على كتفها. فعرفنا حينئذٍ أنها جاهزة للاخصاب. ولطالما تساءلتُ لماذا لم ندرك قبلاً أن في قلب هذا المخلوق الوديع مشاعر ونزعات تفوق إدراكنا البشري.

خلال السنتين التاليتين كان سيكلوبس كشّافنا، يبين لنا وقت النزاء لدى كل عجلة. في السنة الأولى بلغ معدل نجاحنا ٩٨ في المئة. وفي السنة الثانية ١٠٠ في المئة. ولم يعد ثورنا المدلل وحيداً حزيناً.

كان سيكلوبس في منتصف سنته الخامسة عندما نفق. فقد توقف قلبه، ووجدناه ممّدداً تحت شجرته المفضّلة التي كان يستظلّها. وشعرت بغصّة حين ركعت وأجلْتُ أصابعي على رقبته.

تطلّعت الى الاولاد، فرأيتهم يبكون هم أيضاً. فأدركت فجأة أن عجلنا، ذلك العجيب الرائع الذي كان ينشد الحنان والمودّة، أيقظ داخلنا جميعاً عطفاً فائقاً وتفهّماً أعمق للتعساء من البشر الذين لم يحظوا بالنعم التي أُسبغت علينا.

كان سيكلوبس مختلفاً في مظهره الخارجي فحسب، أما داخله فقد اعتلجت فيه المشاعر ذاتها وحب الحياة ذاته الذي هو في صميم جميع الكائنات.

بني بورتر ■

الرؤيا هي فن رؤية الاشياء خَفِيَّة. جوناثان سويفت، كاتب ايرلندي

ماذا تفعل عندما يضيق سروالك؟

العُطَل والاعياد أيام راحة وبهجة وأكل شهي. لكن شبحاً كريهاً يخيم على نهاياتها: السمنة. فماذا نفعل لنطرح عنا زيادات الوزن الموسمية؟

مايكل كرازنوف (٣٩ عاما) موظف في احدى شركات التأمين يزداد وزنه نحو ثلاثة كيلوغرامات أيام العطلة السنوية خلال فترة لا تزيد على شهر. وهو يقول إن سمنته لا تشكّل خطراً، ولكن "أشعر بأن سراويلي ضاقت وأن الوقت حان لمعالجة ذلك الوزن الزائد."

ولأسابيع عدة يعتمد كرازنوف نظام حمية ذاتياً، فيتحاشى المواد الدهنية في طعامه ويكثّف تمارينه. في البيت يتناول أنواعاً من الحساء قليلة الدهن، كحساء الخضر والبازيلاء والفطر، ويقطع حطباً للوقود، ويستعيض عن الجيلاتي باللبن المحلى. وما إن ينتصف الشهر الثاني حتى يكون وزنه قد هبط فيقول: "عادت ملابسي منطبقة على قياسي."

إن ابداعكم في التخلص من السمنة التي تكسبونها خلال أيام العطلة والاعياد يجلو عنكم همّاً يجهد الناس للانعتاق منه. وهنا بعض الاقتراحات المدهشة التي تساعدكم على استعادة رشاقتكم:

١. كونوا خُفراء في مطبخكم. تخلصوا مما تحويه خزائن مطبخكم من بقايا أطعمة غنية بالدهن، كاللحوم المعلبة والأجبان المصنوعة من الحليب الكامل الدسم. ولابأس اذا تناولتم لحم البقر الخالي من الدهن. تقول ميلودي توكر الخبيرة في إنقاص الوزن: "ثمة قلّة من متذوّقي لحم البقر المفروم تعرف أن غسل اللحم بالماء الساخن يزيل منه مزيداً من الدهن."

لا يمكنكم إنقاص وزنكم بتناول أطعمة معلّبة هي في الغالب غنية بالدهن. فاقرأوا الملصقات على العلب. وللتأكد من مقدار ما تحتويه العلب من دهن، توصي ندرا ولسن المتخصصة بعلم تنظيم التغذية باتّباع الطريقة الآتية لقياس مقدار الدهن في كل مادة: "اضربوا في عشرة عدد غرامات الدهن المعلنة للوجبة الواحدة في الملصق، وقارنوا ذلك "المجموع الدهني" بعدد السعرات الحرارية (الكالوري) المعلنة لكل وجبة (على الملصق أيضا). فاذا زاد المجموع الدهني على ثلث عدد السعرات، تكون المادة محتوية على نسبة مرتفعة جداً من الدهن."

ومتى تخلّصتم من الأطعمة الغنية بالدهن، تزوّدوا في منزلكم أطعمة تفتقر الى الدهن. فثمة كثيرون ممن يتبعون نظام حمية قائما على أطعمة قليلة الدهن وعلى حرمان النفس من فطائر اللحم والجبن والمقالي والحلوى، يشكون من أنه "لم يبق لهم شيء لذيذ يأكلونه." لكن الواقع هو أن المتاجر زاخرة بمئات المواد الغذائية اللذيذة القليلة الدهن التي يجدر بهم أن يختبروها. فإلى مؤونتكم من الخضر والفواكه الطازجة وصدور الدجاج الرومي المسلوخة الجلد، اختبروا أطعمة لم تتذوقوها قبلاً.

وأحياناً، يشكو الذين يعتمدون نظاماً غذائياً فقيراً بالدهن من شعور دائم بالجوع. ويقول بريانت ستامفورد عالم الفيزيولوجيا الرياضية: "لا داعي الى ذلك. فالدهن يحتوي على تسع سعرات حرارية في كل غرام، والكربوهيدرات على أربع سعرات فقط، لذا في الامكان تناول ضعفي كمية الكربوهيدرات واستهلاك مقدار أقل من السعرات الحرارية." ويضيف ستامفورد: "لنفترض أنكم تأكلون عادة حبة بطاطا مشوية مع الزبدة والقشدة. فاذا أبدلتم الزبدة والقشدة باللبن الخالي من الدسم، ففي وسعكم أن تتناولوا حبّتين من البطاطا بحيث تستهلكون عدداً أقل من السعرات الحرارية وتشعرون في الوقت ذاته بالاكتفاء."

٢. ضاعفوا نشاطكم. أتبعوا العُطل والاعياد بحملات تنظيف، كغسل النوافذ ومسح الأرضية وترتيب القبو والمرأب وصقل أواني النحاس والفضة. تقول بولا ألن المستشارة في شؤون التغذية: "يدهش زبائني حين يسمعون أن الاعمال المنزلية الخفيفة لها تأثيرها. فالواقع أن العمل نصف ساعة يومياً في

غسل الصحون يدويا وترتيب غرف النوم وتحضير العشاء من أصناف غير جاهزة قد يحرق ٥٠٠ سعرة حرارية في الأسبوع.

واذا كنتم عازفين عن التمرين، فتذكروا النشاطات التي أحببتموها يوما، مثل البستنة والسباحة وكرة الطاولة، وعودوا الى ممارستها. فأي نشاط جسدي يساعد في ازالة الوزن الزائد."

٣. أطردوا الكحول من حياتكم. في كل غرام من الكحول سبع سعرات حرارية، وهي مسمِّنة مثل الدهن. وأسوأ من ذلك أنه على أثر جرعة أو جرعتين من المشروب تتعثّر قدرتكم على ضبط شهيتكم. وحين تقدَّم المقبّلات تتخاذلون أمام اغرائها. ويقول الصحافيان جو وتيري غريدن مؤلّفا مجموعة "صيدلية الشعب": "إذا تناولتم بضع جرعات من المشروب وطبقا كاملاً من المقبلات فانكم تستهلكون عدداً من السعرات يعادل ما تحويه وجبة إضافية كاملة." وتوصي خبيرة التغذية سيسيلا فيليتي بالاستعاضة عن الكحول بكأس من الماء الفوّار مع أنواع من عصير الفاكهة المفضّلة.

٤. تناولوا الوجبات الخفيفة. خلافا لما يعتقده كثيرون من متّبعي الحمية، لا تعتبر الوجبات الخفيفة السريعة أمراً شائنا. وتقول تريش راتو المديرة المساعدة لمركز تحسين الصحة من جامعة كاليفورنيا في بيركلي: "اذا طال امتناعكم عن الأكل اشتدَّ نهمكم وسهل اغراؤكم بالتهام أطباق غنية بالدهن."

إذاً احتفظوا في متناولكم بوجبات خفيفة قليلة الدهن مثل الكعك والفاكهة، فهي تشعر المرء بالاكتفاء. وتوصي ميلودي توكر بأن يُكسى الكعك بالمربى، فهو خال من الدهن وحلو المذاق، ويُشعر بالاكتفاء.

أما الفشار (البوب – كورن) فهو أيضا من الوجبات الخفيفة الشائعة القليلة الدهن. غير أن ثمة أنواعا كثيرة منه تحضّر في الميكروويف (فرن الموجة الصغرى) وتحوي نسبة مرتفعة من الدهن. فالأفضل اذاً تحضير الفشار في وعاء تحميص خال من الزيت. وانثُروا عليه فلفلاً حلواً (بابريكا) وقليلاً من جبن البارميسان، أو استخدموا صلصة الصويا أو الفلفل أو مسحوق الزنجبيل.

٥. تمتعوا بالحلوى، ولكن اذا عزفتم عن الحمية، فكلوا الحلوى القليلة الدهن. وقد ذهب الخبراء الى القول إن السكّر مسمِّن، لكنهم يدركون الآن أن الدهن المتلازم معه هو المسبِّب الفعلي للسمنة. ويشرح ولسن ذلك: "إن مشكلة الحلوى ليست في السكّر، وإنما في الدهن الذي تحويه."

فبدلاً من تورتة الفاكهة، تناولوا سلطة الفاكهة. وبدلاً من الجيلاتي، تناولوا اللبن المثلَّج الخالي من الدهن.

٦. اخفضوا شهيتكم. ثمة طريقة لخفض استهلاك السعرات الحرارية تقوم على تناول حصص صغيرة. ولكن بذلك تبدو الصحون فارغة فيشعر ممارسو الحمية بعدم الاكتفاء. تقول راتو: "استعملوا صحوناً صغيرة واملأوها، فهذا يشبع العين والنهم ويخفض في الوقت ذاته عدد السعرات الحرارية المستهلكة." واشربوا الماء قبل تناول الوجبات وأثناءه، فذلك يساعد على الشعور بالشبع.

تقول راتو: "ان الحساء المحضّر في البيت قد يبعث على الاكتفاء ويحتوي على سعرات قليلة نسبياً." ولكن احذروا مرق اللحم، فهو في الغالب غني بالدهن. فما الحل اذاً؟ تقترح توكر: "اخزنوا المرق في الثلاجة فيصعد الدهن الى السطح ويتجمّد. وما عليكم عندما تفتحون الوعاء سوى أن تقشدوا الدهن عن وجه المرق المتجمد."

اذا اعتمدتم السلطة طبقاً رئيسياً، فقد تكون عنصراً مهماً في إنقاص الوزن. كوّموا كل ما تشتهونه من الخضر الطازجة، ولكن احذروا الاضافات التي تحتوي على نسبة عالية من الدهن. المايونيز، مثلاً، غني بالدهن وإن احتوى على نسبة متدنية من الكولسترول.

قد تمرّ فترة بعد خفض الدهن في طعامكم وتكثيف تمارينكم، قبل أن يبدأ وزنكم بالهبوط. وتقول توكر: "لا ترتقوا الميزان يومياً لئلا تشعروا بالاحباط اذا اكتشفتم أن وزنكم لم ينقص فتتخلّوا عن برنامجكم."

لذلك تفقّدوا وزنكم مرة في الاسبوع، أو لا تتفقدوه أبداً. وليكن انطباق ملابسكم على أجسامكم مقياس نجاحكم.

أخيراً، لا تخرجوا جائعين من البيت، بل تناولوا قبل خروجكم حبة فاكهة أو فطيرة بالمربى أو كوباً من الحساء. فذلك يحصّنكم من الطعام الجاهز الرديء الذي تقدّمه السوبرماركت أو من المقبّلات المغرية الغنية بالدهن التي تُقدّم في الحفلات أو من الخبز والزبدة في المطاعم.

وتذكروا ان الحمية التي تعتمد التقليل من الدهن والتمرين المنتظم تساعد في ضبط الوزن، وقد تخفّف خطر الاصابة بمرض القلب والسكتة الدماغية (الفالج) والسرطان والسكري. وهذه أربع علل في رأس قائمة الأمراض التي تسبّب الوفاة. فاذا اعتمدتم بعضاً من هذه التوجيهات، مباشرة بعد عطلة الاعياد، فستتخلّصون من السمنة التي اكتسبتموها وتطمئنون بالاً طوال السنة وتسيرون في الطريق القويم الى صحة أفضل.

مايكل كاسلمان ■

يمكنني القيام بعمل واحد في آن، لكنني أستطيع تفادي القيام بأعمال كثيرة في وقت واحد.

ا.ب.

أجوبة "هل تعرف أنك عبقري؟"

١. هو ابنه.

٢. ٢٧. كل رقم هو ثلاثة أضعاف سابقه.

٣. لا يقرأ الكتاب من عنوانه.

٤. ١٠ مكعبات. ارتفاع الكدسة في الزاوية الخلفية ثلاثة مكعبات نرى واحداً منها، والصف الثاني يرتفع مكعبين واحد منهما مختف في كل جهة.

٥. الروزنامة.

٦. ينال مصطفى ١٥ نقطة وفق نظام يعطي ٥ نقاط لكل مقطع لفظي من الاسم: س/ ليـ/ ما/ نُ، /سا/ مي،/ مي، مصـ/ طـ/ فى.

٧. ٢٤.

٨. كهف. البقية من صنع الانسان.

٩. ٢٠.

١٠. ثلاثة صبيان وأربع بنات.

١١. التفاح. كلاهما فاكهة تنمو على شجر، فيما الفجل والبطاطا جذور خُضَر.

١٢. من يسكن بيتاً من زجاج لا يرشق الناس بالحجار.

١٣. (ج). ابحثوا عن الشكل الذي يحوي حلقة بيضاء في جانب ومثلثاً يحوي ثلاث نقط في الجانب الآخر.

١٤. "هاجموا فجر السبت." خذوا الحرف الاول من كل كلمة.

١٥. الاثنين.

١٦. (٦). اقسموا الرقم الاول في كل صف على الرقم الثاني، تحصلوا على الرقم الثالث.

١٧. (أ). يدور الشكل الخارجي كل مرة ربع دورة في اتجاه عقارب الساعة، فيما يتنقل الخط بين يمين ويسار، ويدور الشكل الصغير ربع دورة بعكس اتجاه عقارب الساعة.

١٨. هي أنت.

١٩. ١و٢و٣.

٢٠. (ت). الحروف هي الاولى من اسم كل شهر ميلادي بدءاً بكانون الثاني.

المستوى

تنالون نقطة عن كل اجابة صحيحة. أضيفوا ٥ نقاط اذا أنهيتم الاختبار في أقل من ١٥ دقيقة، و٣ نقاط اذا أنهيتموه في أقل من ٢٠ دقيقة، ونقطتين اذا أنهيتموه في أقل من ٢٥ دقيقة.

٢٠ - ٢٥ نقطة: أنتم شديدو الذكاء ومرشحون مثاليون لعضوية "منسا."

١٥ - ١٩ نقطة: أنتم من بين أذكى الناس حواليكم ومرشحون لعضوية "منسا."

١٠ - ١٤ نقطة: نتيجة محترمة جداً. قد ترغبون في تجربة اختبار "منسا" القياسي بكامله.

دون الـ١٠: لا بد أنكم تمرون في وقت صعب. واعلموا أن كثيرين من الاذكياء والمبدعين أخفقوا في اختبارات كهذه.

كتاب الشهر

هنري الثامن



السفّاح

هنري الثامن السفّاح

مُلخّص من كتاب «هنري الثامن»
بقلم جون ادوارد باول



غالباً ما يُصوّر الملك الذي حكم بريطانيا ثمانية وثلاثين عاماً مثل طاغية أو، في فضلى الحالات، مثل صاحب "اللحية الزرقاء" في الرواية الكلاسيكية. ولا شك في أن هنري الثامن الذي ولد قبل ٥٠٠ سنة ونيف عاش حياة صاخبة وأصدر حكمه الرهيب باعدام اثنتين من زوجاته علناً، الا أن هذا الحاكم الذي أرعب رجال البلاط بنوبات غضبه وعواصف انتقامه كان عاشقاً سهل الانخداع، كما كان حاكماً داهية أقام دولة حديثة وأسس الاسطول الملكي.

تعمق البروفسور جون باول في سيرة هذا الرجل الاسطورة وفي الاحاديث المتناقلة عنه ليجمع هذه الصورة الساحرة والموثّقة للملك هنري الثامن على حقيقته: رجل مغرور عنيد مخادع، لكنه أيضاً راعٍ للعلوم وممثل رئيسي في مسرح السياسة الاوروبية. ملك عظيم كان عهده من أكثر العهود ثورية في تاريخ بريطانيا.

CONDENSED FROM «HENRY VIII,» © JOHN BOWLE 1964, 1973, PUBLISHED BY DAVID & CHARLES.
WITH ADDITIONAL MATERIAL FROM «THE MAKING OF HENRY VIII» BY MARIE LOUISE BRUCE, PUBLISHED BY COLLINS
ILLUSTRATIONS: THYSSEN — BORNEMISZA COLLECTION; REPRODUCED BY GRACIOUS PERMISSION OF
HER MAJESTY THE QUEEN; BRITISH TOURIST AUTHORITY LONDON PUBLIC RECORDS OFFICE;
BRIDGEMAN ART LIBRARY / KUNSTHISTORISCHES MUSEUMS, VIENNA

عشية يوم التتويج غصت شوارع لندن بأهاليها وبالقادمين من الارياف الذين تجمعوا متشوقين لرؤية ملكهم الجديد ومليكته متوجهين الى وستمنستر.

بدا هنري الثامن شاباً وسيما متألقا في وشاح من المخمل القرمزي مبطّن بفرو القاقم فوق سترة ذهبية تشع بحجار الياقوت والزمرد والالماس واللآلىء. كان يمتطي جواداً قويا زُركش سرجه بالدمقس الذهبي تحت مظلة حملها بارونات "المرافىء الخمسة."[١]

أما الملكة كاثرين فحُملت في محفة على جوادين صغيرين أبيضين وقد ارتدت ثوبا من الحرير الابيض وشعرها الطويل الجميل منسدل على ظهرها من تحت تاجها.

نام الملكان تلك الليلة في قصر وستمنستر، وفي اليوم التالي، ٢٤ يونيو (حزيران) ١٥٠٩، أجريت مراسم التتويج المهيبة في كاتدرائية وستمنستر. ومشى هنري أخيراً تحت ظلة أرجوانية خارجاً من البوابة المقنطرة الى واحد من أكثر العهود ثورية في تاريخ بريطانيا.

كان الملك الجديد الابن الثالث للملك هنري السابع أول ملك من أسرة تيودور وقرينته اللايدي اليزابيت من يورك. ولد في ٢٨ يونيو (حزيران) ١٤٩١ في العزبة الملكية في غرينيتش حيث تعبر السفن نهر التيمز الى البحر ويهب الهواء منعشاً مع رائحة الغار ونداءات طيور النورس.

شب هنري مع شقيقه الاكبر آرثر وشقيقته الكبرى مارغريت والصغرى ماري في جو من الترف والامتيازات والطقوس المعقدة. حُمل وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره ليمثل أمام رجال البلاط المجتمعين في قصر وستمنستر حيث يقوم البرلمان اليوم. فوقف الطفل يحدق مذهولا بمظاهر الابهة فيما أعلنه المنادون "دوق يورك." كان اللقب ذا دلالة اذ أكد نسبه اليوركي من جهة والدته. وجرت العادة منذ ذلك الوقت على أن يحمل الابن الثاني لملك بريطانيا هذا اللقب.

كان أولاد هنري السابع يأتون الى وستمنستر في المناسبات الرسمية فقط. فالقصر، وهو المنزل الملكي ومقر البرلمان في آن، كان فوضى من المباني يمر التيمز تحت نوافذها، غير صحي ومهدداً بفيضان النهر. أما القصور الريفية فكانت أسلم للصحة.

أمضى هنري معظم طفولته في بلدة إلثام قرب غرينيتش وتعلَّم على فريق متمكن من المدرسين. وهو اهتم بالرياضيات وكان طليقاً في الفرنسية واللاتينية وملماً بالاسبانية والايطالية.

زار إراسموس المفكرُ وعالمُ الانسانيات الهولندي بلدة إلثام، وكتب لاحقاً أن الامير

(١) المرافىء الخمسة (Cinque Ports) مجموعة مدن ساحلية في جنوب شرق انكلترا ضمت دوفر وساندويتش وورومني وهاستنغز وهايث، كانت تتمتع بامتيازات خاصة (الغيت في القرن التاسع عشر) في مقابل خدمات دفاعية على الساحل.

هنري كان وهو في الثامنة من عمره بدأ يبرز "بعضاً من الملوكية في سلوكه." وتُظهر أقدم صورة رُسمت لهنري طفلا مبكر النضج يقظاً وشديد الملاحظة.

في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥٠١ ضمن والد هنري تحالفاً مع اسبانيا بزواج ابنه آرثر، الصبي الوسيم الرقيق ابن الخمسة عشر ربيعاً، الاميرة كاثرين الاراغونية ابنة الملك فرديناند والملكة ايزابيلا. كانت كاثرين عالية الثقافة أنيقة رائعة الجمال في الخامسة عشرة من عمرها، ذات عينين رماديتين وشعر بني ضارب الى الذهبي. وقرعت أجراس لندن فيما هنري الصغير يقود عروس شقيقه الى كاتدرائية القديس بولس لاتمام مراسم الزواج.

دخل آرثر وكاثرين تلك الليلة فراش الزوجية علناً وسط احتفالات صاخبة كما كانت عادة ذلك الزمن. وكان لما حدث – أو ما لم يحدث – تلك الليلة في لندن، ولاحقاً في قلعة لودلو حيث أمضى الزوجان شتاءهما، نتائج خطيرة على مستقبل انكلترا.

توفي آرثر بداء السلّ بعد أقل من خمسة أشهر على زواجه. وبدا الحلف بين البلدين الى دمار. لكن فرديناند وايزابيلا، اللذين مارسا لعبة سياسة القوى، لم يرفّ لهما جفن حزناً، بل ركزا على تدبير أمر زواج الامير هنري، ولي العهد البيِّن الجديد، بابنتهما كاثرين.

عقدت خطبة هنري وكاثرين رسمياً، وهو في الحادية عشرة من عمره، بتدبير أقره مرسوم جِلٍّ بابوي. وفي ١١ يونيو (حزيران) ١٥٠٩، بعد وقت قصير على وفاة والده بداء السل هو أيضاً، عقد قران هنري ابن السابعة عشرة – وقد أصبح الملك هنري الثامن – على كاثرين في غرينيتش.

بدأ الزوجان على أثر تتويجهما بعد أسبوعين سلسلة صاخبة من الحفلات الصيفية والمباريات والصيد والرقص. وفي الامسيات كان هنري يقتحم مخدع الملكة متنكراً فتظهر هي مقداراً وافياً من الذعر والدهشة ثم... الارتياح.

أمضت كاثرين معظم أوائل حياتها الزوجية وهي تبدي اعجابها بهنري وتكرر على مسامعه كم هو رائع. وكتب أحد المراقبين أن "جلالة الملك لا يهتم الا بالصيد والنساء."

بلغ هنري في السن الثامنة عشرة أوج فتوته فتجاوز طوله ١٨٠ سنتيمتراً وبدا وجهه الابيض المورّد طفولياً فوق عنقه الثخينة. كان مرحاً جداً يهوى الالعاب وينهك الجميع بحيويته. فقد تحدّر من سلالة مغامرين ويلزيين أشداء متعطشين الى القوة. وغنم والده هنري تيودور العرش بالغلبة اذ هزم الملك ريتشارد (ريكاردوس) الثالث في معركة بوزورث فيلد في ليسترشاير ووضع على رأسه تاج الملك المقتول الذي وجده تحت شجيرة زعرور.

وكان هنري الثامن المراهق نهّاز فرص ماكراً يتفهم أحاسيس شعبه. وكان الشعب يحمّل اثنين من المسؤولين الحكوميين – السر ريتشارد امبسون وادموند ددلي – ملامة الضرائب الباهظة التي فرضها هنري السابع. فأمر الملك الجديد بسجنهما في برج لندن بتهمة "الخيانة المفترضة." وفي أغسطس (آب) ١٥١٠ بينما كان البلاط محتفلا في قلعة وندسور نفذ فيهما حكم الاعدام.

وأصبح نمط الاعتقال المفاجيء والتهم الملفقة والاعدام وسيلة هنري للتضحية ببعض الاغنياء كأكباش محرقة لسياساته ولتصفية من لم يعد وجودهم ملائماً.

قوة أوروبية جديدة

كانت انكلترا التي ورثها هنري الثامن غنية باقتصاد مكتف ذاتيا الى حد بعيد. ولم يكن الانكليز يعتمدون على الاستيراد وقتذاك، في ما عدا الحرير والافاويه ونحوها. وكانت كبرى صناعاتهم صناعة الملابس الصوفية، وحملت قطعان الاغنام الكبيرة وفرة من المواد الخام. كما كانت مجموعات الاجراس في الابراج المهيبة في كوتسوالدس وايست أنغليا رموزاً للثروة التي أتت بها الاثواب الصوفية.

بلغ تعداد قطعان الغنم نحو ثمانية ملايين رأس في مقابل تعداد سكاني دون الثلاثة الملايين. كانت لندن وبريستول ويورك ونورويتش هي المدن الرئيسية الوحيدة، حتى ان زائراً من البندقية أشار مستغربا الى قلة الاشخاص الذين رآهم أثناء انتقاله من دوفر الى أكسفورد عبر لندن.

وملَك هنري، وأكسبته فتوته وحيويته المتوثبة شعبية في أنحاء المملكة لم تبددها أبداً قسوته في زمن لاحق. وهو أهمل شؤون الحكم منصرفا الى الملذات، فكان البرلمان لا يجتمع الا عندما يدعوه هو، لاقرار ضريبة جديدة عادة. وكان مجلس بلاطه فريقاً من الرجال القادرين يتولى جميع الشؤون العادية. كان هنري، بمعايير الحاضر، مديراً عاماً يحب أن يرى الاوراق الواردة ملخصة والصادرة وقد أعدت نصوصها. وهذه خدمات أداها له عضو في مجلسه هو توماس ولسي ابن السابعة والثلاثين.

كان ولسي ابن جزار من ايبسويتش رأى في الكنيسة الكاثوليكية طريقاً الى السلطة، فكد وثابر ليصبح عميد لنكولن والقس الملحق بالملك. اتقن الصيد وتمتع بالحياة الى أقصى الحدود. كان متملقا حاذقا ففتن الملك الشاب الذي كان يعجب بالذكاء والحيوية والظرف.

عهد هنري الى ولسي في تجهيز جيش له عندما قرر دخول حلبة صراع القوى الاوروبية بمهاجمة فرنسا. وكانت انكلترا في ذلك الوقت قوة من الدرجة الثانية، وكانت سلالة تيودور تعتبر حديثة النعمة مقارنة بجلال سلالتي فالوا وهابسبرغ. لكن فرنسا

كانت في حلف مع الاسكوتلنديين المستعدين دائماً لاستغلال أي نقطة ضعف لدى انكلترا، كما كانت السفن الفرنسية تهدد طرق التجارة البريطانية. فقرر هنري وولسي الهجوم عبر مضائق دوفر في صيف ١٥١٣ وملاقاة الامبراطور الروماني مكسيميليان الذي كان في نزاع مع فرنسا.

قبل الابحار ارتكب هنري أولى جرائمه. فهو كان الى هذا الوقت من دون وارث، اذ ولدت كاثرين طفلتها الاولى ميتة، ثم ولدت صبياً سمّي هنري في احتفالات صاخبة لكنه توفي لاحقاً. فماذا يحدث اذا قتل الملك في المعركة؟ كان هناك مُطالب بالعرش يدعى دوق سافوك، وكان أسيراً في برج لندن، لكن أصوله اليوركية من جهة والدته شقيقة الملكين ادوارد الرابع وريتشارد الثالث قد تمثل تحديا لسلطة كاثرين وترفع علم "الوردة البيضاء" من جديد. فأصدر هنري أمراً باعدام سافوك.

بحلول مايو (أيار) ١٥١٣ وصل ١٤ ألفا من جنود هنري الى كاليه حيث كانت تقيم حامية بريطانية منذ أكثر من ١٥٠ عاماً. ووصل هنري في يونيو (حزيران) مع ١١ ألف رجل بمن فيهم حاشية ضخمة من نافخي الابواق والسيّاس والخدم.

تحرك مكسيميليان وجيشه لملاقاة هنري قرب مخيمه. وكان هذا، وقد نمت لحيته حمراء، يمتطي جواده الكميت الضخم المزين بأجراس ذهبية ويعلو الجميع بقامته المديدة. "كان ملك انكلترا،" كما ذكر أحد المرتزقة الالمان، "رجلاً لائقاً يتحدث الى الناس بود ومعرفة."

استولى هنري بمساعدة مكسيميليان على تيروان التي تبعد حوالى ٤٨ كيلومتراً عن كاليه داخل فرنسا. ثم فرض حصاراً على تورنيه قرب مدينة ليل. وفي ٢٥ سبتمبر (أيلول) دخل الملك والامبراطور البلدة في موكب مشاعل وتسلّما مفاتيحها.

وتتويجاً لذلك أرسلت الملكة كاثرين، التي كانت تُركت في انكلترا وصيةً على العرش مكلّفة الدفاع عن المملكة، أخباراً رائعة: كان جايمس الرابع ملك اسكوتلندا (وزوج مارغريت شقيقة هنري الكبرى) عبر نهر التويد غازياً على رأس ٣٠ ألف رجل. فواجهت كاثرين الازمة بشجاعة ومني الاسكوتلنديون بهزيمة منكرة في فلودين قرب بيرويك على أيدي ٢٠ ألف مقاتل انكليزي بقيادة ايرل اوف صاري.

كتبت كاثرين الى زوجها: "سوف يرى جلالتكم كيف أحفظ وعودي. لذا أرسل اليكم هذا المعطف." وكان المعطف غنيمة خاصة اذ كان للملك الاسكوتلندي المقتول. فعرضه هنري على مكسيميليان مزهواً.

ترك الانكليز حامية في تورنيه وانسحبوا ذلك الخريف عبر بلدتين أصبح اسماهما مألوفين لدى شعبهم في الزمن الآتي: ايبر ودنكرك.

أثبتت انكلترا أنها عدو خطر، فسعى الفرنسيون الى حلف معها، ووافق ملكهم لويس

الثاني عشر، وكان أرمل في الثانية والخمسين من عمره، على الزواج بماري شقيقة هنري ابنة الثامنة عشرة. وبحلول نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥١٤ أصبحت الاميرة الصغيرة، مرغمةً، ملكة على فرنسا. وهكذا خرج هنري منتصراً اذ حققت انكلترا مكانة متقدمة بعدما شدت قبضتها على القارة وأخضعت اسكوتلندا.

ولسي الطاووس

ساعد في تحقيق الانتصارات على الارض الفرنسية هجومٌ بحري انكليزي على شواطىء بريتاني عمل على إلهاء الفرنسيين وتحويل سفنهم عن مضائق دوفر. وأدرك هنري الثامن أن استمرار نجاحه في لعبة سياسة القوى الاوروبية هو رهن مشروع عزيز على قلبه: بناء أسطول بحري قوي.

كانت السفن تثير افتتانه. وهو أبدى اهتماما شخصيا وخبيراً بالاسطول طوال عهده، فشكل هيئة أركان بحرية فاعلة، وأنشأ مجلسا دائما للاسطول، وشجع تطوير المهارات الملاحية وتحسين دقة أجهزة الملاحة وتصاميم السفن. وبنى أحواضاً جديدة لاصلاح السفن في وولوتيش وديتفورد (باعتبار بورتماوث أكثر تعرضا لهجمات الفرنسيين). وأقر انشاء نقابة لملاحي مصب نهر التيمز تحولت في العام ١٥١٤ "هيئة ترينيتي هاوس" التي ما زالت الى اليوم مسؤولة عن المنارات في كل بريطانيا.

ورث هنري عن والده سبع سفن حربية رئيسية. وفي العام ١٥١٥ ملك سفينة شراعية ضخمة دعاها "فيرجين ماري" يحركها ١٢٠ مجذافا وتحمل ١٠٠٠ رجل وقد سُلِّحت بـ٢٠٧ مدافع صغيرة. وكان هنري نفسه يقود هذه السفينة مرتديا معطف قبطان وسراويل من القماش الموشى بخيوط ذهبية وسلسلة ثخينة من الذهب تدلّت منها صفارة ضخمة كان ينفخ فيها مصدراً، كما يروى، "صوتاً كأنه نفير بوق."

أما في البر فقد تابع هنري احتفالاته الصاخبة، وانغمس في رياضة المبارزة متجاهلا توسلات كاثرين اليه ليأخذ جانب الحذر. وكان يسقط منافسيه وخيولهم معهم. وخلال احدى المباريات في يناير (كانون الثاني) ١٥١٦ وضع على رأسه اكليلا من الحرير الاخضر موشى بأكواز رمان رمزاً للخصب. وفي الشهر التالي ولدت له كاثرين في غرينيتش ابنة سميت ماري، فعرضها هنري فرحا على السفراء ورجال البلاط قائلاً: "سيليها صبي بنعمة الله."

كانت الطفلة ورقة مهمة في لعبة سياسة القوى الاوروبية. اذ لم يدم زواج شقيقة هنري المراهقة ماري ولويس الثاني عشر الا أشهراً قليلة. فقد توفي الملك الفرنسي – منهكاً بأعبائه الملكية كما قيل – وتزوجت ماري سريعاً من جديد، كما فعلت شقيقتها مارغريت التي ترملت بعد مقتل جايمس الرابع ملك اسكوتلندا.



(فوق) كاثرين الاراغونية.
(الى اليمين) الاميرة ماري اولى اولاد هنري الثامن، خلفت اخاها ادوارد على العرش.

أعاد ولسي رباط التحالف الانكلو – فرنسي في أكتوبر (تشرين الاول) ١٥١٨ بعقد خطبة ابنة هنري الرضيعة الاميرة ماري، بخاتم متناه في الصغر، الى طفل الملك الفرنسي الجديد فرنسوا الاول. وبموجب المعاهدة المعقودة تخلت انكلترا عن تورنيه لفرنسا في مقابل ٦٠٠ ألف كراون (ما يعادل ٤٨ مليون جنيه استرليني اليوم) وحصل ولسي على مكافأة ضخمة من فرنسا، كما اتفق فرنسوا وهنري على الاجتماع قرب كاليه في موعد لاحق لاقرار مصالحة نهائية.

أدى انتصار ولسي الديبلوماسي، اضافة الى حلف آخر ترددت أصداؤه في أوروبا وجمع انكلترا وفرنسا والامبراطورية الرومانية والكرسي البابوي والدول الاسكندينافية والبرتغال، الى إبراز الرجل كأنه مهندس السلام الاوروبي. وكان هو عاقداً العزم على أن يتبوأ السدة البابوية، وقد أصبح في ذلك الوقت كبير أساقفة يورك وكاردينالاً ورئيساً لمجلس اللوردات ولمجلس القضاء الاعلى في انكلترا جامعاً، بعد الملك، السلطة العليا في الكنيسة والدولة. كان "هذا الرجل الوقح الشرير" – كما وصفه شكسبير – حاكم انكلترا الفعلي.

كانت عجرفته ممجوجة. واعتاد الناس سماع صرخة "أفسحوا الطريق للسيد" فيما

ولسي يعبر أروقة القصر يسبقه أربعة من المشاة بألبستهم السوداء والقرمزية وهم يحملون فؤوس القتال. وكان "ختم انكلترا الاعظم" وقبعة الكاردينالية يحملان أمامه.

استاء الناس من سيطرة ولسي الظاهرة على الملك. أما هو فأتقن طريقة التعامل مع سيده. فكان يهدي الى هنري جوهرة ثم يلمّح الى فكرة جديدة فيما الملك يتلهى بها.

فلماذا تحمَّل هنري الاشاعة المتسائلة: "أليس من ملك في انكلترا؟"

لقد نبع رضاه من قناعة قديمة تتعلق بتمايز السلالة الملكية.

كان حكام القرن السادس عشر يؤمنون بأن رعاياهم ليسوا بشراً تماماً وانما كائنات تُحكم وتُستغل وتُرمى. وكان هنري يرى في ولسي مجرد أداة، فاسترخى وتركه يعمل، عارفاً أن شدة حبل كانت كافية لانهاء الرجل، اذ لا أحد يمسك هنري الثامن في قبضته.

رمال متحركة

كان هنري يهوى الموسيقى، فركَّب أراغن فخمة في قصوره و"اقتنى" فرقة موسيقية ملكية كان ستة من منشديها يسافرون مع الحاشية دائماً. كما كان يحب رؤية وجوه مستبشرة تحيط به، وحرص على أن يتقاضى أفراد حاشيته القريبون رواتب عالية. كان الوصيف يتقاضى نحو ١٠٠ جنيه في السنة (٣٠ ألف جنيه بمقاييس اليوم).

كان هناك رضى، ظاهرياً على الاقل، في "حقل قماش الذهب"[٢] حيث عقد الاجتماع الموعود بين فرنسوا الاول وهنري الثامن قرب كاليه. وكان الهدف المعلن للاجتماع تشريع قوانين لكنه تحول تظاهرة مثيرة مفرطة في التباهي.

تجاوز عدد أفراد الحاشية الملكية الانكليزية الخمسة الالاف، ومعهم أكثر من ٣٠٠٠ حصان وكميات ضخمة من التجهيزات. وانهمك ٨٠٠٠ عامل في اعداد الموقع، وشيد قصر موقت من الخشب وقماش القنب والزجاج على أسس من الآجر (القرميد). وارتدى فرنسوا الاول ثوباً من قماش الذهب تحت وشاح مزدان بالجواهر، فيما تضمنت بزة هنري وشاحاً مزدوجاً من قماش الذهب يشع بالحجار الكريمة.

أُعد كل شيء بتنظيم متناه في الدقة. وفي ٧ يونيو (حزيران) ١٥٢٠، بعد أيام من الاتصالات الديبلوماسية على مستوى مسؤولين أدنى رتبة في البلدين، وصل الموكبان الملكيان الى الساحة في تمام الساعة المتفق عليها. فعزفت الابواق وحث الملكان جواديهما قُدُماً للقاء. فتعانقا ثلاثاً وهما ممتطيان، ثم ترجلا وتعانقا مرة أخرى ودخلا السرادق الذهبي حيث عقد اجتماع القمة.

(٢) Field of Cloth of Gold

تلا الاجتماع أسبوعان من المبارزات والمآدب حطم خلالهما الملكان عشرات الحراب وبارزا خصوماً مختارين بسيوف ذات مقبضين (تستخدم باليدين) وبقسوة جعلت الشرر يتطاير من درعيهما. كانا بذلك يفتحان شهيتهما جيداً لمآدب عامرة من لحم الغزلان وسمك الكراكي والحفش والاوز العراقي (التم) وطيور التدرج والبلشون الابيض وثمار البرتقال وحلوى الكسترد وفطائر الخوخ، تساعد على ابتلاعها براميل من الشراب.

مرت لحظة واحدة من التوتر الحقيقي عندما ألقى هنري بيده الثقيلة على عنق الملك الفرنسي قائلا: "تعال نتصارع!"

قبل فرنسوا التحدي، واشتبك العاهلان الفارعا الطول في صراع جسدي على طريقة ذلك الزمن. فأدّى الفرنسي، باحتراف، حركة دائرية سريعة وألقى بالانكليزي على الارض. وكرر هنري التحدي غاضبا، لكن مداخلات سريعة لرجال الحاشية أنهت هذا الشكل الغريب من الدبلوماسية.

كان مفترضاً أن تضع القمة حداً للعداء بين انكلترا وفرنسا، لكن عيني هنري كانتا على العرش الفرنسي. كما أن ولسي الطامح الى البابوية رغب في علاقة أوثق مع الامبراطور الروماني تشارلز الخامس القوة الثالثة في أوروبا وابن أخت الملكة كاثرين. كان تشارلز أبحر الى دوفر وعقد محادثات مع هنري قبيل مغادرة هذا الى قمة فرنسا. وهما اجتمعا ثانية خارج كاليه ووضعا خطة لحلف دفاعي ضد فرنسا.

عادت الافكار السود تراود هنري حول خلافته لدى عودته من فرنسا. كانت الاميرة ماري وارثته الشرعية الوحيدة، وهو "أثبت" أن عدم انجاب أمير ذكر ليس غلطته هو، ففي العام ١٥١٩ ولدت له عشيقته الجميلة اليزابيت بلاونت، ابنة أحد اقطاعيي شروبشاير، صبيا سمي هنري فيتزروي (أصبح في ما بعد دوقا على ريتشموند وسومرست). كما أن كاثرين كانت ستبلغ الاربعين من عمرها بعد سنوات قليلة فينعدم امكان حملها ثانية.

أما بالنسبة الى خطبة ماري الى الابن البكر لملك فرنسا، فقد أدرك هنري صعوبة مشاركة أي أمير فرنسي في العرش الانكليزي وإن كزوج للملكة. فالشعب يكره الفرنسيين، وقد تنشب حرب أهلية لدى اعتلاء ماري العرش اذا كانت متزوجة بفرنسي.

قرر هنري ضرورة ازاحة المرشح الاقرب لخلافته، وهو صديقه الثري دوق بكنغهام المتحدر من صلب ادوارد الثالث.

دبّر ولسي "الطبخة"، فقد كان يكره ذلك الوارث المتعجرف. ووجدت محكمة في لندن أن الدوق مذنب بجريمة "تخيُّل وفاة الملك" في العام ١٥١٩. وكان التكهن بموت

الملك يعتبر آنذاك خيانة عظمى. فمثل بكنغهام في قاعة وستمنستر أمام هيئة من الاشراف كان كل أعضائها يرهبون الملك، فقرروا أنه مذنب. واقتيد الى برج لندن ونفذ فيه حكم الاعدام بالفأس.

المصيبة

احتاج هنري الى تمويل الحرب الجديدة التي قرر خوضها ضد فرنسا. وكان بدد ثروة والده على الحرب السابقة وعلى حياة البذخ التي اعتادها. فذهب ولسي الى مجلس العموم المنعقد في ابريل (نيسان) ١٥٢٣، وطلب ما كان وقتئذ مبلغاً هائلاً هو ٨٠٠ ألف جنيه تجمع بفرض ضريبة من ٤ شلنات على كل جنيه من قيمة كل الاراضي والبضائع.

استقبل أعضاء المجلس الكاردينال بصمت عنيد، فالحملات الخارجية لم تكن مقبولة شعبياً. وفي النهاية وافقوا على شلنين لكل جنيه. لكن المبلغ لم يكن كافياً، فتخطى ولسي البرلمان وطالب بـ"منحة حُبِّية" من العلمانيين والاكليريكيين استمد مبرراتها من نظام "مساعدات" اقطاعية قديمة كانت تدفع عندما يقوم الملك نفسه بحملة خارج انكلترا. فارتفعت أصوات معارضة عنيفة في كنت وإسكس.

تدخل هنري مدركاً اتجاهات الرأي الشعبي، فأعلن العودة عن الضريبة وعن الحرب، ونال كل الرصيد الشعبي الناتج من قراره فيما تحمل ولسي كل اللوم. وحاول الكاردينال اصلاح الامر وقد أدرك أن نجمه الى أفول وأن سيده المتطلب لم يجد لذة في هبوط شعبيته للمرة الاولى منذ اعتلائه العرش، فأهدى الى هنري قصر هامبتون كورت الفخم الذي أصبح واحداً من مساكن هنري الاثيرة.

نجح ولسي في تدبير خطبة الاميرة ماري الى تشارلز الخامس، لكن هذه العلاقة لم تعمر طويلا، اذ وجد الامبراطور في العام ١٥٢٥ أن الحكمة السياسية تقضي بالتخلي عن ماري لمصلحة أميرة برتغالية. فتحول هنري وولسي، وقد اعتبرا الامر مهيناً، الى اقامة حلف مع فرنسا. وأقر السلام بين البلدين في أغسطس (آب) من العام نفسه.

حاولت الملكة كاثرين من دون جدوى اعادة العلاقات الطيبة مع ابن شقيقتها تشارلز. فقد كان ولسي يسعى الى الثأر من الامبراطور الذي لم يساعده ليصبح بابا، فيما كان هنري يفكر بالطلاق من كاثرين، وقضت خطة ولسي بأن يتزوج هنري أخت زوجة الملك الفرنسي الاميرة رينيه. لكن هنري كان يتوق الى الطلاق لسبب آخر، فقد كانت لعشيقته السابقة ماري بولين شقيقة اسمها آن في العشرين من عمرها ذات عينين سوداوين وثغر رائع وشعر أسود أملس.

وكان هنري في سكرة من الهوى.

بين صيف ١٥٢٧ وخريف ١٥٢٨ كتب هنري الى آن بولين ١٧ رسالة (هي محفوظة الآن في الفاتيكان) ملأى برغبة مشبوبة. وهو كشف لها مكنونات قلبه واعداً: "سوف أبرّك حباً ووفاء." ودعاها "المرأة التي هي عندي أغلى ما في العالم." وأرسل اليها مرة غزالا اصطاده بنفسه "آملا في أن تفكري في الصياد عندما تتذوقين الصيد."

في هذه الاثناء كان ولسي يحاول اقناع روما بالموافقة على اعتبار زواج هنري وكاثرين لاغيا. كانت النقطة الحرجة هي ما اذا كان زواجها بالامير آرثر ثم بدخوله عليها أم لا. فاذا ثبت تمامه يكون هنري يعيش "حياة خطيئة" مع أرملة شقيقه ويمكن اعتبار الزواج غير شرعي.

أرسل البابا كليمنت السابع الكاردينال لورنزو كامبيغيو الى انكلترا للتحقيق مع ولسي في دعوى الملك. وبدأت المحاكمة في ١٨ يونيو (حزيران) ١٥٢٩ في بلاكفرايارز. ركعت الملكة التي استثيرت مشاعرها أمام هنري لتعلن: "انني أشهد العالم كله على أنني كنت لك الزوجة الوفية المتواضعة المطيعة... وأنني كنت عندما دخلتَ عليّ فتاة عذراء لم يمسسني رجل." وأضافت مستهدفة النقطة الاكثر حساسية لدى هنري: "وانني أترك لضميرك أن يقرر ما اذا كان قولي صحيحا أم لا."

فحدق اليها هنري متملكا عواطفه.

عُرضت الشهادات طويلا من دون حسم للموضوع. فقرر البابا في يوليو (تموز) تحت ضغط من تشارلز الخامس سحب القضية واعادتها الى روما.

لقد خيب ولسي أمل سيده ثانية. وأسوأ من ذلك أن القضية جعلت الملك يبدو أحمق، فهو اعتمد على كاردينالـه لانضاج الطبخة في انكلترا، لكنها الآن أفلتت من سيطرته.

صب الملك غضبه على ولسي فحطّ من مكانته وأمره باعادة الختم الاعظم. بكى ولسي واستعطف لكن هنري انتهره ورذله. فعاد مهانا الى يورك في الشمال آملا في تقاعد مشرّف. الا أنه لم يستطع التخلي عن لعبة سياسة القوة، وسرعان ما بدأ يراسل ملك فرنسا والامبراطور والبابا.

في أكتوبر (تشرين الاول) ١٥٣٠ نمي الى هنري أن البابا، بتأثير من ولسي، منع زواجه بآن ما دامت دعوى إبطال زواجه بكاثرين قائمة. فأمر الملك الغاضب باعتقال ولسي بتهمة الخيانة العظمى.

لم يصل الكاردينال الكهل الى لندن، اذ أصيب بالزحار (الديزنطاريا) في دونكاستر. وعندما وصل اليه آمر برج لندن مع ٢٤ من أفراد الحرس الملكي، أدرك ولسي ما يخبئه له هنري. وتفاقم مرضه ونقل الى لستر وقد بات عاجزا عن ركوب جواده. وعاش بعد ذلك يومين فقط. وهو قال: "لو خدمت الله كما خدمت الملك لما تخلى عني في آخر

أيام حياتي." وهكذا مات توماس ولسي آخر أسقف من القرون الوسطى ملكَ سلطة توجيه القرار في انكلترا.

شارف هنري الثامن السن الاربعين وبات في ذروة سلطته قادراً عندما يستثار على اخذ قرارات مستبدة. لقد اكتملت الشخصية التي صوَّرها رسام بلاطه هانس هولباين. كان، كما وصفه أحدهم، "جباراً مخيفا له جسم كجذع ثور قائم على ساقين مثل عمودين. رأسه شامخ مرتد الى أعلى في وقفة تحد ودعوة الى القتال. الذقن ثقيل ملتحٍ، الفم شهواني، الانف صغير ضار، والعينان مستويتان كعيني صقر."

لم يخطر في بال هنري أن قوة خارجً انكلترا يمكن أن تردعه عن عمل ما. وهو قال مرة: "لم يكن لملوك انكلترا أسياد في الارض."

الفضيحة

ماطل هنري في قضيته غير عابىء بسحب الدعوى الى روما. وظل يبحث عن طريق للالتفاف حول المأزق.

كان هنري متعمقا في علوم الدين. وأكسبه كتاب ألّفه في العام ١٥٢١ لقب "حامي الايمان" من البابا، وهو لقب لا يزال ملوك بريطانيا يحملونه منذ ذلك الوقت. لكن كنيسة القرون الوسطى كانت في هذه الاثناء تفقد وهجها، وانتشرت الدعوة الى الاصلاح في أوروبا الغربية وتسربت الى انكلترا.

قرر هنري أن الحل الوحيد لمشكلته يكون بالانفصال عن روما والسير على هواه. فتزوج آن بولين في أواخر يناير (كانون الثاني) ١٥٣٣ وكانت حاملاً. وأقر البرلمان اشتراعا خطيراً أعلن فيه الملك رأسا للكنيسة والدولة. وفي ١٣ مايو (أيار) أعلن توماس كرانمر، رئيس أساقفة كانتربري الجديد، إبطال زواج هنري وكاترين. ونفيت الملكة "الارملة" الى قصر كئيب يحوطه خندق مائي في عزبة كيمبولتون.

لكن هنري تزوج في آن امرأة تتارية. كانت مصابة بالعصاب وتظهر مشاعرها بوضوح مبالغ فيه. وسرعان ما صار هنري يخافها قليلا ويخشى فورات غضبها التي كانت تربكه. وفي أكتوبر (تشرين الاول) ١٥٣٣ ثارت ثائرتها غيرة لان هنري غازل امرأة أخرى، فأخبرها أن عليها أن تغمض عينيها وتتحمل الامر كما فعلت من هي أفضل منها.

كان الملك مقتنعا بأن آن ستحمل له صبيا. لكنها ولدت طفلة في ٧ سبتمبر (أيلول) في غرينيتش. كظم هنري خيبته وأمر باقامة حفلة صاخبة. وقد أصبحت الطفلة في ما بعد اليزابيت الاولى عظمى ملكات انكلترا، لكن الحدث في وقته كان طرف الغيمة التي حجبت آن بولين في النهاية.

بحلول نوفمبر (تشرين الثاني) ١٥٣٤ كان هنري قد مضى بعيداً في طريقه الانعزالي الجديد. وأقر البرلمان "قانون السيادة" الذي كرس الملك رأساً لكنيسة انكلترا مع كل السلطة الزمنية التي للبابا، واعتبر رفض الاعتراف بهذا القانون خيانة، الامر الذي أنهى حياة عدد من الرجال الفاضلين. فشنق جون هيوتون أسقف كنيسة لندن وجُرّ وقُطِّع في تايبرن، كما أرسل عشرات آخرون الى برج لندن.

وفي الصيف التالي قضت شخصية أخرى ذات شهرة خاصة: السر توماس مور أحد الذين تولوا رئاسة مجلس اللوردات في بلاط هنري وصديقه منذ الطفولة. وقد عُرض عفو على مور، لكنه رفض قبول مبدأ أن يكون زعيم زمني رأساً للاكليروس. فأبدل هنري حكم الاعدام المذل في تايبرن الى حكم بقطع الرأس في البرج.

بعد أشهر في السجن انهار مور جسدياً لكنه بقي صامداً على رأيه. وهو أعطى الجلاد قطعة نقد ذهبية وأخبره أن له عنقاً قصيرة، ثم أزاح لحيته جانباً وهو يقول: "لم تسىء هذه الى الملك."

وكان الملك خرج بحاشية كبيرة الى الجنوب قبل تنفيذ حكم الاعدام بيوم واحد.

آن بولين (الى اليسار) وابنتها اليزابيت في عامها الثالث وهي خاتمة سلالة تيودور.



وكان يحلو له الظهور أمام الناس وبت أمورهم المحلية وتحسس اتجاه الرأي العام. كان مرهوب الجانب، مكروها ربما، لكن هيبته كانت هائلة ومنزلته رفيعة، وكان أعداؤه مدجّنين.

حل في مكان ولسي "يدأ يمنى" لهنري سكرتير ولسي السابق توماس كروموبل، وهو ابن حداد من بوتني. فبات كروموبل أعظم نابغة اداري في عصره، أصلح الماكينة الحكومية جذريا بحيث دام تأثيره حتى حكم الملكة فكتوريا. وهو صمم على أن يجعل من هنري "أغنى ملك عرفته انكلترا."

سعى الرجلان الى مصادر جديدة للدخل. وكان تقويم أجري في وقت سابق من السنة أظهر أن دخل الكنيسة بلغ ٣٠٠ ألف جنيه سنوياً. فقرر هنري، وهو سيد بيته، أن يصادر ثروات الاديرة. كانت هناك ٥٦٣ مؤسسة دينية، بعض أغناها وأقدمها مهابة قدّمها الى الكنيسة ملوك مشهورون، وكانت تشبه قصور النبلاء وتحوي سبائك من الذهب والفضة ومزارات فخمة تشع فيها المجوهرات.

خطط هنري وكروموبل بدهاء لكسب موافقة البرلمان على عملية المصادرة باثارة النقمة على لاأخلاقية رجال الاكليروس. فانطلق عملاء كروموبل في يوليو (تموز) ١٥٣٥ يبحثون عن أدلة على الفساد.

جمع هنري في أشهر قليلة كل الادلة التي احتاج اليها لاستصدار وثيقة برلمانية تقضي بحلّ كل المؤسسات الدينية.

وتوفيت الملكة "الارملة" كاثرين في كيمبولتون في ٧ يناير (كانون الثاني) ١٥٣٦ بعدما خطت رسالة تدل على سموّ تفكيرها: "من جهتي، أغفر لك كل شيء وأتمنى مخلصة أن يغفر لك الله كذلك. أخيراً، أقسم أن عينيَّ تطلبانك أكثر من كل شيء." لقد أحبت كاثرين هنري لذاته، خلافا لكل زوجاته اللاحقات، فهما عاشا شبابهما معا.

حملت الملكة آن ثانية، لكنها لم تجد في حملها مبعثاً للسرور، فقد علق زوجها بحب فتاة جديدة. كان هنري التقى في سبتمبر (أيلول) السابق في ويلتشير فتاة تدعى جين هي الابنة الكبرى للسر جون سيمور الحارس التقليدي لغابة سافرنيك. كانت جين في السادسة والعشرين من عمرها، صغيرة الحجم جميلة تتميز بضبط النفس خلافاً للعصبية المستبدة آن بولين. فافتتن هنري بجاذبيتها. ولتهدئة أفكاره وعواطفه انغمس في مباريات مبارزة في منتصف يناير (كانون الثاني). وعلى عادته، ركب مخاطر رهيبة وعاني سقطة قوية بقي بعدها غائبا عن الوعي ساعتين. وفي وقت لاحق قال اللورد مونتغيو أحد رجال بلاطه: "ان ساقه ستقتله." ولما كان التكهن بموت الملك خيانة عظمى (كما اكتشف دوق بكنغهام السيىء الطالع في العام ١٥٢١) فقد أعدم مونتغيو لتهوره.

عيَّن هنري جين وصيفة شرف للملكة. وفي أواخر يناير (كانون الثاني) ١٥٣٦ قبلت جين من هنري قلادة تحمل نموذجا مصغراً للشعار الملكي. واكتشفت آن الامر فثارت ثائرتها. فقال لها هنري: "اهدأي يا حبيبتي." ولم تكن هذه المرة الاولى يحاول تهدئتها، وكان يفكر في جنينها بلا شك، لكنها انتزعت القلادة من عنق جين بشبه جنون، فجرحت يدها. وفي ٢٧ يناير (كانون الثاني) وضعت صبياً ميتا.

دخل هنري غرفتها مهتاجا واتهمها بأنها سبب الكارثة. فردت غاضبة أنها غلطته هو لانه اقام علاقة مع تلك الساقطة. فأجابها بقسوة: "لن تحملي مني أطفالا بعد اليوم."

انسحبت جين سيمور الى ويلتشير. وسرعان ما بدأ هنري يكتب اليها: "صديقتي العزيزة وعشيقتي، ان حامل هذه الاسطر القليلة من خادمك المخلص كليا سيضع في يدك عربون حبي الصادق." وهو أمل أن يستقبلها قريباً. ووقع الرسالة بـ"خادمك المحب ومليكك، هـ.ر."

الموت بالسيف

كانت جماعة آن بولين داخل القصر مؤيدة لفرنسا وتضع العراقيل في طريق تفاهم جديد مع تشارلز الخامس يخطط له كرومويل. ولم يكن هنري يسهل الامر على مساعده، فقد أصبح حاد الطباع على نحو متزايد كأنما ليحقق "نبوءة" أنه سيبدأ عهده بوداعة حمل وينهيه أشرس من أسد. وكان يوجه اهانات الى سفير الامبراطور في ثورات غضب متمادية. ولم يكن كرومويل عرف الملك متناقضا الى هذا الحد من قبل، فصمم على ازاحة الملكة آن.

كان كرومويل يتجسس على الملكة منذ زمن طويل. وفي ٢ مايو (أيار) ١٥٣٦ اقتيدت الى البرج بتهمتي الخيانة والزنى، كما اتهمت لاحقاً بأنها سخرت من هنري ومن الشعر الذي كان يكتبه.

مثلت آن في ١٥ مايو (أيار) أمام محكمة من الاشراف، وراحت تفنِّد الاتهامات بنداً بنداً بقدرة وعناد. وقيل إن هنري علق على ذلك قائلا: "ان لها قلبا شجاعا، لكنها ستدفع الثمن."

أعدم عاشقو آن المزعومون. وفي ١٩ مايو (أيار) ارتقت هي منصة الاعدام في تاور غرين. فأعطتها احدى وصيفاتها الاربع قبعة من القطن ورفعت شعرها، فيما عصبت أخرى عينيها. وكان الملك منحها التماساً أخيرا، فأحضر سيّاف سانت اومير، أبرع جلادي العصر وأنقهم، بسيفه الكبير الدقيق التوازن.

أثار الاعدام ضجة في الخارج، لكنه لقي ترحيبا في انكلترا حيث كان الشعب ناقما على آن لعجرفتها وبذخها.

تزوج هنري جين سيمور في ٣٠ مايو (أيار). وفي نهاية يونيو (حزيران) أُعلنت جين ملكة، وأقرت وثيقة خلافة اعتبرت اليزابيت "غير شرعية" وأبقت ماري محرومة من اعتلاء العرش.

بدت الملكة الجديدة حيية تحب العزلة. لكن هنري كان شغوفا بها. وهو كان في هذا الوقت بلغ قمة جديدة من السلطة، وبدأ يبني القصور ببذخ، فتحول بلاط هامبتون الى ما هو الآن، وأضيفت أجنحة ومداخل جديدة الى مبنى البرج والى قصر وندسور. وبنى هنري كذلك دارة فخمة من الآجر الاسود في حي سانت جايمس في لندن ما زالت بوابتها العظيمة جزءاً من قصر سانت جايمس ولا يزال ينادى بملوك بريطانيا عن شرفتها.

مر صيف ١٥٣٦ على البلاط سلسلة من حفلات التنكر والمبارزات والاحتفالات الصاخبة تمحورت كلها على ملك صار ألين عريكة وأرق حاشية. وفي يوليو (تموز) من ذلك العام توفي ابنه غير الشرعي هنري فيتزروي بداء السل وهو في السابعة عشرة من عمره. ولكن بحلول ربيع ١٥٣٧ أصبحت جين حاملا. وفي ١٢ أكتوبر (تشرين الاول) وضعت صبياً سمي ادوارد. كان الابتهاج يفوق الوصف. فجنت لندن وتدفقت النوافير شراباً. وغمرت النشوة هنري وقد تقلص خطر النزاع على خلافته وبدا أن اللعنة انزاحت أخيراً، فحمل الامير الطفل وبكى فرحاً.

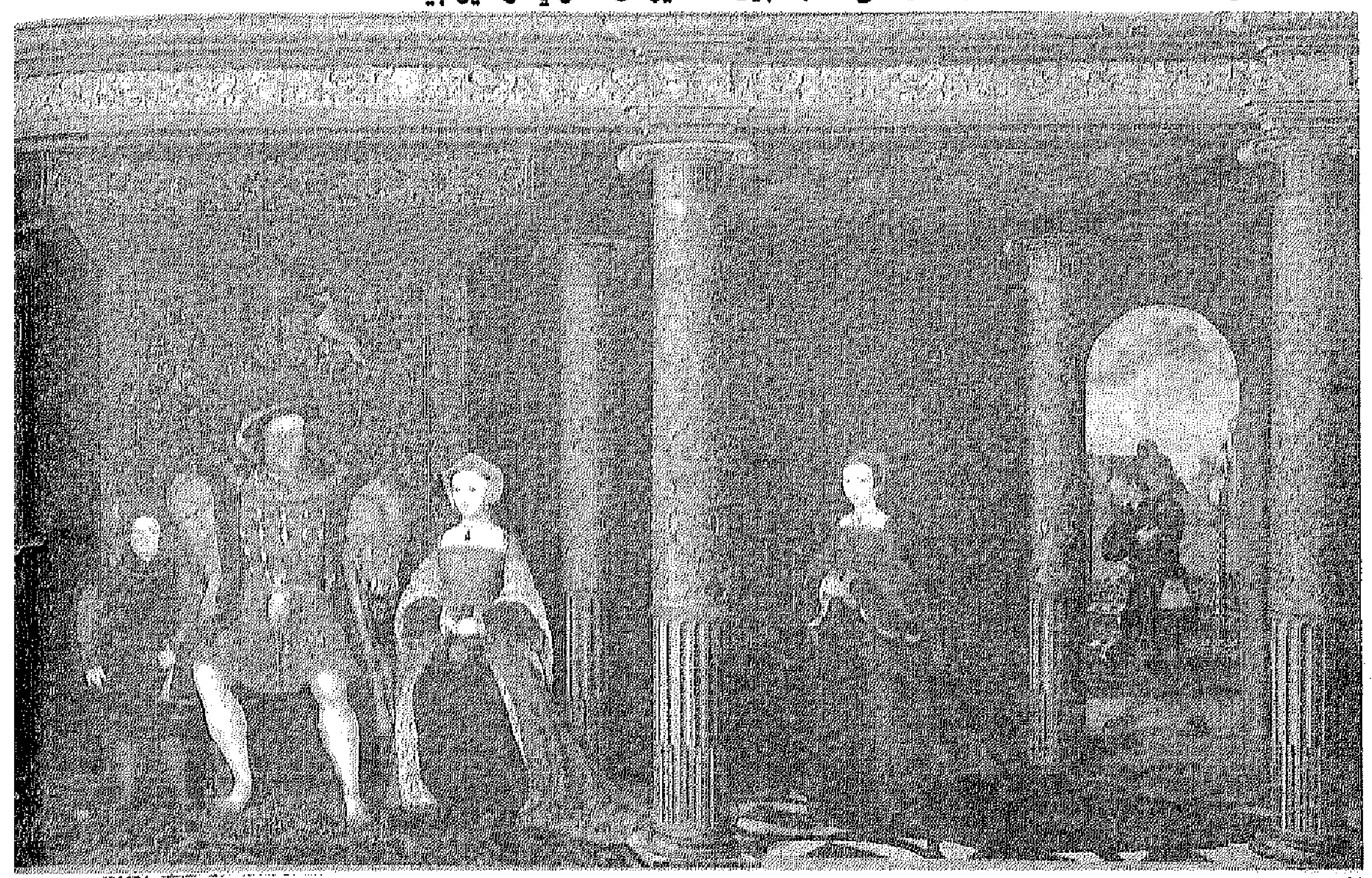
لكن الملكة أصيبت بحمى النفاس وراحت تهذي، فهي لم تستطع أن تتحمل مشاق استقبال الجماهير ووفود التهنئة، وكانت حضرت حفلة استقبال كاملة استمرت ست ساعات. وتوفيت في ٢٤ أكتوبر (تشرين الاول)، فغادر هنري قصره وحيداً الى وندسور ليخلو الى أحزانه. كانت جين سيمور الزوجة التي أحبها أكثر من الجميع، وهو أوصى بأن يدفن معها عند موته في المقبرة الملكية في وندسور.

استمر حل الاديرة وبيعت أملاكها الواسعة مما أدى الى بروز طبقة جديدة من أسياد الارض واتساع عقارات النبلاء. كما استمر تحطيم المزارات مما أكد نهائية الانفصال عن روما بطريقة تفهمها الشعب.

لكن هنري، عندما هاجم الكنيسة، كان يعتزم اعادة تنظيمها بطريقة مهيبة تنشّط سلطتها وتعيد نشر هذه السلطة. وهكذا تم تحويل المؤسسات القديمة في ونشستر ونورويتش وديرهام وإلاي ووستر بترقية رجال الدين المدعنين ليصبحوا أساقفة وعمداء. كما أنشأ هنري ست أبرشيات جديدة في تشستر وأكسفورد وبيتربورو وبريستول ووستمنستر. وفي ما عدا الاخيرة، لا تزال هذه الابرشيات قائمة الى اليوم.

أعمل هنري مكنسته في مجالات أخرى. فأحدث تغييرات جذرية في جامعتي أكسفورد وكامبريدج مهاجماً الاساتذة والطلاب، حتى انه ألغى احتفالاتهم التقليدية

لوحة رمزية تصوِّر عائلة هنري الثامن لو عاشت جين سيمور بعد وليدها الاول. ويظهر هنري وجين في الوسط مع وارثهما الامير ادوارد، وعلى الجانبين الاميرتان ماري واليزابيت.



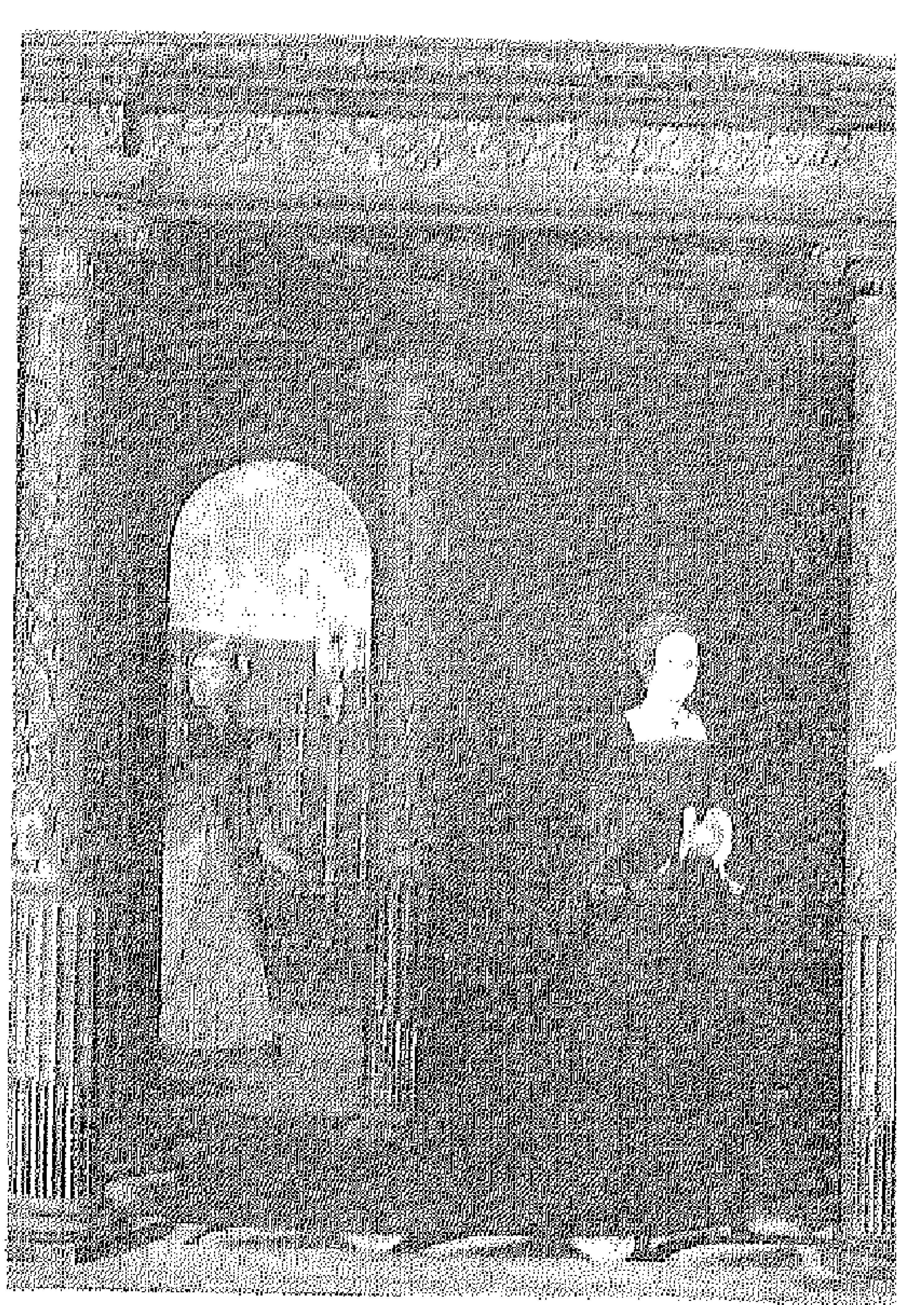
العزيزة وأنشأ منحة "أستاذ شرف" في اللاهوت والعبرية واللاتينية والطب والقانون المدني. وكان على كل طالب جامعة أن يحضر محاضرة في اليوم والا فقد حقه في الطعام. ولم يفتر تشجيعه للعلم أبداً، وهو أعاد في السنة الاخيرة من حكمه تأسيس كلية الكاردينال ولسي في جامعة أكسفورد كما أنشأ كلية ترينيتي في كامبريدج وهي أفخم الكليات في كلتا الجامعتين.

زوجتان أخريان

كان توماس كرومويل محتقراً من زملائه في المجلس اذ كان دخيلاً على طبقة النبلاء ومكروها من الشعب لتصميمه على إثراء الملك والدولة بأي طريقة. وها هو يرتكب الغلطة القاتلة ذاتها التي ارتكبها سلفه الكاردينال ولسي. لقد جعل سيده يبدو مغفلا.

بدأ هنري، بعد وفاة جين سيمور، البحث عن زوجة جديدة تكسبه حليفا من الخارج وتهبه صبيانا يضمنون خلافته. فمشط كرومويل البلاطات الاوروبية بحثا عن مرشحة. فاختار كريستينا دوقة ميلانو وابنة شقيق تشارلز الخامس، لكنها لم تقبل ذلك الشرف، وأشيع أنها قالت إنها كانت لترضى بالزواج من هنري لو كان لها رأسان.

وجاء رد الفعل في البلاط الفرنسي ساخطا، وأشار السفير الفرنسي الى أن سيدات بلاده لسن للعرض.



اختار كرومويل في النهاية فتاة تدعى آن من عائلة كليفز التي كانت تحكم دوقية على ضفتي الراين الادنى. كانت آن في الرابعة والعشرين من عمرها وفيها آثار جدري، ولم تكن تتكلم سوى الالمانية. لكن خلفيتها كانت مقبولة وملبية لطموح كرومويل الهادف الى اقامة توازن قوى في أوروبا. فقد كان شقيقها يسيطر على مناطق استراتيجية بين أراضي الامبراطور في ألمانيا والبلاد الواطئة (هولندا وبلجيكا واللوكسمبور).

أحس هنري أنه مدفوع الى عمل لا يريده، لكن كرومويل أكد له أن الجميع يمتدح جمال آن. وأرسل رسام البلاط لرسمها فعاد هذا بصورة نالت موافقة هنري.

لكن وصول آن الى انكلترا أكد أسوأ شكوك هنري. وذكر ايرل سوثامبتون أن "جلالة الملك لم يكن راضياً عندما رآها شخصياً."

عقد الزواج في ٦ يناير (كانون الثاني) عام ١٥٤٠ وسط مظاهر فخامة عظيمة، لكن هنري نفر من عروسه واشتكى من أنه لا يستطيع "التغلب على الاشمئزاز من رفقتها." وبعد ثمانية أيام قال كرومويل حزيناً: "لا تزال الملكة وصيفة عذراء لجلالة الملك."

انقض هنري على كرومويل بعد ظهر العاشر من يونيو (حزيران) ١٥٤٠ لهذه الاساءة الشخصية. كان المجلس منعقداً والنوافذ مفتوحة لهواء الصيف والبحث في جدول الاعمال جارياً الى الطاولة المستديرة المغطاة بالمخمل. فجأة دخل قائد حرس الملك واعتقل كرومويل بتهمة الخيانة والهرطقة.

وأقر البرلمان بسرعة مرسوماً بفسخ زواج هنري (ذكرت في المبررات علاقة سابقة بين آن وماركيز لورين وشهادة بأن الزواج لم يتم) ومنحت آن معاش تقاعد سنوياً كبيراً. وهي قابلت الفراق بفرح واشترت كميات كبيرة من الثياب.

التمس المجلس من الملك "أن يدير قلبه الانبل بين قلوب الرجال ناحية الحب." وكانت بين وصيفات آن اوف كليفز واحدة تدعى كاثرين هوارد هي ابنة شقيقة دوق نورفوك. كانت جذابة المظهر في التاسعة عشرة من عمرها، قصيرة، ممتلئة، حيوية، ذات شعر كستنائي وعينين عسليتين. وكانت فارغة الرأس. فاستهوت هنري مذ رآها للمرة الاولى، وامتدحت عائلتها "طهارتها وصدقها."



آن كليفز في اللوحة التي لم تظهر آثار الجدري في وجهها.

تزوج هنري كاثرين في ٢٨ يوليو (تموز) ١٥٤٠، يوم قطع رأس كرومويل في تايبرن. وأحيا الزواج نشاط هنري وأصبح نمطه اليومي محموماً. كان ينهض مع الفجر فيحضر الصلاة ثم يركب باكراً للصيد ويعود الى وليمة هائلة. ولوحظ أن "افراطه في الاكل والشرب رائع."

كان هنري، وقد اقترب من الخمسين، سميناً أصلع منتفخ الخدين وعانى قروحا كبيرة مؤلمة على ساقيه أعاقت دورته الدموية وظلت تؤرقه الى نهاية حياته. لكنه بحلول الخريف وبعد رحلة ملكية الى الشمال زار خلالها لينكولن ويورك وهال، عاد الى بلاط هامبتون بصحة جيدة وصلى شاكراً الله "على الحياة الجيدة التي أمضاها والتي يأمل أن يمضيها" مع الملكة الجديدة.

لكن أعداء آل هوارد كانوا يعملون في هذه الاثناء. وكان أحدهم رئيس الاساقفة كرانمر، وهو لم يتجرأ على اخبار هنري مباشرة، فدس في يده رسالة تضمنت اتهامات بسوء مسلك كاثرين قبل الزواج.

وسرعان ما انكشف ماضي كاثرين وسيقت اليها اتهامات أخلاقية. وفي ٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ركب هنري سفينة الى لندن لحضور اجتماع المجلس، ولم ير كاثرين ثانية.

جلس الملك في الاجتماع صامتاً مستغرقا في تفكيره وقد تهاوى آخر أوهام شبابه الرومانسية،

ثم شرع يبكي مربكاً أعضاء المجلس الصارمي الوجوه.

نقلت كاثرين الى برج لندن في أوائل فبراير (شباط) على متن بارجة مغلقة مرت تحت رؤوس عشاقها المعلقة على جسر لندن. وهي ربما كانت سخيفة وحمقاء ولا أهمية لحياتها، لكنها عرفت كيف تواجه الموت. ففي ١٢ فبراير (شباط)، ليلة ما قبل اعدامها، أرسلت في طلب خشبة الاعدام وتدربت على وضع رأسها كما يجب. وفي صباح اليوم التالي أنجز الفأس عمله سريعاً.

يروى أن اللايدي لاتيمر (المولودة كاثرين بار) عندما لاحظت أن هنري الثامن يتودد اليها قالت إنها تفضل أن تكون خليلة الملك على أن تكون زوجته. لكنها بحلول ابريل (نيسان) ١٥٤٣ جهزت بائنة[٣] من الاثواب الفرنسية والهولندية والفينيسية.

كانت اللايدي لاتيمر، خلافاً لكاثرين هوارد، مثقفة وذات مزاج ودود، وهي ابنة السر توماس بار اوف كندال من وستمورلند رئيس الحاشية الملكية في ما مضى. وكانت في الحادية والثلاثين من عمرها وقد خبرت الزواج مرتين.

في ١٢ يوليو (تموز) عقد قران هنري في بلاط هامبتون على زوجته السادسة والاخيرة. وعندما سأله أسقف وندسور هل يقبل بكاثرين زوجة له، أجاب فرحاً: "بالتأكيد!"

غزو فرنسا

أحس أهل البلاط بارتياح لتحسن مزاج مليكهم. وأثبتت اللايدي لاتيمر أنها عامل مهدىء و"خالة" متفهمة لاولاد هنري. كانت تشجع ماري ابنة السابعة والعشرين على ترجماتها اللاتينية. وكانت اليزابيث التي بلغت السن العاشرة تريها كتاباتها. وكان الامير ادوارد ابن السنوات الست يدعوها "ريجينا نوبيليسيما" (الملكة النبيلة) و"ماتر كاريسيما" (الام الحنون). وتمكنت كاثرين من "ترويض" هنري الذي لم يصبح أقل فجائية لكنه كان يخطو، في أوائل الخمسينات من عمره، الى ما سماه هو نفسه "شيخوختي."

لم يحل أحد مكان كرومويل، فقد بات هناك نظام بيروقراطي متماسك مع مجالس منفصلة لمقاطعات ويلز والشمال وايرلندا، واحتفظ هنري بزمامها في قبضته.

قرر هنري أن يذهب الى الحرب، اذ كان الملوك في ذلك الزمن يخوضون الحروب لان ذلك ما يتوجب على الملوك أن يفعلوه. كان عازماً على مهاجمة بولونيا، لان كاليه كانت موطىء القدم الوحيد الباقي



رسم لسيدة مجهولة يُعتقد انها كاثرين هوارد بريشة الفنان الالماني هانس هولباين.

(٣) البائنة جهاز العروس.



كاثرين بار، الزوجة التي عاشت بعد موت هنري الثامن.

لانكلترا على أرض القارة الاوروبية، واحتلال بولونيا عند رأس غري نيه سيقوي سيطرته على مضائق دوفر.

احتاج هنري أولا الى أموال كثيرة بعدما أهدر معظم الثروة التي جمعها له كرومويل. وكان البرلمان صوّت في السنة السابقة على منح هنري تمويلا اضافيا، فاضطر الآن الى اعفائه من "الديون" الباهظة التي تراكمت عليه.

هذا الاذعان المتآمر لمطالب هنري أكسب البرلمان حظوة لديه.

وأحس أعضـــاء مجلس العمــوم خصوصا بازدياد أهميتهم، اذ منحوا عام ١٥٤٢ حرية الكلام وحرية الوصول الى الملك عبر وفود، كما حصلوا في العام ١٥٤٣ على حصانة من الاعتقال. ومع تعاظم حاجات الملك تعاظمت سلطة مجلس العموم.

أبحر هنري الثامن في ١٤ يوليو (تموز) ١٥٤٤ توّاقا الى قيادة الهجوم على بولونيا بنفسه. كانت معنوياته عالية. وكثيراً ما كان يغط في النوم وتصعب عليه الحركة لثقل وزنه، لكنه ظل ذلك الجندي الذي يتمنى أن يحيا حملات شبابه من جديد. وكان الهدف الثاني للحملة احتلال مونتراي كقاعدة مفيدة في الدفاع عن بولونيا.

في منتصف أغسطس (آب) كان أهل مونتراي المحاصرة يأكلون لحم الخيول، لكن البلدة لم تسقط أبداً. وفي ١١ سبتمبر (أيلول) شهد هنري سقوط قلعة بولونيا. وكتب شاهد عيان: "لم أرَ الملك في حياتي بهذا الابتهاج وهذه المعنويات المرتفعة."

استسلم الفرنسيون حكماً في ١٣ سبتمبر (أيلول). وكان أفراد الحامية وأهالي المدينة منحوا الامان، لكن كثيرين منهم غادروا المدينة، رجالا ونساء وأطفالا وعربات وخيولا، ومرّوا مجهدين أمام الملك الضخم المهيب الذي جلس يراقب رحيلهم راضياً.

انسحب هنري تاركاً حامية للدفاع عن بولونيا وقفل الى انكلترا للمرة الاخيرة.

واجه هنري وقد بلغ الرابعة والخمسين أخطر تهديد بالغزو في عهده. فقد جمع الفرنسيون في يوليو (تموز) ١٥٤٥ أسطولا ضم أكثر من مئتي سفينة في مرفأ الهافر.

كان هدفهم مهاجمة بورتسموث وجزيرة وايت لاستعادة السيطرة على القناة الانكليزية .

وكان الانكليز مستعدين لهم بفضل حكمة هنري الثامن في تطوير البحرية الانكليزية. كانت سفنه الحديثة مجهزة بمدافع قوية، وعلقت آمال كبيرة على السفينة "ماري روز" الثقيلة التسليح.

"أضربوا وإلا..."

كان يوم ١٨ يوليو (تموز) قائظاً في بورتسموث ولا نسمة هواء تحرك مياه الميناء الساكنة. وكان هنري يتناول عشاءه على متن سفينة القيادة عندما أبلغ اليه اقتراب السفن الفرنسية الغاصّة بالرّماحة وحملة البنادق. فهرع الملك الى الشاطىء. وجهد ربابنة الاسطول في توجيه سفنهم لملاقاة العدو، لكن الريح لم تساعدهم.

أخيراً، بعد ظهر اليوم التالي، هب نسيم مفاجىء حرك الهواء الرطب الحار فتحركت السفن الضخمة. ولم يرتح الاميرال الفرنسي دانبو الى منظر تلك السفن ولا الى التيارات المائية في الميناء واحتمال مواجهة عاصفة تهب من الجنوب الغربي. فجأة ضربت كارثة الاسطول الانكليزي، اذ مالت السفينة العظيمة "ماري روز" على جنبها وغرقت.

بكى هنري ألماً. وقضى في الحادث أكثر من ٤٠٠ رجل وأنقذ عشرون أو ثلاثون. وكتب تاجر فلمنكي: "أخبرني أحد الناجين أن سبب الكارثة هو عدم اغلاق فتحات المدافع في الصف الاسفل. وكانت السفينة تحاول الاستدارة عندما ضربت الرياح أشرعتها وأمالتها، فغطست فتحات المدافع تحت سطح الماء الذي تدفق داخل السفينة وأغرقها."

انسحب الاسطول الفرنسي. وفي الايام التالية نفذ عمليات انزال في بمبريدج وشانكلين على جزيرة وايت، وهدد سيفورد وغزا برايتون وأحرقها. لكن مواجهة "حامية" مع الانكليز خارج مياه شورهام حسمت المعركة. وفي الصباح كان الفرنسيون قد رحلوا، اذ تفشت الامراض بين بحارتهم ونقص الماء والطعام لديهم ولم يبق أمامهم الا الانسحاب الى مرفأ الهافر. وهكذا أرغمت أضخم قوة غزت انكلترا منذ العام ١٠٦٦ على الفرار مذعورة.

تحول هنري المنتصر الى معالجة الشؤون الداخلية ومواجهة النقمة المستمرة التي نشأت عن مهاجمته الكنيسة. لقد حان الوقت ليدين الملك النزاعات المذهبية ويدعو الى الوحدة في خطاب يلقيه في البرلمان.

عشية ميلاد ١٥٤٥ خاطب هنري الاساقفة والنبلاء فيما أعضاء مجلس العموم واقفون في الخلف احتراماً. بدأ هنري، وهو السياسي المعتق، متملقاً شاكراً اقرار

المساعدات في سبيل احتلال بولونيا. ثم تحول ليندد بالجميع بقسوة: "لقد انتفت المحبة والتفاهم بينكم." وحمّل الاكليريكيين معظم المسؤولية عن النزاع الذي مزق المملكة لانهم "يبشرون يومياً بعضهم ضد بعض."

قال: "أنصح لكم بأن تصلحوا هذه الاخطاء وتنشروا الكلمة والا،" - وهنا رشقت عيناه الجمع بغضب - "عملت بنفسي لاهماد هذه النزاعات."

ران على القاعة صمت. ربما كان معظم المستمعين يوافقون الملك رأيه بعقلهم الواعي، لكنهم في عقلهم اللاواعي كانوا يتساءلون عن قيمة النظام والحكومة عندما تصبح مسألة الخلاص في الآخرة على المحك.

استمرت الحرب بطيئة طوال ربيع ١٥٤٦ فيما الفرنسيون يحاولون استرجاع بولونيا. وفي ٧ يونيو (حزيران) وقعت معاهدة سلام تعاد بولونيا بموجبها الى فرنسا عام ١٥٥٤ في مقابل مليوني كراون. لكن هنري لم يكن ليعود الى فرنسا في حملة أخرى، ففي فبراير (شباط) أصيب بنوبة حمّى حادة.

تفاقمت القروح في ساقيه وارتفع ضغط دمه (كان يشكو دائماً من الصداع) وعانى مشاكل في الكليتين. وسرعان ما ستتحقق "نبوءة" اللورد مونتغيو المتهور الذي أعلن عام ١٥٣٧ أن ساق هنري ستقتله.

لقد بدأ مرض هنري الاخير.

غياب شمس

واجه الملك الكهل قدره بوعي كامل وقد بلغ الخامسة والخمسين. ومع أنه لم يكن مغرماً بأعباء الحكم حتى في شبابه ("لا، سأقرأ البقية في الليل") فقد استمر في توقيع المذكرات وقراءة البريد وابداء ملاحظاته.

واستمرت الحياة هانئة في القصور الملكية خلال أواخر صيف ١٥٤٦. كان البستانيون يقلمون الشجيرات في ممرات حدائق غرينيتش ويقتلعون الاعشاب الضارة من مساكب الفريز (الفراولة) ويزرعون شتول الورد. وتابع موسيقيو البلاط ومنشدوه تمارينهم وعروضهم. وفي نوفمبر (تشرين الثاني) قدم هنري الى قصره في وايتهول للمرة الاخيرة.

كان مرضه تفاقم كثيراً، لكنه اضطر الى معالجة شأن جديد مثير وخطر: كان دوق نورفوك وابنه ايرل اوف صاري



الخاتم الثالث الاعظم للملك هنري الثامن.

غارقين في الخيانة، أو هكذا بدوا. كان صاري شاعراً وفارساً ونبيلا مدافعا عن بولونيا، لكنه كسر بيديه شعار نبالة يخص الامير ادوارد ولي العهد. وأورد الادعاء أن اللورد نورفوك تواطأ مع ابنه لتنفيذ الجريمة.

لم يكن هناك دليل قاطع ضد الدوق، لكن هنري قرر أن يتخلص من الاثنين، فواجبه حماية ابنه وسلالة تيودور. وهكذا اعتقل نورفوك وصاري في ١٢ ديسمبر (كانون الاول) وأرسلا الى البرج.

خلال شتاء لندن الضبابي بذل الاطباء ما استطاعوا لاراحة الملك، مستخدمين ماء الورد وماء العشبة الخنزيرية وغسل الفم والكمادات ومراهم البواسير ولزقات المعدة والذرور (البودرة) الملطفة والقرفة المجففة المحلاة والزنجبيل الاخضر. كان الجراحون يفركون جسم الملك الضخم بالاسفنج المبلل على الدوام، وكان هواء الغرف الرطبة عابقا بروائح نار الحطب والمسك والعطور الغالية الثمن.

وهكذا مر الميلاد. وفي ٧ يناير (كانون الثاني) وجهت تهمة الخيانة العظمى رسمياً الى نورفوك وابنه. وحوكم صاري في ١٣ يناير (كانون الثاني) في غيلدهول، فتكشفت أمام المحكمة كل آثامه السابقة. كان أدخل السجن قبل أربع سنوات لتحطيمه نوافذ في لندن بمقلاع. وهو "أحب محادثة الاغراب وتقليد تصرفاتهم."

وبتّت مذكرة من هنري رأي هيئة المحلفين على رغم الدفاع الرائع الذي قدمه صاري. فحُكم بقطع رأسه في تاور هيل خلال أسبوع، ونفذ الحكم في ١٩ يناير (كانون الثاني). أما نورفوك فقد استجوبه المجلس بقسوة حول تهمة التآمر للخيانة العظمى وجُرِّد من حقوقه المدنية. ومن حسن حظه أن الاجراءات طالت كثيراً.

في هذه الاثناء ساءت حال الملك فأرسل في طلب الملكة. قال لها: "مشيئة الله أن نفترق." فانهارت كاثرين، فأمرها هنري بالخروج. أما الامير ادوارد (٩ أعوام) الذي كان في أشريدج وسط غابات شجر الزان، والاميرة اليزابيت (١٣،٥ عاما) التي كانت في قصر انفيلد، فلم يريا والدهما في ساعاته الاخيرة.

في ٢٧ يناير (كانون الثاني)، يوم دين نورفوك بتهمة الخيانة العظمى بقرار من البرلمان، بدا أن هنري يحتضر. ولما سئل عما اذا كان يرغب في رؤية رجل دين أجاب: "كرانمر فقط، ولكن لم يحن الوقت بعد." ثم أضاف بعناده المعروف وقدرته على أخذ قراراته حتى النهاية: "سأنام قليلا ثم أرى حالي وأشير عليكم بما يجب فعله."

لكنه أخطأ الحساب هذه المرة. كان شبه عاجز عن النطق عندما أفاق. ولما وصل رئيس الاساقفة في منتصف الليل كان تخطى مرحلة الكلام، وكل ما استطاع عمله ضغط يد كرانمر دلالة الايمان والتوبة. وفي الثانية صباحاً توفي هنري الثامن بعدما هيمن على انكلترا قرابة ثمان وثلاثين سنة.

انطلق موكب الجنازة من قلعة وندسور في طقس معتدل مع هبوب ريح غربية حملت بشائر الربيع. وجرَّت العربة التي حملت جثمان هنري سبعةُ أحصنة امتطاها أولاد نبلاء في ثياب سود. وكان الجثمان حُنِّط وأقفل عليه في صندوق من الرصاص داخل النعش.

في ١٦ فبراير (شباط) ١٥٤٧ فُتح المدفن الملكي تحت منصة المرتلين في كنيسة القديس جورج، وأنزل ١٦ عنصراً من الحرس الملكي النعش الكبير الى جانب نعش الملكة جين.

وهكذا انتهت حياة هنري الثامن أقسى ملوك انكلترا وأكثرهم مزاجية وإرعاباً.

انقذ موت هنري الدوق نورفوك من الاعدام. وتزوجت كاثرين بار السر توماس سيمور الذي كانت مخطوبة له قبل أن يطلبها الملك.

وخلف الامير ادوارد (ادوارد السادس) أباه، لكنه لم يعمّر طويلا اذ أصيب بداء السل وتوفي ولمّا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره. وهو وافق عند احتضاره (ربما لضمان خلافة بروتستانتية للعرش) على أن تصبح اللايدي جين غراي ابنة حفيد هنري السابع ملكة على انكلترا. لكن الشعب التف حول الاميرة ماري (ماري الاولى) ابنة هنري الوحيدة المتبقية من كاثرين الاراغونية وكانت كاثوليكية مخلصة. وقطع رأس اللايدي جين التي لم يدم حكمها سوى تسعة أيام. وأحرق كرانمر بتهمة الهرطقة. وتوفيت "ماري الدموية" (لقب الملكة ماري الاولى) في العام ١٥٥٨ فخلفتها على العرش ابنة هنري من أن بولين الاميرة اليزابيت (اليزابيت الاولى) آخر سلالة تيودور.

البروفسور جون باول ■

ترجمة فواز خوري



الذكاء يزعج!

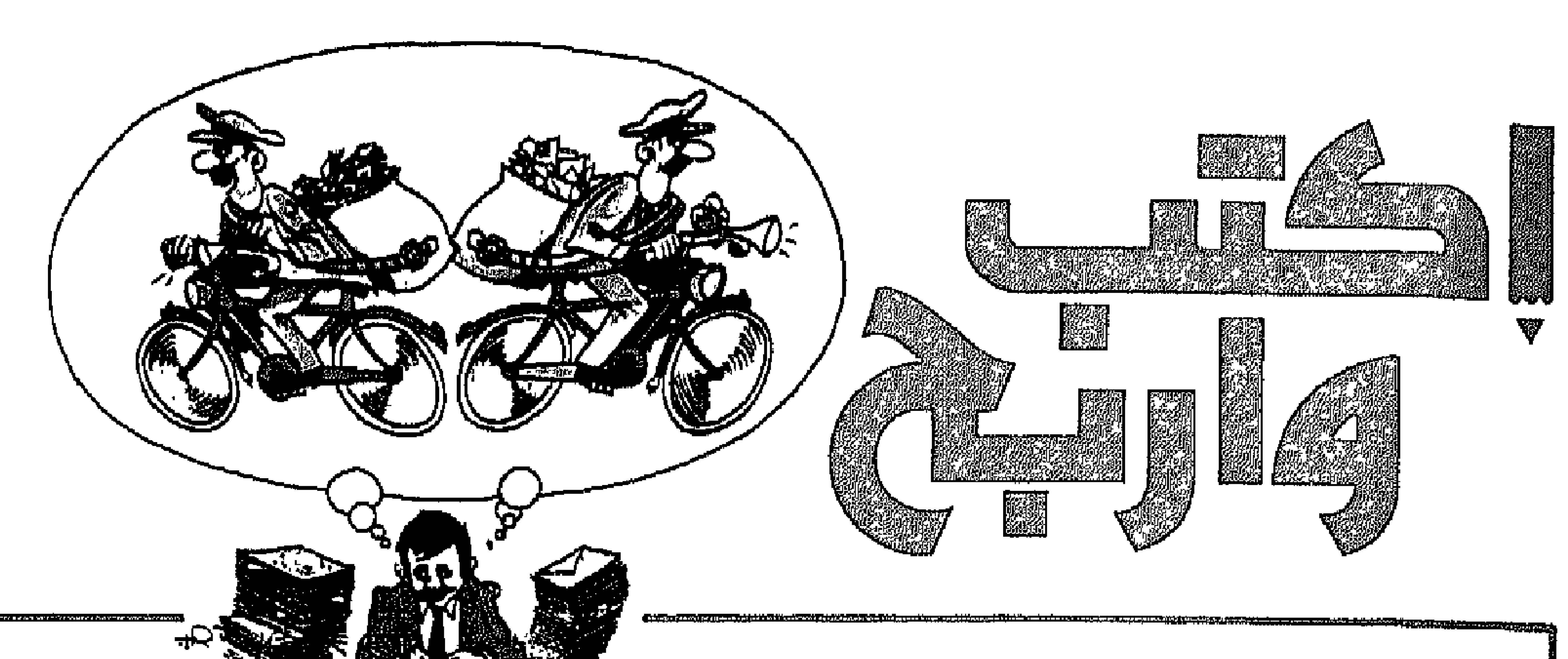
بعدما انتهى مهندس الكمبيوتر من برمجة جهازنا الجديد في الشركة، طلب مني أن أساعده في تدريب الموظفين على استعماله. وقد قالت لي احدى الموظفات: "يسرني كثيراً أنكِ أنتِ تدربينني وليس المهندس."

فدهشتُ وأخبرتها أن للمهندس من المعلومات ما يفوق خبرتي أشواطاً.

فردت الموظفة: "أدرك ذلك تماماً. لكنني أشعر بالراحة معك أكثر، فالاشخاص البالغو الذكاء يثيرون أعصابي."

ر.ب.

اكتب واربح



هل لديك نكتة؟ هل صادفت في حياتك العائلية أو المهنية حادثاً طريفاً؟ هل سمعت حكاية ذات مغزى وترغب في أن تشرك الآخرين في متعتها؟ خذ قلماً وورقة واكتب ما لديك وأرسله الى "المختار" فتدفع لك المجلة في المقابل، بعد النشر، حسب المعدلات الآتية:

صور من الحياة: القصة يجب أن تكون حقيقية تتحدث عن تجربة شخصية ناجحة ذات متعة خاصة. تدفع عن القصة الواحدة ٢٥ دولاراً.

تأملات معاصرة: مقاطع أصلية أو من كتب ومقالات منشورة تنطوي على مغاز حكمية. يدفع دولار عن كل سطرين.

حديقة أفكار: أقوال مأثورة للأعلام العرب. تدفع ٥ دولارات عن كل سطرين، على ألا يتجاوز القول المأثور السطرين.

الضحك خير دواء: تفضل النكتة الاصلية، أما اذا كانت منشورة فيجب أن تختار من المطبوعات المحلية ذات الانتشار المحدود. تدفع ٢٥ دولاراً عن الاصلية و١٠ عن المنشورة.

السدات: هناك نكات ونوادر قصيرة من مصادر مطبوعة مثل الكتب والمجلات ذات الانتشار المحدود. وهذه كذلك يرحب بها "المختار" ويدفع دولارين عن السطر ذي العمودين.

شروط جديدة

- كتابة الرسائل بخط واضح، والا طبعها على الآلة الكاتبة.
- كتابة مادة كل باب على ورقة منفردة.
- ارفاق كل مادة بنسخة مصورة كاملة لصفحة الكتاب أو المجلة أو الجريدة التي تظهر فيها، شرط أساسي لقبول أي مادة، اذ من دونها يتعذر علينا التحقق من صحة المصدر.
- ذكر المصدر العربي ضروري ونعني بذلك: اسم الكتاب، اسم المؤلف، تاريخ النشر وعنوان الناشر كاملا. (اذا اختيرت المواد من مجلة أو جريدة، فينبغي ارسال عنوان الجريدة أو المجلة كاملاً، خصوصاً اذا كانت المطبوعة محلية محدودة الانتشار).
- تحاشي المواد المترجمة أو المستقاة من مصادر أجنبية.
- لا ينظر في الرسائل التي تضم كدسات من المواد، فالمقصود أن يحسن القارىء الاختيار.
- لا تعاد النصوص الى أصحابها، سواء نشرت أو لم تنشر.

توجه الرسائل الى العنوان الآتي: مجلة "المختار من ريدرز دايجست"، بيروت، شارع المقدسي، بناية الشرتوني، ص.ب ٨٧٠٧ لبنان.



"إزهار الربيع" - زيتية للفنانة الامريكية جانيت فيش، ١٩٨٨.